
اجاثا كريستي
ابنة الفراعنة



أجاثا كريستي

{1976 - 1890}

–الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

– بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

– كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا، تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديّون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. ورواياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

ابنة الفراعنة

Death Comes As the End

في سنة **2000** قَبْل الميلاد في «مصر» أيامَ عهْد الفراعنة حيثُ يأخذُ «أمحتوب» مَحْظيتَه الجَميلة الشابّة «نوفريت» إلى بيته. ولكنَّ جميعَ أفراد أسْرته لم يرحّبوا بها؛ ولهذا عندما ماتتْ مقتولةً كانت ابنة «أمحتوب» «رينسنب» وصديقُها «حوري» يشكّان في وجود مُؤامرة لقتْلها، ويكشف «حوري» مدى الطّمع والحقْد اللذين يسْريان في كيان الأسْرة.

ثمن الكتاب

البلد	الثمن	البلد	الثمن
لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	100 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الاردن	2 دينار	مصر	10 جنيهات
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	5 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	اليمن	400 ريال



تاليف

Agatha Christie

الاسم الأصلي للكتاب

DEATH COMES AS THE END

(1944)

الغلاف بريشة الفنان العالمي

عبد العال

شخصيات الرواية

- " **أمحتوب** " : كاهنُ القبور في مدينة "**طيبة**" . وربُّ الأُسرة .
- "**سوبك**" ابن "**أمحتوب**" الأكبر من زوجته الأولى "**أياشات**" .
- "**كيت**" زوجةُ "**سوبك**" هادئةُ الطبع . تهتمُّ بأولادها .
- "**ياموس**" ابنُ "**أمحتوب**" الثاني . وشقيقُ "**سوبك**" .
- "**ساتيبي**" زوجةُ "**ياموس**" . قويةٌ، حادةُ الطبع . مُتَسلِّطةٌ .
- "**رينسنب**" ابنةُ "**أمحتوب**" وشقيقةُ "**سوبك**" و"**ياموس**" .
- "**إيبي**" ابن "**أمحتوب**" من زوجته الثانية .
- "**أسا**" أم "**أمحتوب**" وجدَّةُ أولادِه وهي ذكيةٌ وحكيمةٌ .
- "**نوفريت**" محظيةُ "**أمحتوب**" التي جاء بها من الشمال .
- "**هينيت**" خادمةٌ عجوزٌ . يثقُ بها "**أمحتوب**" ويكرهُها الجميعُ .
- "**حوري**" القائم بأعمالِ "**أمحتوب**" يتميزُ بالذكاء والحكمةِ .
- "**كاماني**" : جاءَ من الشمالِ . من أقاربِ "**أمحتوبَ**" .

الفصل الأول

وقفت "**رينسنب**" تنظر عبر النيل، وكانت أصوات أخويها "**ياموس**" و"**سوبك**" المرتفعة تصل إليها من البعد خافتة.. كانا يتناقشان فيما إذا كانت الجسور في مكان معين تحتاج إلى تقوية، وكان صوت "**سوبك**" كالمعتاد عاليا ومليئا بالثقة، ومن عاداته ان يؤكد آراءه بسهولة وإيمان، وكان صوت "**ياموس**" منخفضا ومتذمرا يعبر عن الشك والقلق، و"**ياموس**"، وهو الابن الأكبر، دائما في حالة قلق من شيء أو آخر، وكانت إدارة الضيعة في أثناء غياب أبيه في الإقطاعية الشمالية –إلى حد ما– بين يديه، وكان حريصا وميالا إلى توقع المتاعب حيث لا توجد، وهو رجل ضخم بطيء الحركة وليس به شيء من مرح وثقة "**سوبك**". و"**رينسنب**" تتذكر منذ طفولتها هذين الأخوين الأكبر منها وهما يتناقشان بمثل هذه الطريقة، وشعرت فجأة بالأمان، لقد عادت إلى البيت مرة أخرى.. أجل لقد عادت إلى البيت. ولكن حينما نظرت عبر النهر اللامع أحست بالثورة والألم فـ"**فاي**" زوجها الشاب قد مات... "**فاي**" بوجهه الضاحك وكتفيه القويتين أصبح مع "**أوزوريس**" في مملكة الموت، وها هي "**رينسنب**" –أرملته المحبوبة– في تعاسة، وكانا قد أمضيا ثماني سنوات معا، وقد ذهبت إليه وهي تكاد تكون طفلة، والآن ها قد عادت وقد ترملت ومعها ابنة "**فاي**"، "**تيتي**"، إلى منزل أبيها وخيل إليها في هذه اللحظة أنها لم تترك المنزل قط، وراقت لها هذه الفكرة، ستنسى هذه السنوات الثماني المليئة بالسعادة التي اندثرت بالألم والفقدان. نعم انسيها وعودي مرة أخرى "**رينسنب**"، ابنة "**أمحتوب**" كاهن القبور، الفتاة التي لا تفكر كثيرا ولا تشعر بالم، فحب الزوج كان شيئا قاسيا، وقد خُدعتِ برقة هذا الحب، ودفعتِ الثمن بهذا الحزن الذي تشعرين به الآن، وتذكرت "**رينسنبَ**" الكتفين القويتين البرنزيتين والفم الضاحك، والآن "**فاي**" قد حُنط ولُفَّ في الضمادات ومضى في حِمى الأحجبة في رحلته إلى العالم الآخر، ولم يعد "**فاي**" في هذه الدنيا يبحر على النيل ويصطاد السمك ويضحك للشمس، بينما تكون هي مستلقية في القارب وعلى ركبتيها "**تيتي**" الصغيرة تضحك له.

ومر بخاطر "**رينسنب**" : "لن أفكر في هذا، لقد انتهى الأمر، أنا هنا في البيت وكل شيء كما كان، وأنا أيضًا قريبا ساعود كما كنت، وسيصبح كل شيء كما

كـان من قـبل، لقـد نـسـيت " **تيـتي** "، وها هي الآن تلعب مع الأطفـال الآخـرين وتضحك" . وفجأة استـدارت "**رينسنب**" ومضت عائدة إلى المنزل، ومرت بحمير محملة ومسوقة نحو النهر، ومرت بحقول القمح وبالمنازل القائمة خارج السور، ثم بالبوابة وإلى فناء الدار، وكان مكانا ممتعا جدًا، ففيه بحيرة صناعية وعلى يمينها نبات الفل المزهر والياسمين وتظللها أشجار التين، وكـانت "**تيـتي**" والأطفـال الآخرون يلعبون هناك وأصواتهم الحادة الواضحة مرتفعة، وكانوا يجرون داخل وخارج الكوخ الصغير المقام بجانب البحيرة، ولاحظت "**رينسنب**" أن "**تيتي**" تلعب بأسد خشبي يفتح ويقفل فمه بخيط، وهي لعبة كانت فيما مضى لعبتها هي، تلعب بها وهي طفلة، وفكرت مرة أخرى بارتياح: "لقد عدت إلى البيت ولم يتغير أي شيء هنا، كل شيء كما كان" . هنا الحياة آمنة مطمئنة، وأصبحت " **تيتي**" الآن هي الطفلة، وأصبحت "**رينسنب**" إحدى الأمهات اللاتي هن في حمى أسوار البيت، ولكن الإطار والجوهر لم يتغيرا. وتدحرجت كرة يلعب بها أحد الأطفال حتى وصلت إلى قدميها فالتقطتها ورمتها له وهي تضحك، ومضت "**رينسنب**" إلى البيت مارة بالغرفة الوسطى الكبيرة المزينة باللوتس الملون والخشخاش، ثم إلى الجزء الخلفي من المنزل المخصص للنساء، وقابلتها أصوات "**ساتيبي**" و"**كيت**" المرتفعة وهما تتناقشان كالمعتاد، وتمهلت وهي تتأمل بارتياح هذه الأصداء المألوفة –صوت "**ساتيبي**" العالي المسيطر العاتي– و"**ساتيبي**" هي زوجة أخيها "**ياموس**"، وهي امرأة طويلة جميلة تنقصها الرقة، ذات صوت مرتفع، وكانت مسيطرة على الخدم، والجميع يخافون سلاطتها ويهرعون لتنفيذ أوامرها، وكانت بقوة شخصيتها تجبرهم على القيام بالمستحيل. وكان "**ياموس**" نفسه يكنُّ لزوجته القوية العزيمة أكبر الاحترام، ويتقبل تأنيبها بطريقة طالما أثارت "**رينسنب**" . وفي خلال الفترات التي كان يسكت فيها صوت "**ساتيبي**" كان يسمع صوت "**كيت**" الهادئ العنيد، و"**كيت**" امرأة ليست بالجميلة، وهي زوجة "**سوبك**" الوسيم المرح، وهي متفانية في خدمة أولادها، ونادراً ما تتكلم أو تفكر في شيء آخر، وكانت طريقتها في المناقشة مع " **ساتيبي**" هي أن تردد بإصرار أي شيء تكون قد قالته، ولا تتزحزح عنه، وكانت لا تنفعل ولا تراعي، ولو للحظة، أي شيء سوى وجهة نظرها في المشكلة، وكان "**سوبك**" متعلقا بزوجته ويرتاح إليها ويتحدث معها في جميع أموره؛ لأنه مطمئن إلى أنها تتصنع

الإصغاء وتجاريه، ولكن في الحقيقة عقلها مشغول في مشكلة من مشكلات أولادها طوال الوقت، وتنسى كل ما قاله بمجرد أن ينتهي من قوله. وصاحت "**ساتيبي**" :

– إن هذه إهانة، ولو كان لـ"**ياموس**" إرادة فأر لما قبل هذا البتة. من المسؤول في غياب "**أمحتوب**"؟ إنه "**ياموس**" وكزوجة لـ"**ياموس**" يجب أن يكون لي أنا الاختيار الأول في الوسائد والمراتب المنسوجة، وهذا العبد الأسود الذي يشبه سيد قشطة يجب أن... وقاطعها صوت "**كيت**" العميق:

– لا لا يا صغيرتي لا تأكلي شعر العروسة، انظري هذا شيء أفضل، حلوى.. آه كم هي لذيذة.

– أما أنت يا "**كيت**" فقليلة الذوق ولا تستمعين حتى إلى ما أقوله، أنت لا ترين أن سلوكك شنيع.

– إن الوسادة الزرقاء كانت دائمًا ملكي.. آه انظري إلى "**انكا**"، إنها تحاول أن تمشي.

– إنك غبية مثل أولادك يا "**كيت**"، وهذا ليس بالشيء القليل! ولكنك لن تتخلصي من الموضوع بهذه الطريقة، فإن لي حقوقا كما أقول لك. وتنبهت "**رينسنب**" إلى خطوات خافتة خلفها، واستدارت وانتابها الشعور المألوف بعدم الارتياح عندما رأت "**هينيت**" واقفة خلفها، وكان وجه "**هينيت**" الهزيل ملتويا بابتسامتها نصف الذليلة المعتادة. وقالت "**هينيت**" :

– لم تتغير الأمور كثيرا يا "**رينسنب**" –كما ترين بلا ريب– ولا أعرف كيف أننا كلنا نتحمل لسان "**ساتيبي**"! وبالطبع تستطيع "**كيت**" أن ترد عليها، ولكن ليس بوسع البعض الآخر أن يفعلوا ذلك، فأنا أعرف مكاني –أرجو ذلك على الأقل– وإني أعترف بالجميل لوالدك؛ لأنه مَنحني مسكنا وطعاما وملبسا. آه، إن أباك رجل طيب، وأنا حاولت دائمًا أن أعمل قدر استطاعتي، فأنا دائمًا أعمل –أساعد هنا وهناك– ولا أنتظر شكرًا أو عرفانا، ولو كانت والدتك العزيزة قد عاشت لاختلف الوضع، فقد كانت تقدرني وكنا مثل أختين، كما كانت امرأة جميلة، وقد قمت بواجبي وحافظت على وعدي لها، فقد قالت لي وهي تموت ("**هينيت**" اعتني بالأولاد)، وقد بررت بوعدي وأفنيت نفسي في خدمتكم جميعا، ولم أنتظر شكرا ولم أطلب هذا الشكر، ولم أشْكُ قط وكان الناس يقولون، ما هذه إلا "**هينيت**"

العجوز وهي لا قيمة لها ولا يفكر فيَّ أحد، ولماذا يفكرون فيَّ؟ إنني فقط أحاول أن أساعد. وتسللت مثل ثعبان البحر من تحت ذراع "**رينسنب**" إلى الحجرة الداخلية، وقالت:

- فيما يختص بالوسائد -بعد إذنك يا "**ساتيبي**"- ولكني سمعت "**سوبك**" يقول:...وتركت "**رينسنب**" المكان وقد استيقظ فيها كرهها القديم لـ"**هينيت**" - عجبا إنهم جميعا يكرهون "**هينيت**"! والأسباب هي: صوتها الباكي، وإشفاقها الدائم على نفسها، وسرورها الخبيث بإشعال النار في المناقشات. وفكرت "**رينسنب**": "آه حسنا ولم لا؟" هذه كما تعتقد طريقة "**هينيت**" لتسلية نفسها،ولا ريب أن الحياة كئيبة بالنسبة إليها، والحقيقة أن "**هينيت**" تكد وتكدح ولم يعترف أحد بجميلها قط، ولا يمكن أن يشعر أحد بامتنان نحوها لأنها تلفت الأنظار بإصرار نحو أفضالها لدرجة أن أي شعور كريم قد يشعر به المرء تجاهها يتجمد تلقائيا، ومر بخلد "**رينسنب**": "إن "**هينيت**" إحدى الذين كتب عليهم أن يخلصوا للغير ولا يجدوا أحداً يخلص لهم، وهي غير جذابة وغبية، ولكنها تعرف دائمًا ما يجري، فإن طريقتها في المشي دون صوت وأذنيها الحادتين وعينيها الفضوليتين تجعل من المستحيل أن يبقى شيء لفترة طويلة سرًّا عليها، وأحيانا كانت تحتفظ بمعلوماتها لنفسها وأحيانا أخرى كانت تتنقل من شخص لآخر تهمس في أذنيه وتقف خلف الكواليس وهي سعيدة بمراقبة نتائج أقوالها. وقد طلب كل فرد في البيت -على حدة- في وقت من الأوقات من "**أمحتوب**" أن يتخلص من "**هينيت**"، ولكن "**أمحتوب**" رفض أن يستجيب لهذا وربما كان "**أمحتوب**" هو الشخص الوحيد الذي يعزها، وكانت "**هينيت**" تقابل رعايته بتفان متناه يثير غثيان باقي العائلة، ووقفت "**رينسنب**" مترددة لحظة وهي تستمع إلى الضجة المتزايدة من زوجتي أخويها، وقد ازدادت النيران بتدخل "**هينيت**"، ثم اتجهت ببطء نحو الغرفة الصغيرة حيث كانت جدتها "**أسا**" تجلس بمفردها، وفي خدمتها بنتان صغيرتان زنجيتان، وكانت "**أسا**" مشغولة بفحص ثياب من التيل كانتا تعرضانها عليها وكانت تزجرهما بطريقة حبية. نعم كان كل شيء كما هو، ووقفت "**رينسنب**" تستمع دون أن يلاحظن وجودها، وفكرت في أن العجوز "**أسا**" قد ضمرت قليلا. هذا كل ما في الأمر، ولكن صوتها وكلامها ما زالا كما كانا لم يتغيرا، بل أن

"**رينسنب**" تكاد تتذكر الكلام كلمة كلمة كما كان منذ ثمانية أعوام عندما تركت المنزل. وتسللت "**رينسنب**" إلى الخارج مرة أخرى دون أن تلاحظها جدتها أو البنتان، ووقفت لحظة أمام باب المطبخ المفتوح المنبعثة منه رائحة بط محمر وكثير من الكلام والضحك. ووقفت "**رينسنب**" ساكنة تماما، وعيناها نصف مغمضتين وكان باستطاعتها من المكان الذي تقف فيه أن تسمع في آن واحد كل ما يدور حولها: الأصوات العديدة المتنوعة المنبعثة من المطبخ. النبرة العالية الحادة لصوت "**أسا**" العجوز، نبرات "**ساتيبي**" الرفيعة الحادة، ونبرات "**كيت**" الخافتة العميقة التي تتردد بإصرار. مجموعة من الأصوات النسائية مثرثرة ضاحكة شاكية زاجرة ومتعجبة، وفجاة شعرت "**رينسنب**" بالاختناق وهي محاطة بهذا الجو النسائي الصاخب. نساء أصواتهن عالية ويثرن الضوضاء! منزل مليء بالنساء- لا يسكتن أبداً ولا يهدأن، دائماً يطلن الكلام ولا يعملن شيئا. و"**فاي**"... "**فاي**" ساكن ومترقب في قاربه، وكل تفكيره مركز في السمك الذي سيصطاده برمحه. لا شيء من هذه الثرثرة واللغط الدائمين. ومضت "**رينسنب**" بسرعة خارجة مرة أخرى من المنزل إلي الجو الساخن الساكن في الخارج، ورأت "**سوبك**" عائداً من الحقول، كما رأت عن بعد "**ياموس**" وهو متجه إلى المقبرة. واستدارت ومضت في الطريق المؤدي إلى الجبل الجيري حيث كانت المقبرة، وكانت هذه مقبرة النبيل العظيم "**مريبتا**" وكان والدها هو كاهن القبور المسؤول عن العناية بالمقبرة، وكانت كل الضيعة والأراضي جزءا من وقف المقبرة. وفي غياب أبيها كانت واجبات "**الكا**" أو كاهن القبر تقع على أكتاف أخيها "**ياموس**". وعندما وصلت "**رينسنب**" بعد أن صعدت الطريق المنحدر ببطء إلى المقبرة -كان "**ياموس**" هناك في الغرفة الحجرية الصغيرة للقبر يتشاور مع "**حوري**" القائم بأعمال والدها. وكان "**حوري**" يضع على ركبتيه ورقة من أوراق البردي وكان هو و"**ياموس**" منكبين عليها. وابتسم كل من "**حوري**" و"**ياموس**" لـ"**رينسنب**" عندما وصلت وجلست بجانبهما في الظل. وكانت "**رينسنب**" تحب أخاها "**ياموس**" منذ الصغر، فقد كان رقيقاً ودودا تجاهها، وكان بطبيعته رؤوفا ووديعا، وكان "**حوري**" أيضا لطيفا معها دائما. منذ طفولتها يصلح لها لعبها وهي صغيرة، وعندما تركت منزل أبيها للتزوج كان "**حوري**" شابا رزينا لا يتكلم كثيرا وله يدان حساستان ماهرتان، وفكرت "**رينسنب**" وهي تنظر إليه، أنه

وإن كان "**حوري**" يبدو أكبر قليلا إلا أنه لم يطرأ عليه تغيير يذكر، فإن الابتسامة الرزينة التي استقبلها بها لم تتغير كما تتذكرها. وكان "**ياموس**" و"**حوري**" يغمغمان معا: "ثلاثة وسبعون كيلة من الشعير مع "**إيبي**" الأصغر.. المجموع إذن مائتان وثلاثون من الدريس ومائة وعشرون من الشعير".

– نعم ولكن هناك ثمن الخشب، وقد دفع ثمن المحصول مقابل زيت في "**برهيا**".. وتابعا حديثهما وجلست "**رينسنب**" وهي شبه نائمة سعيدة بأصوات الرجلين الخافتة حولها، وبعد قليل نهض "**ياموس**" وترك ورق البردي مع "**حوري**" وغادر المكان. وجلست "**رينسنب**" في سكون مؤتنسة بصحبة "**حوري**"، وبعد قليل أمسكت بحزمة من أوراق البردي وسالت:

– هل هذه من أبي؟ وأومأ "**حوري**"، وسالت بفضول:

– ماذا يقول في هذه الورقة؟ وفتحت الحزمة وحدقت إلى العلامات الهيروغليفية التي لا تعني شيئا لعينيها التي لا تعرف القراءة، وابتسم "**حوري**" قليلا ومال من فوق كتفيها ووضع أصبعه الصغير على الحروف وهو يقرأ، وكانت الرسالة مكتوبة بالأسلوب المنمق للكاتب الهيروغليفي المحترف: «"**أمحتوب**" خادم الضيعة وكاهن القبور يقول: يا ليت حالكم يكون مثل حال الذي يعيش مليون مرة.. ليساعدكم الإله "**هيرشاف**" سيد "**هيدوكليبس**". وكل الآلهة الآخرين. ليبعث الإله "**بتاح**" السعادة في قلوبكم مثل السعادة التي يبعثها للذين يعيشون طويلا. إن الابن والكاهن يكلم والدته "**أسا**": كيف حال صحتك وأمنك؟ ويسأل كل أفراد الأسرة: كيف حالكم؟ ويسأل ابنه "**ياموس**" عن أحواله، ويحثه أن يستغل أرضه إلى أبعد الحدود، وأن يكد ويجتهد في زرع الأرض ويعده بأن يصلي لله من أجله إذا كان مجتهدا». وضحكت "**رينسنب**":

– "مسكين يا "**ياموس**".! إني واثقة بأنه يعمل ويشقى بما فيه الكفاية... وكانت طريقة أبيها في النصح قد صورته أمامها بوضوح بطريقته المتعالية الصاخبة –إلى حد ما– وبنصائحه وتعليماته المستمرة. ومضى "**حوري**" يقرأ: "اعتن كثيراً بولدي "**إيبي**" فإني سمعت أنه غير راض، وتأكد أن "**ساتيبي**" تعامل "**هينيت**" معاملة طيبة واهتم بالأمر، اكتب وأخبرني عن الزيت والكتان وحافظ على محاصيلي، حافظ على كل ما أملكه لأني أحملك مسؤولية هذا، وإذا غمر الفيضان أرضي

فالويل لك أنت و"سوبك" . وقالت "رينسنب" بسرور:

– إن أبي كما هو بالضبط، يفكر دائما في أنه لا يمكن عمل شيء بالطريقة الصحيحة إذا لم يكن موجوداً هنا. وتركت ورقة البردي وأضافت برقة:

– إن كل شيء بالضبط كما كان. ولم يجب "حوري" وأخذ ورقة بردي وبدأ يكتب و"رينسنب" تراقبه في كسل لتضييع الوقت، وكانت تشعر بالرضا والقناعة لدرجة أنها كانت لا ترغب في الحديث. وبعد قليل قالت بلهجة حالمة:

– إنه من المفيد أن يتعلم المرء الكتابة على ورق البردي، فلماذا لا يتعلم كل الناس؟

– إن هذا ليس ضروريا.

– ربما ليس ضروريا ولكنه لطيف.

– هل تظنين هذا يا "رينسنب"؟ وما الفارق بالنسبة إليك؟ وفكرت "رينسنب" برهة ثم قالت ببطء:

– عندما تسألني هذا لا أعرف الجواب بصدق يا "حوري". وقال "حوري":

– في الوقت الحاضر كل ما هو ضروري هو وجود بعض الكتبة في ضيعة كبيرة، ولكن على ما أظن سيأتي اليوم الذي توجد فيه جيوش من الكتبة في جميع أنحاء "مصر"، فإننا نعيش في بداية عهد عظيم. وقالت "رينسنب":

– سيكون هذا شيئا جميلا. وقال "حوري" ببطء:

– إنني لست واثقًا بهذا.

– ولماذا؟

– لأن الأمر يا "رينسنب" سهل جدًا، ولا يكلف جهداً كبيرا أن يكتب المرء عشر كيلات من الشعير أو مائة رأس من الماشية أو عشرة حقول من البرسيم، وسيبدو الشيء الذي يكتب كأنه الحقيقة، وسيأتي اليوم الذي يحتقر فيه الكاتب الرجل الذي يفلح الحقل ويجني الشعير ويربي الماشية، ولكن الحقول والشعير والماشية هي في الواقع حقيقة واقعة، وليست علامات من الحبر على ورق بردي فحسب، وعندما تدمر كل الوثائق وكل رزم أوراق البردي ويندثر الكتبة فإن الرجال الذين يجنون ويحصدون هم الباقون وستظل "مصر" حية. ونظرت إليه "رينسنب" بانتباه وقالت ببطء:

– نعم إنني أرى ما تعنيه. إن الأشياء التي نستطيع أن نراها ونمسها ونأكلها هي فقط الأشياء الحقيقية.. إن كتابة مائتين وأربعين كيلة من الشعير لا تعني شيئا إلا إذا كان الشعير موجودا فإن المرء يستطيع أن يكتب أكاذيب. وابتسم لها "**حوري**" وهو ينظر إلى وجهها الجاد، وقالت "**رينسنب**" فجأة:

– إنك أصلحت لي لعبتي الأسد منذ زمن بعيد، أتذكر؟

– نعم إنني أذكر يا "**رينسنب**".

– إن "**تيتي**" تلعب به الآن.. إنه الأسد نفسه. وصمتت برهة ثم قالت ببساطة:

– عندما ذهب "**فاي**" إلى "**أوزوريس**" كنت حزينة جدًّا، ولكني الآن رجعت إلى البيت وسأكون سعيدة مرة أخرى وسأنسى؛ لأن كل شيء هنا كما هو ولم يتغير بالمرة.

– هل تعتقدين هذا حقا؟ ونظرت إليه "**رينسنب**" بحدة:

– ماذا تعني يا "**حوري**"؟

– أعني أنه يوجد دائما تغير فثمانية أعوام هي دائما ثمانية أعوام. وقالت "**رينسنب**" بثقة:

– لا شيء يتغير هنا.

– إذن ربما يجب أن يحدث تغير. قالت "**رينسنب**" بحدة:

– لا.. لا.. إنني أريد أن يظل كل شيء كما هو.

– ولكن أنت نفسك لست "**رينسنب**" نفسها التي رحلت مع "**فاي**".

– بل أنا كما كنت! وإن لم أكن كذلك فإني سأصبح كذلك قريبا. وهز "**حوري**" رأسه وقال:

– إنك لا يمكن أن ترجعي إلى الخلف يا "**رينسنب**" إن هذا مثل موازيني، فأنا آخذ نصفا وأضيف إليه ربعا ثم عشرا، وفي النهاية كما ترين تكون الكمية مختلفة عما كانت عليه في البداية.

– ولكنني مجرد "**رينسنب**".

– ولكن "**رينسنب**" قد أضيفت إليها أشياء في خلال هذه الأعوام ولذلك أصبحت "**رينسنب**" مختلفة.

– كلا.. كلا.. إنك "**حوري**" القديم نفسه.

– قد تعتقدين هذا ولكنه ليس صحيحا.

– نعم، نعم، و "**ياموس**" كما هو قلق دائمًا ومتوجس، و"**ساتيبي**" مسيطرة عليه كما كانت بالضبط، وهي و"**كيت**" كانتا تتشاجران كالمعتاد على المراتب والوسائد، وقريبا عندما سأعود ساجدهما تضحكان معا كأفضل الأصدقاء، وما زالت "**هينيت**" تتسمع وتتلصص وتتباكى بإخلاصها لنا، وجدتي كانت تعاتب خادمتها الصغيرة بخصوص بعض الأقمشة. كل شيء كما كان من قبل، وقريبا سيعود والدي إلى البيت وسيثير ضجة كبيرة وسيقول، لماذا لم تفعلوا هذا؟ وكان يجب أن تفعلوا ذاك. وسيظهر على "**ياموس**" القلق، وسيضحك "**سوبك**" ويبدو كالبريء، وسيدلل أبي "**إيبي**" وهو الآن في السادسة عشرة من عمره كما كان يدلله وهو في الثامنة ولن يتغير شيء بالمرة... وتوقفت وهي لاهثة. ونهض "**حوري**" ثم قال برفق:

– إنك لا تفهمين يا "**رينسنب**". هناك شر يأتي من الخارج ويهاجم بحيث يستطيع العالم كله أن يراه، ولكن هناك نوعا آخر من العفن ينمو من الداخل ولا يظهر خارجيا، وهو ينمو ببطء يوما بعد يوم حتى تصبح الثمرة أخيراً كلها عفنة، وقد أتلفها المرض. وحدقت "**رينسنب**" إليه. كان قد تكلم كمن يحدث نفسه لا كمن يوجه إليها الحديث، وهتفت بحدة:

– ماذا تعني يا "**حوري**"؟ إنك تخيفني.

– أنا نفسي خائف.

– ولكن ماذا تعني؟ ما هذا الشر الذي تتحدث عنه؟ ونظر إليها ثم ابتسم فجأة وقال:

– انسي ما قلته يا "**رينسنب**"، فإني كنت أفكر في الآفات التي تصيب المحاصيل. وتنهدت "**رينسنب**" بارتياح وقالت:

– إنني سعيدة فقد فكرت... لا أعرف ما فكرت فيه.

الفصل الثاني

كانت "**ساتيبي**" تكلم "**ياموس**" بصوت مرتفع ذي نبرة حادة لا تكاد تتغير:

– يجب أن تثبت شخصيتك. لن تُقدَّر حق قدرك ما لم تفعل ذلك. إن أباك

يامرك بإنجاز أمور يعلم الله أنها في الغالب مستحيلة، ويعاملك كطفل، كولد غير مسؤول وكأنك في مثل عمر "**إيبي**"، وأنت تستمع إليه في دعة وتوافقه وتعتذر عن عدم إنجاز أمور تعلم جيدا أنها مستحيلة. أجاب "**ياموس**" بهدوء:

- إن أبي لا يعاملني بالمرة مثل "**إيبي**". واشتاطت "**ساتيبي**" غضبا وهي تتكلم في هذا الموضوع الجديد:

- هذا صحيح، لأنه مغرم بهذا الولد المدلل الذي أصبح من المستحيل التعامل معه وهو يزيد سوءا يوما بعد يوم. إنه يختال ويتهرب من العمل كلما استطاع. إن هذه فضيحة، وسبب كل هذا هو أنه يعلم أن أباك يقف في صفه دائماً، ويغض النظر عما يفعل، ومن الواجب أن تتخذ أنت و"**سوبك**" موقفا حازما تجاه هذا الموضوع. وهز "**ياموس**" كتفيه وقال:

- وما الفائدة؟

- إنك ستصيبني بالجنون يا "**ياموس**"، هذه هي طريقتك. إنك وديع مثل امرأة، ولا نخوة فيك، وتوافق في الحال على كل ما يقوله أبوك.

- إنني أعز أبي.

- نعم وهو يستغل ذلك. إنك تتقبل اللوم في ذلة وتعتذر عن أمور لا ذنب لك فيها. يجب أن تكلمه مثلما يفعل "**سوبك**" الذي لا يخشى أحداً.

- نعم ولكن تذكري يا "**ساتيبي**" أنني أنا وليس "**سوبك**" موضع ثقة أبي، وكل شيء متروك لتقديري وليس لتقدير "**سوبك**".

- إنك تمثل أباك في غيابه في كل الأمور حتى في واجباته ككاهن للقبر، ومع ذلك ليست لديك سلطة معترف بها. يجب أن تكون هناك تسوية عادلة الآن، وقد أصبحت رجلا في منتصف العمر، وليس من العدل أن تعامل كطفل. وقال "**ياموس**" متشككا:

- أبي يحب أن يبقي زمام الأمور في يديه.

- تماما. إنه يسره أن يكون جميع أهل البيت مطيعين له وتابعين لمزاجه المتقلب. إن هذا أمر سيئ وسيزداد سوءا. يجب أن تواجهه بشجاعة في هذه المرة عندما يعود، وتطالب بتسوية مكتوبة، وتصر على أن تكون لك مكانة معترف بها في الضيعة.

- لن يرضى.

– إذن يجب أن تجعله يرضى. آه لو كنتُ رجلا في مكانك لعرفت كيف أتصرف! إنني أشعر أحيانا بأنني متزوجة بحشرة. واحمر وجه "**ياموس**" وقال:

– سأرى ماذا أستطيع أن أفعل.. نعم، قد أتكلم مع أبي وأطلب منه...

– بل تطالبه، فإن في يديك زمام الأمور، وهو لا يستطيع أن يعتمد على أحد سواك، فـ"**سوبك**" طائش و"**إيبي**" مازال صغيراً.

– ولكن يوجد "**حوري**".

– "**حوري**" غريب، وأبوك ولو أنه يعتمد على رأيه، فإنه لن يعطي السلطة إلا لشخص من دمه، ولكني أرى الحقيقة.. إنك وديع أكثر من اللازم، ويجرى اللبن بدلا من الدم في عروقك، ولا تهمك اسرتك، ولن نأخذ مكاننا الطبيعي إلا بعد موت ابيك. وقال "**ياموس**" بحزن:

– إنك تحتقرينني، أليس كذلك يا "**ساتيبي**"؟

– إنك تثيرني.

– اسمعي، أعدك أن أتكلم مع أبي عند عودته. وغمغمت "**ساتيبي**":

– نعم ولكن كيف؟ كرجل أم كفأر؟

- 2 -

كانت "**كيت**" تلاعب "**انكا**" أصغر أطفالها التي بدأت تحاول المشي، وكانت "**كيت**" تشجعها وهي تضحك مادة ذراعيها نحوها، وكانت تستعرض منجزات "**انكا**" أمام "**سوبك**" ولكنها لاحظت فجأة أنه غير منتبه لابنته، ويجلس ووجهه الوسيم عابس، فعاتبته برقة ولكنه قال بحدة:

– إن لديَّ أموراً اخرى افكر فيها وتقلقني.. وسألته "**كيت**" بعدم اكتراث:

– لماذا..؟ أهناك شيء على غير ما يرام؟ وأجاب "**سوبك**" غاضبا:

– إن المشكل هو أنني لست موضع ثقة. إن أبي رجل عجوز له افكار قديمة وسخيفة، وهو يصر على فرض رأيه في كل صغيرة وكبيرة، وهو لا يترك الأمور لتقديري... وهزت "**كيت**" رأسها وقالت:

– نعم هذا شيء مؤسف.

– لو كانت لـ"**ياموس**" أية شخصية، ولو كان يساندني لكان هناك أمل في إقناع

أبي، ولكن "**ياموس**" جبان وهو ينفذ تعليمات أبي حرفيا. ولاعبت "**كيت**" الطفلة ببعض الخرز وهمست:

– نعم هذا صحيح.

– سأقول لأبي عند عودته إنني فيما يختص بموضوع الخشب قد تصرفت حسب تقديري، فإنه من الأفضل كثيرا أخذ الثمن مقابل كتان بدلا من أخذه مقابل زيت.

– أنا متأكدة إنك على حق.

– ولكن أبي عنيد ويحب أن يفرض إرادته، وسيثور ويصيح قائلا: " لقد قلت لك أن تعقد الصفقة مقابل الزيت.. كل شيء يتم خطأ في غيابي. إنك فتى أحمق لا يعرف شيئا!" أيظن أني مازلت صغيرا؟ إني رجل في عنفوان شبابي الآن وهو قد شاخ. إن تعليماته المتعسفة ورفضه الموافقة على أي صفقة غير عادية معناه أننا لا نحصل على المكاسب الكافية، ومن الضروري لكي نصبح أغنياء أن نغامر قليلا، وأنا على نقيض أبي، لديَّ الشجاعة وبعد النظر. وتمتمت "**كيت**" برقة وعيناها على الطفلة:

– كم أنت شجاع وذكي يا "**سوبك**".

– ولكنه في هذه المرة إذا جرؤ وادعى أني مخطئ وسبني بصوت مرتفع فإنه سيسمع بعض الحقائق، وسأرحل ما لم يعطني حرية التصرف. وأوقفت "**كيت**" يدها المنبسطة نحو الطفلة، وأدارت رأسها بحدة وقالت:

– ترحل إلى أين؟

– إلى أي مكان. إنه من غير المحتمل أن يعاملني رجل عجوز مغرور بعنف ويضايقني ولا يعطيني الفرصة لأريه ما أستطيع عمله. وقالت "**كيت**" بحدة:

– لا! إنني أقول لا يا "**سوبك**"... ونظر إليها بدهشة وقد استرعت نبراتها انتباهه، وكان قد تعودها كمرافقة تهدئه لدرجة أنه كثيرا ما نسي وجودها كامرأة حية وإنسانة تفكر، وقال:

– ماذا تعنين؟

– أعني أنني لن أتركك تتصرف بحمق. إن الضيعة كلها ملك أبيك: الأرض، المحاصيل، المواشي، الخشب، حقول الكتان، كل شيء. وعند موته سيصبح كل هذا ملكك وملك "**ياموس**" وأولادكما. وإذا تشاجرت مع أبيك ورحلت، فقد يقسم

نصيبك بين "**ياموس**" و"**إيبي**"، وهو يحب "**إيبي**" كثيراً، والفتى يعلم ذلك ويستغله، وسيسره أن تختلف مع "**أمحتوب**" وترحل.. يجب أن تفكر في أولادنا. وحدق إليها "**سوبك**" ثم أطلق ضحكة صغيرة تنم عن الدهشة وقال:

- إن المرأة دائما غامضة، ولم أكن لأعرف يا "**كيت**" أن بإمكانك أن تكوني بعيدة النظر هكذا. وقالت "**كيت**" بجدية:

- لا تتشاجر مع أبيك.. لا ترد عليه وكن حكيمًا لفترة أطول.

- قد تكونين على حق، ولكن هذا قد يستغرق سنوات طويلة، يجب أن يشركنا أبي معه. وهزت "**كيت**" رأسها وقالت:

- إنه لن يفعل هذا. إنه يحب أن يقول إننا نأكل خبزه ونعتمد عليه، ولانستطيع شيئا دونه. ونظر إليها "**سوبك**" بفضول وقال:

- أنت لا تحبين أبي يا "**كيت**". وانحنت "**كيت**" مرة أخرى نحو طفلتها وقالت لها:

- تعالي يا حبيبتي انظري ها هي دميتك. تعالي إذن تعالي. ونظر إليها "**سوبك**" بحيرة ثم خرج.

- 3 -

أرسلت "**أسا**" في طلب حفيدها "**إيبي**" وهو فتى وسيم يبدو عليه التذمر، ووقف أمامها وهي توبخه بصوت مرتفع وحاد وتنظر إليه بعينيها الضعيفتين الماكرتين.

- ما هذا الذي أسمعه؟ إنك ترفض أن تفعل هذا وذاك؟ أنت لا تريد أن تعتني بالثيران، ولا تحب أن تذهب مع "**ياموس**" أو تلاحظ الزراعة؟ ماذا سيحدث إذا سمح لطفل مثلك أن يملي إرادته؟ قال "**إيبي**" بعبوس:

- لم أعد طفلا.. لقد كبرت فلماذا أعامل كطفل! يُطلب مني أن أعمل هذا أو ذاك دون أخذ رأيي ولا أُعْطَى مصروفا خاصا. إن "**ياموس**" دائمًا يأمرني فمن يظن نفسه؟

- إنه أخوك الأكبر وهو المسؤول في أثناء غياب ابني "**أمحتوب**".

- إن "**ياموس**" غبي وبليد وأنا أذكى منه، و"**سوبك**" أيضا غبي مع أنه يتفاخر ويتحدث عن ذكائه! وأبي أرسل خطابا قال فيه إني سأختار العمل الذي أعمله.

وقاطعته "**أسا**" العجوز:

– وهذا يعني أنك لن تعمل.

– وإنني يجب أن أُعطى طعاما وشرابا أكثر، وأبي إذا سمع أنني غير راض وأنني لا أعامل معاملة طيبة فسيغضب جدًا... وابتسم ابتسامة خبيثة. وقالت "**أسا**" :

– أنت ولد تالف وسأقول هذا لابني "**أمحتوب**".

– لا.. لا يا جدتي لن تفعلي ذلك... وتغيرت ابتسامته وأصبحت ملاطفة ولو أنها ممزوجة بقليل من الوقاحة، ومضى يقول:

– أنتِ وأنا يا جدتي الأذكياء في هذه العائلة.

– يا لوقاحتك!

– إن أبي يعتمد على رأيك ويعرف أنك حكيمة.

– قد يكون هذا صحيحا، في الواقع هو كذلك، ولكني لا أحتاج إليك لتخبرني بذلك. وضحك "**إيبي**" وقال:

– من الخير أن تكوني في صفي يا جدتي.

– ما هذا الكلام عن الأحلاف؟

– إن أخوي الكبيرين متذمران، ألا تعلمين ذلك؟ ولكنك بالتأكيد تعلمين، فـ"**هينيت**" تخبرك بكل شيء. "**ساتيبي**" توسوس لـ"**ياموس**" ليلا ونهارا حيثما تجده، و"**سوبك**" قد استُغفل في صفقة الخشب وخائف من ثورة أبي عندما يكتشف هذا. سترين يا جدتي سأصبح شريكا لأبي في خلال سنة أو سنتين وسيفعل كل ما أريده.

– أنت! أصغر أفراد الأسرة.

– ما أهمية السن؟ إن السلطة في يدي أبي وأنا الذي أستطيع أن أجاريه.

– هذا كلام شرير. قال "**إيبي**" بهدوء:

– أنت ذكية يا جدتي وتعلمين جيدا أن أبي –على الرغم من كلامه الكثير– في الواقع رجل ضعيف. وسكت فجأة، وقد لاحظ أن "**أسا**" حركت رأسها وأنها تنظر خلفه، وأدار رأسه ووجد "**هينيت**" واقفة قريبا خلفه، وقالت "**هينيت**" بصوتها الخافت الباكي:

– وهكذا "**أمحتوب**" رجل ضعيف! لن يسره على ما أعتقد أن يسمع أنك قلت

هذا عنه. وأطلق "**إيبي**" ضحكة سريعة مرتبكة وقال:

– ولكنك لن تخبريه بهذا يا "**هينيت**" العزيزة، عديني.. وانزلقت "**هينيت**" نحو "**أسا**" وارتفع صوتها بنغمته التي تشوبها نبرة باكية:

– بالطبع فأنا لا أحب إثارة المتاعب، وأنت تعرف هذا. أنا مخلصة لكم جميعا. إني لا أريد أبدًا أي شيء إلا إذا اعتقدت أنه من واجبي.. وقاطعها "**إيبي**":

– كنت أداعب جدتي فحسب، وسأقول ذلك لأبي وسيعرف أني لا يمكن أبدًا أن أقول شيئًا من هذا القبيل جديا. وأومأ برأسه لـ"**هينيت**" إيماءة خفية حادة وخرج من الغرفة، ونظرت "**هينيت**" خلفه وقالت لـ"**أسا**":

– فتى طيب وقد كبر. كم يتكلم بشجاعة. وقالت "**أسا**" بحدة:

– إنه يتكلم كلاما خطيرا، ولا أحب الأفكار التي تدور في رأسه.. إن ابني يدلله كثيرا.

– ومن لا يفعل ذلك؟ إنه فتى جميل وجذاب. وقالت "**أسا**" بحدة:

– إن الجمال هو جمال الأفعال. وسكتت لحظة أو لحظتين ثم قالت ببطء:

– "**هينيت**" إني قلقة.

– قلقة يا "**أسا**" ماذا يقلقك؟ على أي حال سيعود السيد قريبا وعندئذ سيكون كل شيء على ما يرام.

– أحقا؟ إني أتساءل... وسكتت مرة أخرى ثم قالت:

– هل حفيدي "**ياموس**" في المنزل؟

– لقد رأيته يتجه نحو الشرفة منذ لحظات.

– اذهبي وقولي له إنني أريد محادثته. وذهبت "**هينيت**" واستدعت "**ياموس**" من الشرفة ذات الأعمدة المزينة، ولبى "**ياموس**" رغبة جدته بسرعة. وقالت "**أسا**" باقتضاب:

– "**ياموس**".. سيصل "**أمحتوب**" قريبا جدًا. واستنار وجه "**ياموس**" الطيب وقال:

– نعم سيكون هذا شيئا طيبا حقا.

– هل كل أمر يخصه في مكانه؟ هل ازدهرت الأعمال؟

– لقد نفذت تعليمات أبي بقدر المستطاع.

– وماذا بشأن "**إيبي**"؟ وتنهد "**ياموس**":

– إن أبي يسرف في تدليله وهذا ليس من مصلحة الفتى.

– يجب أن توضح هذا لـ"**أمحتوب**".. وبدا الشك على "**ياموس**" وقالت "**أسا**" بحزم:

– سأساعدك. وقال "**ياموس**" وهو يتنهد:

– أحيانا يبدو أنه لا يوجد إلا المتاعب، ولكن كل شيء سيكون على ما يرام عندما يعود أبي، ويستطيع أن يتخذ قراراته بنفسه عندئذ، فمن الصعب أن أتصرف كما يريد في غيابه، خصوصا وأن ليس لديَّ سلطة حقيقية وإنما أتصرف فقط كنائبه. وقالت "**أسا**" ببطء:

– أنت ولد طيب، مخلص ودود. كما إنك أيضا زوج طيب، وقد عملت بالمثل الذي يقول «إن الرجل يجب أن يحب زوجته ويهيئ لها بيتا ويطعمها ويكسوها ويجلب لها عطورا غالية لزينتها ويسعدها طوال حياتها»، ولكن هناك قولا يأتي بعد ذلك في المثل وهو "ويمنعها من السيطرة"، ولو كنت مكانك يا حفيدي لعملت بهذا القول الأخير. ونظر إليها "**ياموس**" واحمر وجهه بشدة واستدار وخرج.

الفصل الثالث

كانت في كل مكان ضوضاء واستعدادات، ففي المطبخ تم خبز مائة رغيف، والآن كان يجري تحمير البط، وكانت تنبعث من هناك رائحة البصل وبعض التوابل المختلفة. النساء كن يصرخن ويصدرن الأوامر والخدم يهرعون هنا وهناك. وفي كل مكان كانوا يتهامسون:

– السيد... السيد سيصل. وشعرت "**رينسنب**" بسعادة وانفعال وهي تساعد على تنسيق باقات من الورد واللوتس، فإن والدها عائد إلى البيت، وفي خلال الأسابيع القليلة الماضية كانت قد انزلقت دون أن تشعر إلى نمط حياتها القديمة، وكان الشعور الأول بوجود شيء غريب وغير مألوف، وهو شعور تعتقد أن "**حوري**" هو الذي سببه لها، قد اندثر. إنها "**رينسنب**" نفسها لم تتغير و– "**ياموس**"، و"**ساتيبي**"، و"**سوبك**"، و"**كيت**" – كلهم كما كانوا دائما ولم يتغيروا، والآن كما

في الماضي، يوجد كل هذا الضجيج والاستعدادات لرجوع "**أمحتوب**" إلى بيته، وكانت قد بلغتهم أنباء بأنه سيكون بينهم قبل حلول الليل، وقد أرسلوا خادما إلى شاطئ النهر ليخطرهم بمقدم سيد البيت، وفجأة رن صوته عاليا وواضحا بالإشارة المتفق عليها. وألقت "**رينسنب**" أزهارها وجرت مع الآخرين، وهرعوا جميعا إلى المرساة على شاطئ النهر، وكان "**ياموس**" و"**سوبك**" هناك قبلهم وحولهما مجموعة صغيرة من أهل القرية: من الصيادين والفلاحين وكانوا جميعا يتصايحون ويشيرون بانفعال نحو النهر. نعم كان هناك المركب ذو الشراع الكبير المربع آت بسرعة من الشمال والرياح تدفعه وتملأ الشراع، وخلفه بقليل كان مركب المطبخ مزدحما برجال ونساء، وبعد قليل استطاعت "**رينسنب**" أن ترى والدها وهو جالس وممسك بزهرة لوتس، وكان معه على ما تظن مغنية. وتضاعف الصياح من الشاطئ، ورفع "**أمحتوب**" يده محييا، وكان البحارة يشدون حبال الشراع وعلت صيحات:

-أهلا وسهلا بالسيد.. وانطلقت صيحات أخرى تشكر الآلهة وتحمدهم على سلامته ورجوعه إلى أسرته، وبعد فترة وجيزة نزل "**أمحتوب**" إلى الشاطئ وحيا أسرته، ورد على التحيات العالية التي كان يتطلبها العرف. واندفعت "**رينسنب**" إلى الأمام وقد جرفها الحماس العام وشد "**أمحتوب**" قامته وفجأة فكرت "**رينسنب**": "ولكنه رجل قصير القامة" لقد كانت تتخيله أطول من ذلك بكثير. وانتابها شعور بخيبة الأمل. هل انكمش أبوها؟ أو هل خانتها ذاكرتها؟ كانت قد فكرت فيه كثيرا كإنسان رائع، مستبد وكثير الصخب، يُملي على الجميع أوامره يمنة ويسرة وفي بعض الأحيان يثير ضحكها الخفي، ولكنه مع كل هذا شخصية بارزة. ولكن هذا الرجل البدين القصير المسن الذي يبدو عليه الشعور بأهميته، وعلى الرغم من هذا فهو لا يروع الناس، ماذا دهاها؟ ما هذه الأفكار غير الوفية التي تنبثق في رأسها. وكان "**أمحتوب**" قد فرغ من الكلمات الرنانة الرسمية، وبدأت مرحلة التحيات الخاصة، وعانق ابنيه.

– آه يا عزيزي "**ياموس**" الدائب الابتسامة.. إني متأكد أنك كنت مجتهدا في غيابي.. و"**سوبك**" يا بني الوسيم، ما تزال كما أرى مرحا، وها هو "**إيبي**" يا أعز الناس إليّ يا "**إيبي**".. دعني أنظر إليك.. ابتعد.. هكذا. لقد كبرت وصرت أكثر رجولة. كم أنا مبتهج لأني أضحك مرة أخرى، و"**رينسنب**" يابنتي العزيزة، عدت

مرة أخرى إلى البيت، "**ساتيبي**" و"**كيت**" إنكما لا تقلان معزة لديّ عن ابنتيّ.. و"**هينيت**"... "**هينيت**" الوفية، وكانت "**هينيت**" راكعة وهي تحتضن ركبتيه، وتتظاهر بمسح دموع الفرح من عينيها.

– أنا مسرور برؤيتك يا "**هينيت**"، هل أنت بخير وسعيدة؟ أنت متفانية كدأبك، هذا شيء يسرُّ القلب.. و"**حوري**" العزيز البارع في حساباته وكتابته.. هل ازدهرت كل الأمور؟ أنا واثق بهذا. ثم بعد أن انتهت التحيات وهدأت الهمهمات رفع "**أمحتوب**" يده طالبا السكوت، وتكلم بصوت عال واضح:

– أبنائي الأعزاء، ويا أصدقائي لديّ خبر لكم، فمنذ أعوام عديدة كما تعلمون جميعا كنت من قبل رجلا وحيدا، فإن زوجتي –والدتكم يا "**ياموس**" و"**سوبك**"– ،وزوجتي الثانية –والدتك يا "**إيبي**"– قد ذهبتا إلى "**أوزوريس**" منذ أعوام عديدة، ولذلك فإني أتيت لكما يا "**ساتيبي**" و"**كيت**" بأخت جديدة تشارككن البيت. انظروا ها هي محظيتي "**نوفريت**" التي ستحبونها إكراما لخاطري. لقد جاءت معي من "**ممفيس**" في الشمال وستمكث هنا معكم عندما أعاود السفر. وبينما هو يتكلم مد يده وشد امرأة إلى الأمام، فوقفت بجانبه رافعة الرأس صغيرة جميلة ومزهوة. وفكرت "**رينسنب**" –وقد صدمتها المفاجأة–: «ولكنها صغيرة جداً– ربما أصغر مني سنا». ووقفت "**نوفريت**" ساكنة، وعلى شفتيها ابتسامة واهنة، ابتسامة فيها تهكم أكثر من أن تكون فيها رغبة في إعجابهم. وكانت حواجبها طويلة سوداء ورموشها طويلة وسميكة لدرجة أن المرء لا يكاد يرى عينيها، وبشرتها برنزية زاهية. ووقفت الأسرة وقد أخذتها المفاجأة تحدق في سكون كالبكم، وقال "**أمحتوب**" وفي صوته نبرة استياء خفيفة:

– هيا يا أولادي رحبوا بـ"**نوفريت**" ألا تعرفون كيف ترحبون بمحظية أبيكم عندما يأتي بها إلى منزله؟ وحيوها بتلعثم وارتباك. وتظاهر "**أمحتوب**" بالبهجة التي ربما تخفي بعض عدم الارتياح وهتف بسرور:

– هذا أفضل. "**نوفريت**" ستأخذك "**ساتيبي**" و"**كيت**" و"**رينسنب**" إلى جناح النساء. أين الحقائب هل أنزلت الحقائب إلى الشاطئ؟ وكانت الحقائب المستديرة تنقل في هذا الوقت من المركب وقال "**أمحتوب**" لـ"**نوفريت**":

– إن جواهرك وثيابك قد وصلت بسلام، اذهبي ورتبيها. وحين ابتعدت النساء

التفت إلى أبنائه. وقال:

– كيف حال الضيعة؟ هل كل شيء على ما يرام؟ وبدأ "**ياموس**" يقول:

– الحقول الجنوبية التي أجرناها لـ"**نكيت**" ولكن والده قاطعه قائلا:

– لا داعي إلى التفاصيل الآن يا "**ياموس**"، الليلة –ليلة سرور– وغدا أنت وأنا و"**حوري**" سنتكلم في الأعمال. تعال هنا يا "**إيبي**" يا ولدي دعنا نمض نحو البيت. كم طالت قامتك! إنك أطول مني. ومشى "**سوبك**" عابسا وراء أبيه و"**إيبي**"، وهمس في أذن "**ياموس**":

– جواهر وثياب هل سمعت هذا؟ فيهما ذهبت المكاسب من الضيعة الشمالية. مكاسبنا نحن. وهمس "**ياموس**":

– صه سيسمعك أبي. وفي المنزل جاءت "**هينيت**" إلى غرفة "**أمحتوب**" لتجهز له الحمام، وكانت الابتسامة تملأ وجهها، وتخلى "**أمحتوب**" عن تظاهره بالمرح وقال:

– حسنا يا "**هينيت**" ما رأيك فيمن اخترتها؟ ولو أنه كان قد صمم على فرض رأيه بالقوة فإنه كان يعرف جيدا أن مجيء "**نوفريت**" سيثير زوبعة –على الأقل في جناح النساء بالمنزل –ولكن "**هينيت**" كانت مختلفة، فهي مخلوقة مخلصة ومتفانية للغاية، ولم تخيب أمله فيها وقالت:

– إنها جميلة، جميلة تماما.. يا لجمال شعرها وقوامها! إنها جديرة بك يا"**أمحتوب**". وما بوسعي أن أقول أكثر من هذا؟ إن زوجتك العزيزة التي ماتت ستكون سعيدة؛ لأنك اخترت مثل هذه الرفيقة لتسعد أيامك.

– هل تعتقدين هذا يا "**هينيت**"؟

– إنني واثقة بهذا يا "**أمحتوب**"، وبعد أن حزنت عليها كل هذه السنين آن الأوان لتستمتع مرة أخرى بالحياة.

– إنك كنت تعرفينها جيدا.. وأنا أيضا شعرت بأنه قد حان الأوان لأعيش كما يجب أن يعيش الرجل –إيه! إن زوجات أبنائي وابنتي– ربما سيشعرن ببعض الاستياء من هذا؟ وقالت "**هينيت**":

– من الأفضل لهن ألا يحدث هذا، ألا يعتمدون جميعا عليك في هذا المنزل؟ وقال "**أمحتوب**":

– هذا حق، هذا حق.

– إنك تطعمهم وتكسوهم من خيراتك، ورفاهيتهم من ثمار جهودك وحدك.
– نعم هذا صحيح.. وتنهد "**أمحتوب**" وقال:
– إنني دائما أعمل من أجلهم وفي بعض الأحيان أتساءل عما إذا كانوا يدركون كل ما أدينهم به.
– يجب أن تذكرهم بذلك... وهزت "**هينيت**" رأسها وتابعت حديثها:
– أنا خادمتك المخلصة "**هينيت**"، لا أنسى أبدا ما أنا مدينة به لك، ولكن الأولاد في بعض الأحيان يكونون انانيين ولا يفكرون، وربما يظنون أنهم هم المهمون ولا يدركون أنهم فقط ينفذون تعليماتك التي أصدرتها. وقال "**أمحتوب**":
– هذا صحيح، لقد قلت دائما إنك مخلوقة ذكية يا "**هينيت**". وتنهدت "**هينيت**":
– لو كان الآخرون يفكرون هكذا.
– ما معنى هذا؟ هل كان أحد منهم قاسيا معك؟
– لا..لا –أعني أنهم لا يعنون هذا– إنهم ينتظرون كأمر طبيعي أن أعمل دون انقطاع، وأنا سعيدة بأن أعمل كذلك، ولكن كلمة طيبة وبعض التقدير تجعلان الأمور مختلفة تماما. وقال "**أمحتوب**":
– ستجديهما دائما عندي، وتذكري دائما إن هذا هو بيتك.
– إنك كريم جدًا يا سيدي... وسكتت برهة ثم أضافت:
– إن العبيد موجودون في الحمام وقد جهزوا الماء الساخن، وبعد أن تستحم وتلبس تريد منك والدتك أن تذهب إليها.
– آه والدتي؟ نعم –نعم بالطبع.. وبدا على "**أمحتوب**" فجاة الارتباك وأخفاه بأن قال بسرعة:
– بالطبع، لقد كنت أنوي أن... أخبري "**أسا**" بأني سآتي.

- 2 -

جلست "**أسا**" مرتدية ثوبها اللينون ذا الثنيات، وحدقت إلى ابنها ببعض التهكم وقالت:
– مرحبا يا "**أمحتوب**" وهكذا فقد عدت إلينا، وكما سمعت لم تعد وحيدا.

وشد "**أمحتوب**" قامته وقال ببعض الخجل:

– آه وهكذا فقد سمعت؟

– بالطبع. إن المنزل يعج بالخبر ويقال إن الفتاة جميلة وصغيرة جداً.

– إنها في التاسعة عشرة من عمرها، ليست قبيحة. وضحكت "**أسا**" ضحكة عجوز حقود. وقالت:

– آه حسنا لا يوجد مغفل مثل مغفل عجوز.

– يا أمي العزيزة إني لا افهم ما تعنين. وقالت "**أسا**" بهدوء:

– إنك كنت دائما مغفلا يا "**أمحتوب**". وشد "**أمحتوب**" قامته وبدأ يتكلم بتلعثم وبغضب، فمع أنه في العادة كان يشعر بأهميته، فإن أمه كانت دائما تشعره بتفاهته، ويحس في حضورها بأنه يتضاءل، ومع أنه كان يعرف أن تقديره لنفسه هو التقدير الصحيح، وأن تقدير والدته هو نظرة سخيفة لا قيمة لها من أم، فإن موقفها على الرغم من ذلك كان يزعزع ثقته بنفسه وسعادته بأهميته. وقال:

– هل من غير المألوف لرجل أن يحضر محظية إلى بيته؟

– ليس غريبا فالرجال في العادة مغفلون.

– أنا لا أرى أية غفلة في هذا.

– هل تتصور أن وجود الفتاة سيسبب انسجاما بين أفراد المنزل؟ إن "**ساتيبي**" و"**كيت**" ستثوران وتثيران غضب زوجيهما.

– وما شأنهم بذلك؟ ما حقهم في الاعتراض؟

– لا حق لهم؟! وبدأ "**أمحتوب**" يذرع الغرفة ذهابا وإيابا قائلا:

– الا استطيع أن افعل ما أشاء في بيتي؟ الا أُنفق على أبنائي وزوجاتهم؟ الا يدينوا لي بكل شيء حتى بالخبز الذي يأكلونه؟ الا اقول لهم هذا باستمرار؟

– إنك تحب أن تردد هذا أكثر من اللازم يا "**أمحتوب**".

– إنها الحقيقة. إنهم جميعا يعتمدون عليّ... جميعا!

– وهل أنت متأكد أن هذا شيء طيب؟

– هل تقولين إنه ليس شيئا طيبا أن ينفق الرجل على عائلته؟ وتنهدت "**أسا**" وقالت:

– إنهم يعملون من أجلك. تذكر.

– وهل تريدين أن أشجعهم على الكسل؟ بالطبع هم يعملون.

– إنهم قد أصبحوا رجالا –على الأقل "**ياموس**" و"**سوبك**"– لقد كبرا.

– إن "**سوبك**" ليس حكيما، وكل ما يفعله خطأ، وإلى جانب هذا فهو قبيح جدًا، وأنا لا أقبل هذا، أما "**ياموس**" فولد طيب مطيع.

– إنه أكبر من أن يكون ولداً.

– ولكنني في بعض الأحيان أضطر إلى أن أكرر عليه الأمور مرتين أو ثلاثة حتى يفهم. إن عليّ أن أفكر في كل شيء وأن أكون في كل مكان! وفي كل الأوقات التي أكون بعيدا فيها أملي للكتبة تعليمات مفصلة، حتى يستطيع أولادي تنفيذها.. إني لا أكاد أرتاح، إني لا أكاد أنام! والآن عندما أعود إلى البيت وقد أصبح من حقي أن أنال بعض الراحة أواجه متاعب جديدة! حتى أنت يا أمي تنكرين عليّ حقي في أن تكون لديَّ محظية مثل باقي الرجال. أنت غاضبة.

وقاطعته "**أسا**":

– أنا لست غاضبة. إنني أتسلى، فستكون هناك مباريات لطيفة يتفرج عليها المرء في هذا البيت، ولكني مع كلٍّ أقول إنه عندما تذهب إلى الشمال مرة أخرى فمن الأفضل أن تأخذ الفتاة معك.

– إن مكانها هنا في بيتي! وويل لمن يجرؤ على إساءة معاملتها.

– ليست المسألة إساءة معاملة، ولكن تذكر أنه من السهل إشعال الحريق في الخشب الجاف ويقال عن النساء "إن المكان الذي يكنّ فيه ليس مكانا طيبا".

وصمتت برهة ثم قالت ببطء:

– إن "**نوفريت**" جميلة ولكن تذكر هذا القول "إن الرجال يُستغفلون بالقوام البراق الجميل للنساء ولكن انظر –في دقيقة يصبحن كالعقيق الذي فقد لونه"..

وازداد عمق صوتها وهي تكمل القول:

– شيء بسيط، وقيل مثل الحلم، ويأتي الموت كنهاية المطاف.

الفصل الرابع

استمع "**أمحتوب**" لايضاحات "**سوبك**" عن بيع الخشب في صمت ينذر بالسوء، وكان وجهه قد احمر جدًا وراحت نبضة صغيرة في جبينه تدق بسرعة. وبدأ "**سوبك**" يفقد مظهر اللامبالاة، وكان قد قرر أن يترك الأمر يمر كأنه شيء هين، ولكنه أمام وجه أبيه الذي يزداد عبوسا وجد نفسه يتلعثم ويتردد. وأخيرا قاطعه "**أمحتوب**" بصبر نافد:

– نعم. نعم. نعم، لقد اعتقدت أنك تعرف أكثر مني، لقد خالفت تعليماتي، هذا هو الشيء نفسه دائما، ما لم أكن هنا لأشرف على كل شيء، وتنهد ثم قال:

– لا يمكن أن أتصور ما سيجري لكم يا أولاد دوني! ومضى "**سوبك**" يقول بعناد:

– كانت هناك فرصة لتحقيق ربح أكبر، ولقد غامرت. إن المرء لا يمكن أن يكون دائما حريصا وشحيحا. إنك لا تتصف بشيء من الحرص يا "**سوبك**"! إنك دائما متهور ومندفع أكثر من اللازم وتقديرك دائما خاطئ.

– وهل تتاح لي أبدا فرصة ممارسة تقديري؟ وقال "**أمحتوب**" بجفاء:

– لقد فعلت هذا في هذه المرة مخالفا أوامري المحددة.

– أوامر؟ وهل عليّ أن أتقبل دائما الأوامر؟ لقد أصبحت رجلا بالغا. وفقد "**أمحتوب**" أعصابه وصاح:

– من يطعمك ويكسوك؟ من يفكر في المستقبل؟ من لا تغيب عن ذهنه مصلحتك.. بل مصلحتكم جميعا؟ وعندما انخفضت مياه النهر وكنا مهددين بالمجاعة الم أدبر إرسال طعام لكم من الشمال؟ إنكم سعداء الحظ لأن لكم أبا مثلي، يفكر في كل شيء، وما الذي أطلبه مقابل هذا؟ فقط أن تعملوا بجهد وبأقصى ما في وسعكم وتطيعوا التعليمات التي أرسلها إليكم. وهتف "**سوبك**":

– نعم علينا أن نعمل من أجلك كالعبيد، لكي تستطيع أن تشتري جواهر وذهبا لمحظيتك؟ وتقدم "**أمحتوب**" وهو مليء بالغضب:

– أيها الولد الوقح، أتتكلم مع أبيك بهذه الطريقة؟! احذر وإلا سأقول إن هذا لم يعد بيتك، وإن عليك أن تذهب إلى مكان آخر.

– إذا لم تأخذ أنت حذرك فإنني سأرحل.. إن لديَّ أفكارا، كما أقول لك، أفكارا طيبة، تجلب الثروة لو لم أكن مقيدا بالحرص الحقير ولا يسمح لي بأن أعمل ما أريد.

– هل فرغت من الكلام؟ وكانت نبرات "**أمحتوب**" تنذر بالسوء، وغمغم "**سوبك**" بغضب وقد هبط حماسه قليلا:

– نعم. نعم، ليس لديَّ ما أقوله أكثر من هذا الآن.

– إذن اذهب واعتن بالماشية، فليس هذا وقت اللهو، واستدار "**سوبك**" ومشى بسرعة غاضبا وكانت "**نوفريت**" واقفة قريبا، وعندما مر بجانبها أدارت وجهها إلى جانب وضحكت، وعندما سمع ضحكتها صعد الدم إلى وجه "**سوبك**" ومشى نحوها خطوة، ووقفت ساكنة تماما وهي ما زالت تنظر إليه بازدراء بعينيها نصف المغمضتين. وتمتم "**سوبك**" بشيء بين أسنانه، ثم مضى في اتجاهه الأصلي، وضحكت "**نوفريت**" مرة أخرى ثم مضت ببطء إلى حيث كان "**أمحتوب**" يوجه انتباهه لـ"**ياموس**". قال "**أمحتوب**":

– ماذا دهاك؟ لمَ تركت "**سوبك**" يتصرف بهذه الطريقة الهوجاء؟ كان يجب أن تمنع هذا؟ إنه يعتقد أن كل شيء سيصير مثلما يريد. وقال "**ياموس**" معتذرا:

– إنك لا تدرك الصعاب التي أواجهها يا أبي. إنك قلت لي أن أعهد إلى "**سوبك**" ببيع الخشب، ولذلك كان من الضروري أن أترك له حرية الرأي والتصرف.

– وأي تصرف؟ إنه لا رأي ولا تمييز لديه! إن عليه أن ينفذ تعليماتي، وعليك أنت أن تتأكد أنه يفعل هذا. واحمر وجه "**ياموس**":

– أنا؟ وما سلطتي أنا؟

– أي سلطة؟ السلطة التي أعطيها لك؟

– ولكن ليس لي مركز حقيقي فلو أنني كنت شريكا لك قانونا.. ولم يتابع حديثه؛ لأن "**نوفريت**" وصلت وكانت تتثاءب وتلعب بوردة حمراء في يدها وقالت:

– ألن تأتي إلى الكوخ الصغير بجانب البحيرة يا "**أمحتوب**"؟ إن الجو هناك رطب وهناك فاكهة وشراب في انتظارك. إنك بالتأكيد فرغت من إصدار أوامرك.

– بعد دقيقة يا "**نوفريت**"، بعد دقيقة. وقالت "**نوفريت**" بصوت رقيق عميق:

– تعال الآن، أريدك أن تأتي الآن.. وبدا على "**أمحتوب**" السرور وقليل من

الخجل، وقال "**ياموس**" بسرعة قبل أن يتكلم أبوه:

– لنتكلم في هذا أولا، إنه شيء مهم وأنا أريد أن أطلب منك... ووجهت "**نوفريت**" حديثها إلى "**أمحتوب**" مباشرة وقد أولت "**ياموس**" ظهرها:

– الا تستطيع أن تفعل ما تريده في بيتك؟ وقال "**أمحتوب**" بحدة لـ"**ياموس**" :

– في وقت آخر يا ولدي، في وقت آخر. وذهب مع "**نوفريت**" ووقف "**ياموس**" ينظر إليهما من الشرفة، وخرجت "**ساتيبي**" من المنزل ولحقت به، وسالت باهتمام:

– حسنا هل تكلمت معه؟ ماذا قال؟ وتنهد "**ياموس**" وقال:

– لا تكوني عجولة يا "**ساتيبي**"، لم يكن الوقت مناسبا. وهتفت "**ساتيبي**" بغضب:

– آه نعم، هذا ما تقوله أنت! هذا ما تقوله دائما، والحقيقة هي أنك خائف من أبيك، أنت جبان مثل الخروف.. أنت تكلمه بخوف، إنك لا تقف في مواجهته مثل الرجال! الا تتذكر ما وعدتني به؟ انا أقول لك إنني أكثر منك رجولة! أنت تعد وتقول "سأطلب من أبي.. في الحال.. في أول يوم" ثم لا يحدث شيء. وتوقفت "**ساتيبي**"؛ لتأخذ نفسها وليس لأنها فرغت من الكلام، ولكن "**ياموس**" قاطعها بلطف:

– أنت مخطئة يا "**ساتيبي**"، لقد بدأت أتكلم، ولكننا قوطعنا..

– من قاطعك؟

– "**نوفريت**".

– "**نوفريت**"! هذه المرأة! أما كان يحق لأبيك ألا يسمح لحظيته بمقاطعته عندما يتكلم مع ابنه الأكبر في الأعمال. إن النساء لا يجب أن يقحمن أنفسهن في الأعمال. وكان "**ياموس**" في الغالب يتمنى لو أن "**ساتيبي**" اتبعت هذا المبدأ الذي كانت تتكلم عنه، ولكن لم تتح له فرصة الكلام فمضت زوجته تقول:

– يجب على أبيك أن يفهمها هذا في الحال. وقال "**ياموس**" بجفاء:

– لم تبد على أبي أية علامة امتعاض. وقالت "**ساتيبي**" :

– إن هذا أمر مخجل. إنها سحرت أباك تماما. إنه يتركها تقول وتفعل ما تشاء. وقال "**ياموس**" مفكرًا:

– إنها جميلة جدًّا. وتهكمت "**ساتيبي**" :

– آه إن لها بعض الجمال، ولكن ليس لديها شيء من آداب السلوك، ولا أية تربية! وهي لا يهمها إلى أي درجة هي وقحة معنا كلنا.

– ربما لأنك لست مؤدبة معها.

– أنا كلي أدب، وأعاملها بكل ذوق، آه لن تجد ما تشكو منه لأبيك، فكيف نستطيع نحن أن ننتظر حتى يحين الوقت المناسب لنا. ونظر إليها "**ياموس**" بحدة وقال:

– ماذا تعنين بوقتكم المناسب؟ وضحكت "**ساتيبي**" ضحكة لها مغزى وهي تبتعد:

– ما أعنيه هو معنى نسائي لن تفهمه. إن لنا طرقنا الخاصة، أسلحتنا! إن "**نوفريت**" تحسن صنعا إذا هي حذت من وقاحتها، فما حياة المرأة في الواقع؟ إن حياتها تمضيها في الجزء الخلفي من المنزل بين النساء الأخريات. وكان هناك معنى معين في لهجة "**ساتيبي**" وأضافت:

– لن يكون أبوك هنا دائما، سيرحل مرة أخرى إلى أراضيه في الشمال، وعندئذ سنرى.

– "**ساتيبي**"... وضحكت "**ساتيبي**" –ضحكة عالية قاسية– ورجعت ثانية إلى المنزل.

-2-

كان الأطفال يجرون ويلعبون بجانب البحيرة: أبناء "**ياموس**" ولدان وسيمان يشبهان "**ساتيبي**" أكثر من أبيهم، ثم أولاد "**سوبك**" الثلاثة، وأصغرهم طفل صغير جداً ثم "**تيتي**" طفلة جميلة عمرها أربع سنوات. كانوا يضحكون ويتصايحون ويقذفون الكرات، وبين حين وآخر كانوا يتشاحنون وينبعث عنهم صراخ صبياني حاد. وهمس "**أمحتوب**" وهو جالس يحتسي شرابًا و"**نوفريت**" بجانبه:

– كم يحب الأولاد اللعب بجوار الماء. إن هذا كان رأيهم دائما كما أتذكر، ولكن وحق "**هاتور**" ما أكثر الصخب الذي يثيرونه. وقالت "**نوفريت**" بسرعة:

– نعم وكم من الممكن أن يكون المكان هادئا.. لماذا لا تقول لهم أن يبتعدوا

عندما تكون هنا؟ فعلى أي حال عندما يحتاج سيد المنزل إلى الراحة يجب أن تحترم رغبته. الا توافقني؟

– أنا.. حسنا. وتردد "**أمحتوب**" فقد كانت هذه فكرة جديدة عليه ولكنها سرّته، ثم أكمل حديثه قائلا بشك:

– إنهم في الحقيقة لا يضايقونني، وأضاف بضعف:

– إنهم معتادون اللعب هنا دائما كيفما يشاءون. وقالت "**نوفريت**" بسرعة:

– عندما تكون بعيدا عن هنا، نعم لا مانع، ولكني أعتقد يا "**أمحتوب**" إنه نظرا لكل ما تعمله من أجل عائلتك يجب عليهم أن يظهروا شعورا أكثر بأهميتك وكرامتك. إنك لطيف ومتساهل أكثر من اللازم، وتنهد "**أمحتوب**" بوداعة وقال:

– إن هذه كانت غلطتي دائما فأنا لا أهتم أبدا بالشكليات.

– ولذلك أرى هؤلاء النسوة زوجات أبنائك يستغللن طيبتك. يجب أن يفهمن أنك عندما تجيء هنا لتستريح يجب أن يكون هنا سكون، وراحة. انظر سأذهب وأقول لـ"**كيت**" أن تأخذ أولادها والأولاد الآخرين بعيدا، وبعد ذلك سيتسنى لك الراحة ورخاء البال هنا.

– إنك تعنين بي يا "**نوفريت**" نعم أنت فتاة طيبة. إنك تفكرين دائما في راحتي، وغمغمت "**نوفريت**":

– إن سعادتي من سعادتك ونهضت وذهبت حيث كانت "**كيت**" راكعة بجوار المياه تلعب بنموذج صغير لمركب، وكان ابنها الثاني وهو ولد يبدو عليه أنها دللته، يحاول أن يسيره على الماء. قالت "**نوفريت**" بجفاء:

– هلا أخذت الأطفال بعيدا يا "**كيت**"؟ وحدجتها "**كيت**" دون أن تفهم وقالت:

– بعيدا؟ ماذا تعنين؟ إنهم يلعبون هنا دائما.

– ليس اليوم فإن "**أمحتوب**" يريد الهدوء وأولادك هؤلاء يثيرون جلبة. واحمر وجه "**كيت**" العريض وقالت:

– هذبي طريقة كلامك يا "**نوفريت**" إن "**أمحتوب**" يحب أن يرى أحفاده يلعبون هنا، ولقد قال هذا من قبل. قالت "**نوفريت**":

– ليس اليوم فلقد بعثني لأقول لك أن تأخذي كل هذه العصبة الصاخبة إلى

المنزل ليستطيع أن يجلس في هدوء معي.

– معك؟وتوقفت "**كيت**" فجأة عن متابعة حديثها، ثم نهضت ومضت إلى حيث كان "**أمحتوب**" نصف جالس ونصف راقد، وتبعتها "**نوفريت**" .. وتكلمت "**كيت**" دون مواربة:

– إن محظيتك تقول إن عليّ أن آخذ الأولاد بعيدا عن هنا؟ لماذا؟ ما الخطأ الذي يفعلونه؟ لأي سبب يجب أن ينفوا؟! وقالت "**نوفريت**" برقة:

– كنت أظن أن رغبة سيد المنزل كافية. وقال "**أمحتوب**" مشاكسا:

–بالضبط.. بالضبط لماذا أبدي أسبابا؟ منزل من هذا؟

– أعتقد أنها هي التي تريد إبعادهم، واستدارت "**كيت**" ونظرت إلى "**نوفريت**" من رأسها إلى قدميها، وقال "**أمحتوب**" :

– إن "**نوفريت**" تفكر في راحتي وسروري، والتي لا يهتم بها أي شخص آخر في هذا المنزل، ربما باستثناء "**هينيت**" المسكينة.

– وهكذا فإن الأطفال لن يسمح لهم باللعب هنا بعد ذلك؟

– ليس عندما آتي هنا للراحة. وانفجر غضب "**كيت**" فجأة فقالت:

– لماذا تدع هذه المرأة تثيرك على أهلك؟ لماذا تاتي هنا وتتدخل في أساليب حياتنا؟ في الأمور التي كانت تجري دائما وفجاة بدأ "**أمحتوب**" يصيح، وقد شعر بأن عليه أن يبرئ نفسه:

– أنا الذي أقول ما يعمل به هنا، وليس أنت! إنكم كلكم متفقون على عمل ما تريدون وعلى ترتيب الأمور كيفما تشاءون، وعندما أعود أنا سيد المنزل، لا تهتمون كما يليق برغباتي، ولكني وأنا السيد هنا، دعوني أقول لكم هذا، أنا دائب العمل والتخطيط من أجلكم ومن أجل رفاهيتكم، ولكن هل تمتنون لي وهل تحترم رغباتي؟ كلا. أولا يتكلم "**سوبك**" بوقاحة وقلة احترام، والآن انت يا"**كيت**" تحاولين أن تتسلطي عليّ، لماذا أنفق عليكم جميعا؟ احذري وإلا كففت عن الإنفاق عليكم؟ إن "**سوبك**" يتحدث عن الرحيل.. إذن دعيه يرحل ويأخذك انت والأولاد معه. ولبرهة وقفت "**كيت**" ساكنة تماما. ولم يظهر أي تعبير على وجهها، ثم قالت في صوت لا أثر لأي شعور فيه:

– سآخذ الأطفال إلى داخل المنزل. وخطت خطوة أو خطوتين وتوقفت بجانب

"**نوفريت**" وقالت لها بصوت منخفض:
– إن هذا نتيجة عملك يا "**نوفريت**". لن أنسى. كلا لن أنسى.

الفصل الخامس

تنفس "**أمحتوب**" بارتياح عندما انتهى من واجباته الرسمية ككاهن للقبر. لقد أدى الطقوس بكل تفاصيلها الدقيقة؛ لأن "**أمحتوب**" كان رجلا ذا ضمير من جميع النواحي، لقد سكب القرابين من الشراب وأحرق البخور وقدم الطعام والشراب كما تقتضيه العادات. والآن في ظلال الغرفة الحجرية القريبة بجوها الرطب حيث كان "**حوري**" ينتظره، أصبح "**أمحتوب**" مرة أخرى رجل الأعمال وصاحب الأرض. وجلس الرجلان معا يتناقشان في الأعمال والأسعار والمكاسب العائدة من المحاصيل والماشية والخشب. وبعد نحو نصف ساعة أومأ "**أمحتوب**" برضاء وقال:
– إنك بارع في الأعمال يا "**حوري**". وابتسم الآخر وقال:
– يجب أن أكون كذلك يا "**أمحتوب**"، فأنا رجل أعمالك منذ عدة سنوات.
– وأنت مخلص جدا، والآن هناك أمر أريد أن أناقشك فيه. إنه يخص "**إيبي**" فهو يشكو من أن مركزه صغير.
– إنه مازال صغيرا جداً.
– ولكنه أبدى مقدرة كبيرة وهو يشعر بأن أخويه يظلمانه، فيبدو أن "**سوبك**" متغطرس وقاس وأن "**ياموس**" بحرصه المستمر وإجحافه يثيره. إن "**إيبي**" له شخصية وهو لا يحب أن يتلقى الأوامر، وعلاوة على ذلك فهو يقول إنني أنا فقط والده، الذي لي الحق في إصدار الأوامر. وقال "**حوري**":
– هذا صحيح، ولقد لاحظت يا "**أمحتوب**" أن هذه نقطة ضعف في إدارة الضيعة. هل تسمح لي بالكلام بحرية؟
–بالطبع يا عزيزي "**حوري**". إن كلامك دائما ذو روية وحكمة.
– إذن إني أقول هذا، في غيابك يا "**أمحتوب**" يجب أن يوجد شخص هنا له سلطة حقيقية.
– أنا أوكل أعمالي لك ولـ"**ياموس**".

– أعرف أننا نعمل بالنيابة عنك في غيابك، ولكن هذا ليس كافيا. لماذا لا تعين أحد أبنائك كشريك بوثيقة قانونية؟ وذرع "**أمحتوب**" الغرفة ذهابا وإيابا وهو عابس، ثم قال:

–مَن مِن أولادي ترشحه؟ إن "**سوبك**" له طريقة توحي بالسلطة، ولكنه يخالف أوامري، ولا يمكن ان أثق به. إن طباعه ليست طيبة.

–كنت افكر في "**ياموس**" فإنه أكبر أولادك وله طباع هادئة ورقيقة وودودة وهو شديد الإخلاص لك.

–نعم إن طباعه طيبة، ولكن تنقصه الجرأة ، وهو مسالم لدرجة كبيرة، ويتساهل مع الجميع.. ولو كان "**إيبي**" فقط أكبر قليلا.. وقال "**حوري**" بسرعة:

–إن من الخطر أن تعطي السلطة لشاب صغير جداً.

–تماما، تماما.. حسنا يا "**حوري**" سأفكر فيما قلته لي فـ"**ياموس**" بالتأكيد ابن بار.. ابن مطيع. وقال "**حوري**" بلطف ولكن بإصرار:

– ستكون على ما أظن حكيما إذا فعلت ذلك. ونظر إليه "**أمحتوب**" بفضول:

– ماذا يدور في رأسك يا "**حوري**"؟ وقال "**حوري**" ببطء:

– لقد قلت الآن إنه من الخطر أن نعطي السلطة لشاب صغير جداً، ولكنه أيضا من الخطر إعطاءها للرجل بعد فوات الأوان.

– هل تعني أنه سيكون قد تعود إطاعة الأوامر وليس إصدارها؟ حسنا ربما كنت على حق في هذا. وتنهد "**أمحتوب**" وأضاف:

– إنه لعمل صعب أن تحكم عائلة! والنساء بالأخص من الصعب حكمهن. "**ساتيبي**" لا تتحكم في أعصابها، و"**كيت**" في أغلب الأحيان عابسة ولكني أوضحت لهن أنه يجب معاملة "**نوفريت**" بطريقة لائقة، وأعتقد أني يجب أن أقول إن.. وتوقف عن الحديث فإن عبدا كان يأتي مسرعا صاعدا الطريق الضيق.

– ما هذا؟

– سيدي، وصل مركب وعليه كاتب يدعى "**كاماني**" جاء برسالة من "**ممفيس**". ونهض "**أمحتوب**" صاخبا وهتف قائلا:

– متاعب أخرى، أكيد كما يسري "**رع**" في السماوات. إن هذا يعني متاعب أخرى! ما لم أكن موجودا لأرى الأمور يسير كل شيء معوجا. ومضى وهو يدق

الطريق وجلس "**حوري**" ساكنا ينظر إليه وكان القلق باديا على وجه "**حوري**" .

-2-

كانت "**رينسنب**" تتجول دون هدف على شاطئ النيل. عندما سمعت الصياح والضجيج، ورأت أشخاصا يهرعون نحو المرسى. فأسرعت وانضمت إليهم، وكان هناك شاب واقفا في القارب الذي كان يقترب من الشاطئ، وحينما رأته في ضوء النهار الباهر أسرعت نبضات قلبها وراودتها فكرة مجنونة غير معقولة. خيل إليها أنه "**فاي**" . "**فاي**" وقد رجع من العالم الآخر ثم ضحكت من نفسها لهذه الفكرة الخرافية، لقد تصورت هذا اللامعقول لأنها كانت تتذكر "**فاي**" دائما وهو مبحر على النيل وهذا الشاب كان له قوام "**فاي**" ، وكان هذا الرجل أصغر من "**فاي**" وكان له وجه ضاحك بهيج وقوام ممشوق رشيق. وأخبرهم بأنه أتى من ممتلكات "**أمحتوب**" في الشمال وبأنه كاتب يدعى "**كاماني**" وأرسل عبداً لإخبار أبيها، وأخذوا "**كاماني**" إلى المنزل حيث قدموا له طعاما وشرابا وبعد قليل حضر والدها وتكلموا كثيرا وتشاوروا. وتسرب مضمون هذا الحديث كالمعتاد إلى جناح النساء عن طريق "**هينيت**" جالبة الأنباء، وكانت "**رينسنب**" تتساءل أحيانا بدهشة كيف أن "**هينيت**" تستطيع دائما أن تعرف كل ما يجري. كان "**كاماني**" كما قال، كاتبا شابا في خدمة "**أمحتوب**" وابن قريب له، وقد اكتشف "**كاماني**" بعض التدابير استعدادا للاختلاسات، وتزويرا في الحسابات، وبما أن الأمر كانت له عدة شعب، وكان يمس نظار الزراعة فقد فكر في أنه من الأفضل أن يأتي شخصيا إلى الجنوب ليقدم تقريره. لم تهتم "**رينسنب**" كثيرا بالأمر، فكرت في أنها براعة من "**كاماني**" أن يكتشف كل هذا وأن أباها سيسر منه. وكانت النتيجة المباشرة للأمر هي أن "**أمحتوب**" استعد للرحيل، ولم يكن في نيته أن يترك منزله قبل شهرين آخرين ولكنه رأى إذ ذاك أن من الأفضل له أن يعود سريعا إلى الشمال، واستدعى جميع أهل البيت وأصدر لهم أوامر وتعليمات لا حصر لها. يجب عمل هذا وذاك، لا يحق لـ"**ياموس**" بأي حال أن يفعل هذا الأمر. على "**سوبك**" أن يتصرف بحذر في أي أمر آخر، وفكرت "**رينسنب**" : "إن الأمر مألوف جداً" . كان "**ياموس**" منتبها و"**سوبك**" عابسا و"**حوري**" كالمعتاد كان هادئا وكفئا، ووضعت مطالب "**إيبي**"

على الرف بحدة أكثر من المعتاد.

– إنك أصغر من أن يكون لك نفقة خاصة. أطع "**ياموس**" فإنه يعرف رغباتي وأوامري. ووضع "**أمحتوب**" يدا على كتف ابنه الأكبر وأضاف:

– إني أثق بك يا "**ياموس**" وعند عودتي سنتكلم مرة أخرى في أمر الشركة. واحمر وجه "**ياموس**" سرورا وشد قامته أكثر ومضى "**أمحتوب**" يقول:

– احرص فقط على حسن سير كل شيء في غيابي. احرص على أن تعامل محظيتي معاملة حسنة وبالاحترام وبالإكرام الواجبين. إنها في عهدتك وعليك أن تتغلب على سلوك نساء الدار. اهتم بأن تكبح "**ساتيبي**" لسانها، وبأن يعطي "**سوبك**" تعليمات مماثلة لـ"**كيت**"، وعلى "**رينسنب**" أيضا أن تتصرف دائما نحو "**نوفريت**" بأدب، ثم إني لن أسمح بأية قسوة على "**هينيت**" الطيبة، وأنا أعرف أن النساء يجدنها في بعض الأحيان متعبة. لقد مضى عليها زمن طويل في هذا المنزل وتعتقد أن من حقها أن تقول كثيرا من الأشياء وقد يكون في بعض الأحيان غير الفطنة ولكنها مخلصة، تذكر هذا، وكانت دائما متفانية في مصالحي ولن أسمح بإساءة معاملتها ولا باحتقارها. وقال "**ياموس**":

– سيتم كل شيء كما تقول، ولكن "**هينيت**" في بعض الأحيان تثير المتاعب بلسانها.

– هه! هراء كل النساء يفعلن هذا، ولا تفعل "**هينيت**" أكثر من غيرها، وفيما يختص بـ"**كاماني**" سيظل هنا. إننا نستطيع أن نستخدم كاتبا آخر وبوسعه أن يساعد "**حوري**"، أما بخصوص الأرض التي أجرناها للمرأة "**ياي**".. ومضى "**أمحتوب**" في التفاصيل الدقيقة. وأخيراً حينما جهز كل شيء للسفر شعر "**أمحتوب**" ببعض وخز الضمير وأخذ "**نوفريت**" جانبا وقال لها متشككا:

– "**نوفريت**" هل أنت راضية بالبقاء هنا؟ ألا يكون من الأفضل أن تأتي معي؟ وهزت "**نوفريت**" رأسها وابتسمت ثم قالت:

– إنك لن تغيب طويلا.

– ثلاثة شهور، ربما أربعة. من يدري؟

– أترى لن يطول الأمر، سأكون راضية هنا. وقال "**أمحتوب**":

– لقد أمرت "**ياموس**" وكل أبنائي. يجب أن تعاملي بكل اعتبار، وويل لهم إذا

كان هناك ما تشكين منه.

– أنا واثقة يا "**أمحتوب**" بأنهم سيفعلون ما قلته لهم. وتوقفت "**نوفريت**" ثم قالت:

– من الذي أستطيع أن أثق به ثقة تامة هنا؟ شخص يكون متفانيا لمصلحتك؟ ولا أعني فردا من أسرتك.

– "**حوري**".. "**حوري**" الطيب. إنه يدي اليمنى في كل شيء.. وهو رجل متزن ويحسن التمييز. وقالت "**نوفريت**" ببطء:

– هو و"**ياموس**" مثل الأخوة. ربما.

– هناك "**كاماني**" وهو أيضا كاتب وسآمره أن يكون في خدمتك، وإذا كان لديك ما تشكين منه فسيكتب شكواك ويرسلها لي. وأومأت "**نوفريت**" موافقة:

– هذه فكرة طيبة. إن "**كاماني**" من الشمال وهو يعرف أبي ولن يتأثر بالأسرة. وهتف "**أمحتوب**":

– و"**هينيت**". هناك "**هينيت**". وقالت "**نوفريت**" مفكرة:

– نعم هناك "**هينيت**"، لتكلمها الآن أمامي.

– خطة رائعة. واستدعت "**هينيت**" فجاءت متذللة كالعادة، وكانت تبكي لرحيل "**أمحتوب**" وقاطعها "**أمحتوب**" بجفاء:

– نعم نعم يا عزيزتي "**هينيت**"، ولكن هناك أمورا يجب أن تتم، وأنا رجل لا يمكنه أن يتوقع فترة طويلة من الهدوء والراحة. يجب أن أكدح دون توقف من أجل عائلتي، ولو أنهم قليلا ما يقدرون هذا في بعض الأحيان، والآن أريد أن أكلمك جديا وأنا أعرف أنك مخلصة ومتفانية لي وأن بإمكاني أن أعهد لك بمهمة ثقة، حافظي على "**نوفريت**" فإنها غالية جداً عليَّ. وقالت "**هينيت**" بحرارة:

– إن كل ما هو غال عندك، يا سيدي، عزيز عليَّ.

– حسنا جدا. إذن ستخلصين وتتفانين لمصلحة "**نوفريت**". وتحولت "**هينيت**" نحو "**نوفريت**" التي كانت ترقبها من تحت أهدابها، وقالت لها:

– إنك جميلة جداً يا "**نوفريت**" وهذا هو سبب المتاعب؛ لهذا تغار منك الأخريات، ولكنني ساعتني بك، وسأخبرك بكل ما يقلنه ويفعلنه. يمكنك الاعتماد عليّ. ومرت فترة سكون التقت فيها أعين المراتين، ورددت "**هينيت**":

– يمكنك الاعتماد عليّ. وظهرت ابتسامة بطيئة وغريبة على شفتي "**نوفريت**" وقالت:

– نعم أنا أفهمك يا "**هينيت**"، وأعتقد أنه يمكنني الاعتماد عليك. وتنحنح "**أمحتوب**" بصوت مسموع ثم قال:

– إذن أعتقد أن كل شيء قد تم ترتيبه، نعم كل شيء. التنسيق كان دائما من مواهبي. ورنت ضحكة جافة واستدار "**أمحتوب**" بحدة ليجد والدته واقفة على عتبة الباب. كانت تتكئ على عصا وبدت منكمشة متنمرة. وقالت:

– ما أدهش ولدي؟ وغمغم "**أمحتوب**" وهو يحاول أن يبدو مهما:

– يجب ألا أتأخر هناك بعض التعليمات لـ"**حوري**"، وهرع من الغرفة وقد تمكن من عدم الالتقاء بعيني والدته. وأومأت "**أسا**" لـ"**هينيت**" آمرة، وتسللت "**هينيت**" مطيعة من الغرفة. وكانت "**نوفريت**" قد نهضت ووقفت هي و"**أسا**" تنظران إحداهما إلى الأخرى. قالت "**أسا**":

– وهكذا سيتركك ابني خلفه؟ من الأفضل أن تذهبي معه يا "**نوفريت**".

– إنه يريد أن أبقى هنا. كان صوت "**نوفريت**" مخادعا ومطيعا، وأطلقت "**أسا**" ضحكة ثم قالت:

– لن يكون هذا مهما لو أردت الذهاب، ولماذا لا تريدين الذهاب؟ أنا لا أفهمك. ما الذي يدعوك إلى البقاء هنا؟ أنت فتاة عاشت في المدن.. وربما سافرت.. لماذا تختارين الحياة المملة الرتيبة هنا بين... أنا صريحة.. بين من لا يحبونك، بل من يكرهونك في الواقع؟

– إذن فأنت تكرهينني. وهزت "**أسا**" رأسها:

– أنا لا أكرهك. أنا عجوز ولو أنني لا أرى إلا قليلا إلا أنني ما زلت أستطيع أن أرى الجمال وأقدره. أنت جميلة يا"**نوفريت**" وجمالك يسر عيني المسنتين ومن أجل جمالك أتمنى لك الخير أحذرك. ارحلي إلى الشمال مع ابني. ورددت "**نوفريت**" مرة أخرى:

– إنه يريد أن أبقى هنا، وكانت اللهجة المطيعة مصطنعة إذ ذاك بالتهكم. قالت "**أسا**" بحدة:

– إن لك هدفا لبقائك هنا وإني أتساءل ما هو؟ حسنا جدًّا لتتحملي تبعة أعمالك

ولكن كوني حذرة، تصرفي بحصافة، ولا تثقي بأحد. واستدارت فجأة وخرجت، وبقيت "**نوفريت**" ساكنة تماما وببطء شديد بدت ابتسامة عريضة كابتسامة القطط تظهر على شفتيها.

الفصل السادس

اعتادت "**رينسنب**" الذهاب إلى المقبرة كل يوم تقريبا، وفي بعض الأحيان يكون "**ياموس**" و"**حوري**" هناك، وفي أحيان أخرى يكون "**حوري**" هناك وحده، وأحيانا لا يكون أحد منهما موجودا، ولكن في كل الأوقات كانت "**رينسنب**" تشعر هناك بشعور غريب من الترويح عن النفس والسلام، شعور بالهروب، وكانت تفضل أن تجد "**حوري**" هناك وحده، كان هناك شيء ما في رزانته وفي تقبله دون فضول لمجيئها، يجعلها تشعر شعورا كبيرا بالرضا، وكانت تجلس في مدخل الغرفة الحجرية وقد رفعت إحدى ركبتيها ولفت يديها حولها، تحدق عبر الحقول الخضراء إلى حيث كان النيل يلمع بلون جميل يميل إلى الزرقة، وإلى أبعد منه حيث كانت تبدو من بعيد ألوان باهتة، واللون الأصفر الفاتح والأحمر الباهت، وكلها تمتزج ببعضها في انسجام هادئ. وقد جاءت هناك لأول مرة منذ عدة أشهر تلبية لرغبة مفاجئة للهروب من عالم نسائي كثيف. كانت تنشد الهدوء والصحبة الطيبة وقد وجدتها، وكانت لا تزال تشعر بالرغبة في الهروب ولكن الآن لم يعد مجرد اشمئزاز من الضغط واللغط المصاحبين للأعمال المنزلية، بل كان شعورا أشد وأكثر إزعاجا. وقالت لـ"**حوري**" في يوم ما:

– أنا خائفة.

– ولماذا أنت خائفة يا "**رينسنب**"؟ ومضى يتأملها بجد. وفكرت "**رينسنب**" لدقيقة أو دقيقتين ثم قالت ببطء:

– هل تتذكر أنك قلت لي مرة إن هناك نوعين من الشر، نوع خارجي ونوع داخلي؟

– نعم أتذكر.

– كنت تتكلم، كما قلت فيما بعد –عن الآفات التي تهاجم الفاكهة والمحاصيل،

ولكنني فكرت في أن الشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى الناس. وأومأ "**حوري**" ببطء:

– إذن فقد اكتشفت هذا، نعم أنت على حق يا "**رينسنب**". وقالت "**رينسنب**" بجفاء:

– إن هذا يحدث الآن هناك في المنزل، لقد أتى الشر من الخارج وأنا أعرف من أتى به. إنها "**نوفريت**". وقال "**حوري**" ببطء:

– هل تعتقدين هذا؟ وأومأت "**رينسنب**" بعزم:

– نعم، نعم أنا أعرف ما أتكلم عنه، اسمع يا "**حوري**" عندما صعدت إلى هنا وقلت لك إن كل شيء كما كان حتى مشاحنات "**ساتيبي**" و"**كيت**"، كان هذا حقيقيا، ولكن هذه المشاحنات لم تكن حقيقية يا "**حوري**"، وأعنى أن "**ساتيبي**" و"**كيت**" كانتا تلهوان بها ،كانت هذه المشاحنات سبيلا لتمضية الوقت، ولم تكن أي من المرأتين لتشعر بغضب حقيقي تجاه الأخرى، ولكن الأمر يختلف الآن، فإنهما لم يعودا يقولان أشياء فظة وغير لطيفة عفوا، بل أصبحتا تقولان كلاما بغرض الإيذاء، وعندما ترى إحداهما أنها قد جرحت شعور الأخرى تفرح، إنه لشيء فظيع يا "**حوري**"، فظيع، بالأمس كانت "**ساتيبي**" غاضبة لدرجة أنها شكت ذراع "**كيت**" بدبوس ذهبي طويل، ومنذ يوم أو يومين أسقطت "**كيت**" حلة نحاس ثقيلة مليئة بالزيت المغلي على رجل "**ساتيبي**" وهذا هو ما يحدث على الدوام كل يوم، "**ساتيبي**" تعنف "**ياموس**" طوال الليل، ونسمعها كلنا، ويبدو على "**ياموس**" التعب والمرض كما لو كان يلازمه شبح. و"**سوبك**" يذهب إلى نساء القرية ويبقى هناك معهن، ويرجع وهو سكران ويصيح ويتباهى بذكائه. وقال "**حوري**" ببطء:

– أنا أعرف أن بعض هذه الأشياء حقيقية، ولكن لماذا تلومين "**نوفريت**"؟

– لأن هذا نتيجة أفعالها، إنها دائما الأشياء التي تقولها، أشياء صغيرة جارحة بمهارة، وهي التي تبدأ كل هذا. إنها كالعصا التي تنخس بها الثور، وهي ذكية أيضا وتعرف بالضبط ما يجب أن يقال لإثارة المشاكل، وفي بعض الأحيان أعتقد أن "**هينيت**" هي التي تشير عليها بما تقوله. وقال "**حوري**" مفكرا:

– نعم قد يكون هذا صحيحا. وارتعشت "**رينسنب**" وهي تقول:

– إني لا أحب "**هينيت**" وأكره الطريقة التي تزحف بها حول المنزل. إنها متفانية

لنا جميعا، ومع ذلك فلا أحد فينا يريد هذا التفاني. كيف أمكن لأمي أن تأتي بها هنا وأن تحبها إلى هذا الحد؟ وقال "**حوري**" بجفاء:

– إن "**هينيت**" هي التي تقول هذا.

– لماذا تحب "**هينيت**" "**نوفريت**" وتمشي خلفها في كل مكان، وتهمس في أذنها وتتملقها؟ آه يا "**حوري**" وأقول لك إنني خائفة، أنا أكره "**نوفريت**"، وأتمنى لو رحلت بعيدا. إنها جميلة وقاسية وشريرة.

– كم أنت طفلة يا "**رينسنب**"، ثم أضاف "**حوري**" بهدوء:

– إن "**نوفريت**" تصعد الطريق إلى هنا. وأدارت "**رينسنب**" رأسها وجلست هي و"**حوري**" يرقبان "**نوفريت**" وهي تصعد ببطء الطريق الشديد الانحدار الذي يؤدي إلى أعلى الهضبة، وكانت تبتسم وتهمهم بأغنية. وعندما وصلت إلى المكان الذي يجلسان فيه نظرت حولهما وابتسمت، وكانت ابتسامة فيها فضول وتساؤل.

– وهكذا فهذا هو المكان الذي تجيئين إليه خلسة كل يوم يا "**رينسنب**". ولم تجبها "**رينسنب**". كانت تشعر بالغضب والهزيمة مثل طفلة اكتشف مخبؤها، ونظرت "**نوفريت**" حولها مرة أخرى.

– إذن هذه هي المقبرة الشهيرة. قال "**حوري**":

– تماما كما تقولين يا "**نوفريت**". ونظرت إليه وفمها الذي يشبه فم القطة يبتسم وقالت:

– أنا لا أشك في أنك تجدها مربحة يا "**حوري**"، فإنك كما سمعت رجل أعمال، وكانت هناك رنة خبث في صوتها، ولكن لم يحرك هذا "**حوري**" وظل ساكنا وهو يبتسم ابتسامته الهادئة الرزينة.

– إنها مربحة لنا جميعا.. إن الموت دائما مربح.. وارتعشت "**نوفريت**" وهي تنظر بسرعة حولها إلى مناضد القرابين ومدخل المقبرة والباب الوهمي، وهتفت بحدة:

– إني أكره الموت. قال "**حوري**" بصوت هادئ:

– لا يجب أن تكرهيه، فإن الموت في "**مصر**" هو مصدر الثروة الرئيسي. إن الموت هو الذي اشترى الجواهر التي تتزينين بها يا "**نوفريت**"، والموت هو الذي يطعمك ويكسوك. وحدقت إليه وقالت:

– ماذا تعني؟

– أعني أن "**أمحتوب**" كاهن –كاهن قبور– وكل أراضيه وماشيته وخشبه وكتانه وشعيره هبة أو وقف المقبرة. وتوقف ثم قال مفكراً:

– نحن –معشر المصريين– قوم فينا غَرابة فنحن نحب الحياة، ولذلك نبدأ مبكرا في التخطيط للموت، وهنا تذهب ثروة "**مصر**" في الأهرام وفي القبور وفي أوقاف القبور. قالت "**نوفريت**" بعنف:

– كف عن الحديث عن الموت يا "**حوري**"، فأنا لا أحبه.

– لأنك مصرية صميمة، لأنك تحبين الحياة... لأنك في بعض الأحيان... تشعرين بظلال الموت قريبة جداً..

– كُفَّ. واستدارت نحوه بعنف، ثم هزت كتفيها وأشاحت عنه وبدأت تنزل الطريق مبتعدة. تنفست "**رينسنب**" وتنهدت بارتياح ثم قالت مثل طفلة:

– أنا سعيدة لأنها ذهبت، لقد أخفتها يا "**حوري**".

– نعم.. هل أخفتك أنت يا "**رينسنب**"؟

– لا .ورن صوت "**رينسنب**" متشككا نوعا:

– إن ما قلته حق، ولكنني فقط لم أفكر فيه بهذه الطريقة من قبل قط. إن أبي فعلا كاهن قبور. وقال "**حوري**" بمرارة مفاجئة:

– إن "**مصر**" كلها تتسلط عليها فكرة الموت، أتعرفين السبب يا "**رينسنب**"؟ لأن لنا عيونا في أجسادنا ولكن ليس في عقولنا. إننا لا يمكن أن نتصور حياة أخرى غير هذه. حياة بعد الموت. إننا يمكن أن نتخيل فقط امتدادا للحياة التي نعرفها. نحن لا نعتقد فعلا في الله. وحدقت "**رينسنب**" إليه في دهشة:

– كيف يمكنك أن تقول هذا يا "**حوري**"؟ إن لدينا آلهة عديدة، كثيرون لدرجة أني لا أستطيع أن أعرف كل أسمائهم. في الليلة الماضية كنا جميعا نتكلم عن الآلهة التي نفضلها. "**سوبك**" يفضل "**سكمت**" و"**كيت**" تصلي لـ"**مسكنت**"، و"**كاماني**" "**توت**" وهذا طبيعي لأنه كاتب. "**ساتيبي**" تفضل "**حورس**" ذا رأس الصقر و"**مريجر**" أيضا و"**ياموس**" يقول إن "**بتاح**" يجب عبادته لأنه خلق كل شيء، وأنا نفسي أحب "**إيزيس**". "**هينيت**" تفضل "**آمون**" الإله المحلي وتقول إن هناك تنبؤات بين الكهنة بأنه في يوم من الأيام سيكون "**آمون**" أعظم إله في

"**مصر**"؛ لذلك هي تقدم له القرابين الآن وهو ما يزال إلها صغيرا ثم هناك "**رع**" إله الشمس و"**أوزوريس**" الذي توزن أمامه قلوب الأموات. وتوقفت "**رينسنب**" لتلتقط أنفاسها وابتسم لها "**حوري**" ثم قال:

– وما الفارق يا "**رينسنب**" بين الآلهة والرجل؟ وحدقت "**رينسنب**" إليه:

– إن الآلهة... إنهم سحرة؟

– أهذا كل الفارق؟

– أنا لا أعرف ما تعنيه يا "**حوري**".

– أنا أعني أن الإله بالنسبة إليك هو رجل أو امرأة يستطيع أن يفعل أشياء معينة لا يستطيع الرجال والنساء أن يفعلوها.

– إنك تقول أشياء غريبة جداً، أنا لا أستطيع أن أفهمك. ونظرت إليه بوجه حائر، ثم نظرت إلى أسفل عبر الوادي واسترعى انتباهها شيء آخر. هتفت قائلة:

– انظر إن "**نوفريت**" تكلم "**سوبك**"، إنها تضحك. آه وشهقت فجأة:

– لا.. لا شيء لقد ظننت أنه سيضربها. إنها تعود إلى المنزل وهو صاعد إلى هنا. ووصل "**سوبك**" وهو غاضب جداً وهتف:

– ليلتهم التمساح تلك المرأة. إن أبي كان مغفلا أكثر من العادة عندما اتخذها محظية. وسأل "**حوري**" بفضول:

– ماذا قالت؟

– لقد أهانتني كالمعتاد، سألتني إذا كان أبي قد عهد إليَّ ببيع أي خشب آخر. إنني أود أن أخنقها. وتحرك على المنصة والتقط حجرا، وألقى به إلى أسفل الوادي ثم بدأ يحرك حجرا أكبر، وقفز إلى الوراء عندما رفع ثعبان –كان نائما تحت الحجر– رأسه، وانتصب الثعبان وهو يصدر فحيحا ورأت "**رينسنب**" أنه من نوع الكوبرا. التقط "**سوبك**" عصا غليظة وهاجم بها الثعبان بشراسة، وبضربة أحسن تصويبها كسر ظهره ولكن "**سوبك**" ظل يواصل الضرب وقد رفع رأسه إلى الخلف ولمعت عيناه وهو يردد بين أسنانه كلمة لم تكد تسمعها "**رينسنب**" ولم تتبينها. صاحت "**رينسنب**":

– كفى، كفى يا "**سوبك**"، لقد مات. وتوقف "**سوبك**" ثم رمى العصا بعيدا وضحك قائلا:

– إنه ثعبان سام آخر نقص من العالم، وضحك مرة أخرى وقد استرد مزاجه الرائق. ومضى نازلا مرة أخرى. قالت "**رينسنب**" في صوت منخفض:

– أعتقد أن "**سوبك**" يحب قتل الأشياء.

– نعم. لم يكن هناك دهشة في الكلمة، كان "**حوري**" يقر فقط بواقعة يعرفها جيدا من قبل كما يبدو، واستدارت "**رينسنب**" ونظرت إليه وقالت ببطء:

– إن الثعابين خطرة؛ ولكن كم كان هذا الكوبرا جميلا.. ونظرت إلى جسم الثعبان الملتوي المقطع ولسبب تعرفه شعرت بغصة في حلقها. وقال "**حوري**" حالما:

– إنني أتذكر عندما كنا أطفالا صغارا كلنا، هاجم "**سوبك**" "**ياموس**" وكان "**ياموس**" أكبر منه بعام ولكن "**سوبك**" كان أطول قامة وأقوى وكان في يده حجر وكان يضرب به رأس "**ياموس**" وجاءت والدتك تجري وأبعدتهما عن بعض. إنني أتذكر كيف وقفت تنظر إلى "**ياموس**"، وكيف صاحت إنك لا يجب أن تفعل أشياء من هذا القبيل يا "**سوبك**"، إن هذا خطر.. إنني أقول لك إنه خطر، وتوقف برهة ثم مضى يقول:

– كانت جميلة جدًا.. كنت أعتقد هذا وأنا طفل وأنت مثلها يا "**رينسنب**".

– وهل هذا صحيح؟.. وشعرت "**رينسنب**" بالسرور وبالدفء، ثم سألت:

– هل أصاب "**ياموس**" أذى شديد في ذلك الحين؟

– كلا لم يكن الأمر سيئا مثلما بدأ أولا، ومرض "**سوبك**" مرضا شديدا في اليوم التالي قد يكون من شيء أكله، ولكن والدتك قالت إن مرضه نتيجة لهياجه وللشمس الشديدة لقد كان هذا في منتصف الصيف. قالت "**رينسنب**" مفكرة:

– إن "**سوبك**" له طباع شنيعة. ونظرت مرة أخرى إلى الثعبان الميت واستدارت وهي ترتعد.

-2-

كان "**كاماني**" يجلس في الشرفة الأمامية عندما وصلت "**رينسنب**" إلى المنزل، وبين يديه رزمة من ورق البردي، وكان يغني وتمهلت دقيقة واستمعت إلى الكلمات. كان "**كاماني**" يغني أغنية عاطفية يصف فيها عروسه الجميلة ويطلب من الآلهة أن تمنحها له، ورفع رأسه وابتسم لـ"**رينسنب**".

– هل تعجبك اغنيتي يا "**رينسنب**" ؟

– ما نوعها؟

– إنها أغنية حب من "**ممفيس**" . ومضى يغني برفق وعيناه عليها، وصعد الدم إلى وجه "**رينسنب**" ، ومضت بسرعة داخل المنزل وكادت تصطدم بـ"**نوفريت**" .

– فيم العجلة يا "**رينسنب**" ؟ كانت هناك نبرة حادة في صوت "**نوفريت**" ، ونظرت "**رينسنب**" إليها باستغراب طفيف. كان وجه "**نوفريت**" لا يبتسم بل كان عابسا ومشدودا ولاحظت "**رينسنب**" أن يديها متصلبتان إلى جانبيها.

– آسفة يا "**نوفريت**" ، لم أرك. إن المكان مظلم هنا عندما يأتي المرء من الضوء الشديد في الخارج.

– نعم إن الضوء هنا ضعيف.. وصمتت "**نوفريت**" برهة. ثم قالت:

– إنه من الألطف الجلوس في الخارج.. في الشرفة والاستماع إلى غناء "**كاماني**" . إنه يغني جيدا أليس كذلك؟

– نعم.. نعم إني متأكدة أنه يغني جيدا.

– ومع ذلك لم تنتظري لتستمعي. سيخيب ظن "**كاماني**" . أحست "**رينسنب**" بوجهها يحمر مرة أخرى، وشعرت بعدم ارتياح من نظرة "**نوفريت**" الباردة المتهكمة.

– الا تحبين أغاني الحب يا "**رينسنب**" ؟

– هل تهتمين يا "**نوفريت**" بما أحبه وما لا أحبه؟

– وهكذا فالقطط الصغيرة لها مخالب.

– ماذا تعنين؟ وضحكت "**نوفريت**" :

– إنك لست ساذجة كما تبدين يا "**رينسنب**" فانت تجدين "**كاماني**" وسيما.. هذا دون شك. وقالت "**رينسنب**" بحدة:

– أعتقد أنك كريهة تماما. وجرت ومرت بـ"**نوفريت**" نحو الجزء الخلفي من المنزل. وسمعت صوت الفتاة وهي تضحك متهكمة، ولكن من خلال هذه الضحكة كان يرن بوضوح في ذاكرتها صدى صوت "**كاماني**" والأغنية التي غناها وهو يرنو إليها بعينيه..

- 3 -

حلمت "رينسنب" في تلك الليلة. "كانت مع "**فاي**" تبحر في مركب الموت في العالم الأسفل، وكان "**فاي**" واقفا في مقدمة المركب.. كانت ترى مؤخرة رأسه فقط. ثم عندما اقتربا من مشرق الشمس استدار "**فاي**" ورأت "**رينسنب**" حينئذ أنه "**كاماني**" وليس "**فاي**"، وفي تلك اللحظة بدأ رأس الثعبان في مقدمة السفينة يتحرك ويتلوى، وفكرت "**رينسنب**": «إنه ثعبان حي إنه "**كوبرا**".. إنه الثعبان الذي يخرج من القبور ليلتهم أرواح الأموات». وشلت من الخوف ثم رأت أن وجه الثعبان هو وجه "**نوفريت**".." واستيقظت وهي تصرخ:

– "**نوفريت**".. "**نوفريت**". ولم تكن قد صرخت حقيقة.. كان كل هذا في الحلم ورقدت في سكون وقلبها يدق وهي تقول لنفسها: «لا شيء من هذا صحيح». ثم فكرت فجأة: "هذا ما كان "**سوبك**" يقوله عندما كان يقتل الثعبان بالأمس. كان يقول: "**نوفريت**"..

الفصل السابع

أيقظ الحلم "**رينسنب**" ثم نامت بعده فترات متقطعة قصيرة فقط، وقرب الصباح لم تستطع النوم قط، وكان يسيطر عليها شعور خفي بشر مقبل. واستيقظت مبكرة وخرجت من المنزل، وقادتها قدماها كما كان يحدث كثيرا نحو النيل. كان هناك على النيل بعض الصيادين، وهناك مركب كبير يجدف بشدة نحو "**طيبة**"، وكانت هناك مراكب أخرى تسير بقلاعها تدفعها الرياح. وتحرك شيء ما في قلب "**رينسنب**"، تحرك رغبة لشيء لا تستطيع أن تعرفه وفكرت: "إني أشعر... إني أشعر". ولكنها لم تعرف حقيقة شعورها، وبمعنى آخر لم تعرف الكلمات التي تناسب هذا الشعور، وفكرت: "إني أريد... ولكن ماذا أريد؟". هل كان "**فاي**" هو الذي تريده؟ "**فاي**" مات، ولن يعود، وقالت لنفسها: «لن أفكر في "**فاي**" بعد ذلك. ما جدوى هذا؟ إن كل شيء قد انتهى..» ثم لاحظت خيال شخص آخر واقفا ينظر إلى المركب المتجه إلى "**طيبة**"، وكان هناك شيء يوحي باليأس حوله –

عاطفة ما تعبر عنها هذه الوقفة الساكنة- واسترعى هذا انتباه "**رينسنب**" وفي الوقت نفسه تعرفت على "**نوفريت**". كانت تحدق في النيل، وحيدة، تفكر في... ماذا؟ وأدركت "**رينسنب**" بصدمة مفاجئة، إن ما يعرفونه عن "**نوفريت**" قليل جدًا، لقد تقبلوها كعدوة غريبة، دون أي اهتمام أو فضول عن حياتها أو عن البيئة التي أتت منها. وفكرت "**رينسنب**" فجأة أنه لا ريب شيء محزن لـ"**نوفريت**" أن تكون هنا وحيدة دون أصدقاء، ومحاطة فقط بأناس لا يحبونها. ومضت "**رينسنب**" ببطء إلى الأمام حتى وقفت بجانب "**نوفريت**"، وأدارت "**نوفريت**" رأسها وهلة ثم أدارتها مرة أخرى وتابعت تفرسها في النيل، وكان وجهها لا يعبر عن شيء. قالت "**رينسنب**" بخجل:

- هناك مراكب كثيرة في النيل.

- نعم. ومضت "**رينسنب**" تقول وهي تطاوع باعثا خفيا للصداقة:

- هل يشبه هذا المكان موطنك؟ وضحكت "**نوفريت**" ضحكة قصيرة فيها بعض المرارة وقالت:

- لا أبدا. إن أبي تاجر في "**ممفيس**" وهو مكان مرح مسل. هناك موسيقى وغناء ورقص، ثم إن أبي يرحل كثيرًا وقد ذهبت معه إلى "**سوريا**"، وإلى "**بابل**"، لقد ذهبت معه في مركب كبير يسير في البحار الواسعة. كانت تتكلم بكبرياء وحيوية. ووقفت "**رينسنب**" ساكنة تماما وعقلها يعمل ببطء ولكن بتفهم واهتمام متزايد ثم قالت ببطء:

- لابد من أن هذا المكان ممل جدًا لك. ضحكت "**نوفريت**" بصبر نافد وقالت:

- إنه مكان كئيب لا شيء سوى العزق والحرث والبذر والجني، كلام عن المحاصيل والمشاحنات على أسعار الكتان. كانت "**رينسنب**" ما تزال تصارع أفكارا غير مألوفة وهي تراقب "**نوفريت**" من طرف خفي. وفجأة بدا كما لو كانت قوة بدنية هائلة تدفع موجة من الغضب والتعاسة واليأس من داخل الفتاة التي وقفت بجانبها. وفكرت "**رينسنب**": "إنها صغيرة مثلي بل أصغر، وهي محظية الرجل المسن الكريم المثير للصخب المضحك بعض الشيء، أبي..". ماذا تعرف هي "**رينسنب**" عن "**نوفريت**"؟ لا شيء بالمرة. ما الذي قاله "**حوري**" بالأمس عندما هتفت هي قائلة: إنها جميلة وقاسية وشريرة.. لقد قال "**حوري**"، إنك طفلة يا "**رينسنب**". والآن

عرفت "**رينسنب**" ماذا كان يعني. إن كلماتها كانت لا تعني شيئا.. إن المرء لا يستطيع أن يحكم على إنسان بمثل هذه السهولة. كم من الحزن والمرارة واليأس تختفي وراء الابتسامة القاسية لـ"**نوفريت**"؟ ماذا فعلت "**رينسنب**" أو أي فرد منهم للترحيب بـ"**نوفريت**"؟» وقالت "**رينسنب**" وهي تتلعثم كطفلة:

– إنك تكرهيننا جميعا وأنا أعرف السبب؛ لأننا لم نكن ظرفاء، ولكن الآن لم يفت الوقت. الا يمكن أن نكون أنا وأنت يا "**نوفريت**" مثل أختين؟ إنك بعيدة عن كل الذين تعرفينهم، أنت وحيدة، هل أستطيع المساعدة؟ وتلعثمت كلماتها حتى سكتت. واستدارت "**نوفريت**" ببطء ولدقيقة أو دقيقتين لم يظهر أي تعبير على وجهها. وظنت "**رينسنب**" أن عينيها قد رقتا ولانتا لفترة وجيزة، وفي سكون هذا الصباح الباكر بوضوحه الغريب وهدوئه بدا كما لو أن "**نوفريت**" تتردد، كما لو أن كلمات "**رينسنب**" قد مست وترا أخيرا من الرجوع عن العزم. كانت فترة غريبة، فترة تذكرتها "**رينسنب**" فيما بعد.. ثم بدأ تعبير "**نوفريت**" يتغير بالتدريج، وأصبح شريرا واحتقنت عيناها، وتراجعت "**رينسنب**" خطوة إلى الوراء أمام هياج الحقد والشر في نظرتها. قالت "**نوفريت**" بصوت منخفض وشرس:

– اذهبي إني لا أريد شيئا من أي واحد فيكم. أيها الأغبياء السخفاء كلكم هكذا كل فرد فيكم. وتوقفت لحظة ثم استدارت ورجعت إلى المنزل وهي تمشي بنشاط. وتبعتها "**رينسنب**" ببطء، ومن الغريب أن كلمات "**نوفريت**" لم تغضبها، بل فتحت أمام عينيها هاوية عميقة مظلمة من الحقد والتعاسة، شيء لم تكن لتعرفه من قبل من تجاربها، وكانت تراودها فكرة غامضة "كم يكون مريعا أن يشعر المرء بهذه الأمور".

-2-

حينما دخلت "**نوفريت**" من البوابة وعبرت الحوش، اعترضت طريقها إحدى أطفال "**كيت**" وهي تجري خلف كرة، وأزاحت "**نوفريت**" الطفلة عن طريقها بدفعة غاضبة رمت الطفلة على الأرض، فأطلقت الطفلة صرخة وجرت "**رينسنب**" نحوها والتقطتها وهي تقول بسخط:

– ما كان يجب أن تفعلي هذا يا "**نوفريت**"، لقد آذيتها انظري لقد جرحت

ذقنها. وضحكت "**نوفريت**" بصوت رفيع. ثم أردفت:

– وهكذا يجب أن أحرص على عدم إيذاء هؤلاء الأولاد المدللين؟ لماذا؟ هل تراعي أمهاتهم شعوري؟ كانت "**كيت**" قد جاءت تجري من المنزل على صراخ طفلتها، وجرت إليها وفحصت الوجه الجريح ثم استدارت لـ"**نوفريت**".

– أيتها الحية الشيطانة.. يا شريرة.. مهلا وسترين ما سنفعله بك. وصفعت "**نوفريت**" بكل قوتها، وأطلقت "**رينسنب**" صيحة، وأمسكت بذراعها قبل أن تعيد الضرب.

– "**كيت**".. "**كيت**".. لا يجب أن تفعلي هذا.

– من يقول هذا؟ لتأخذ "**نوفريت**" حذرها. إنها واحدة فقط هنا في وسط كثيرين. ووقفت "**نوفريت**" ساكنة تماما، وكانت علامة يد "**كيت**" ظاهرة حمراء على خدها، وكان هناك جرح بجانب إحدى عينيها من أثر حلية كانت "**كيت**" تلبسها في معصمها، وقد جرحت الجلد وسالت منه الدماء على وجهها. ولكن الانطباع الذي على وجه "**نوفريت**" كان هو الذي حير بل وأخاف "**رينسنب**". لم تظهر "**نوفريت**" أي غضب، وبدلا من ذلك كانت هناك نظرة غريبة منتصرة في عينيها، ومرة أخرى ظهرت ابتسامة مثل ابتسامة القطط على وجهها وقالت:

– شكرا لك يا "**كيت**". ثم مشت إلى داخل المنزل.

-3-

نادت "**نوفريت**" "**هينيت**" وهي تهمهم برفق وقد أرخت رموشها، وجاءت "**هينيت**" تجري ثم توقفت وهتفت باستغراب، وقاطعت "**نوفريت**" كلامها قائلة:

– عليّ بـ"**كاماني**" قولي له أن يأتي بريشته وبالحبر وورق البردي، فهناك رسالة ستكتب للسيد. كانت عينا "**هينيت**" مثبتة على خد "**نوفريت**":

– للسيد.. أنا أرى.. ثم سألت:

– من فعل هذا؟

– "**كيت**"... وابتسمت "**نوفريت**" بهدوء وهي تتذكر. هزت "**هينيت**" رأسها وطقطقت لسانها:

– إن هذا سيئ جدًّا.. سيئ جدًّا. يجب أن يعلم به السيد... وألقت نظرة سريعة

جانبية إلى "**نوفريت**" .

– نعم يجب أن يعرف "**أمحتوب**" . قالت "**نوفريت**" بنعومة:

– أنت وأنا يا "**هينيت**" نفكر تفكيرا واحدا.. لقد فكرت في أنه يجب أن نفعل ذلك. وحملت حجرا كريما مركبا على ذهب من ثوبها اللينوه ووضعته في يد المرأة.

– أنت وأنا يا "**هينيت**" تهمنا مصلحة "**أمحتوب**" الحقيقية.

– إن هذا لكثير يا "**نوفريت**" .. أنت كريمة أكثر من اللازم.. هذه حلية بديعة.

– "**أمحتوب**" وأنا نقدر الإخلاص. كانت "**نوفريت**" ما تزال تبتسم وعيناها نصف مغمضتين وتبدو كالقطط ثم قالت:

– ائتي بـ"**كاماني**" وتعالي معه فانت وهو ستشهدان معا على ما حدث. جاء "**كاماني**" على الرغم عنه مقطب الجبين. وتكلمت "**نوفريت**" بلهجة آمرة:

– أتتذكر تعليمات "**أمحتوب**" قبل أن يرحل؟ قال "**كاماني**" :

– نعم. يا "**نوفريت**" :

– حان الوقت. اجلس واستعد بريشتك واكتب كما أقول لك. ثم قالت بصبر نافد وهي ترى أن "**كاماني**" مازال متردداً:

– إن ما تكتبه سيكون ما رأيته بعينيك وما سمعته بأذنيك، وستؤيد "**هينيت**" كل ما سأقوله، ويجب أن تبعث الرسالة بسرعة وبسرية. قال "**كاماني**" ببطء:

– أنا لا أحب... وقاطعته "**نوفريت**" بسرعة البرق:

– ليس لديَّ شكوى ضد "**رينسنب**" فإنها رقيقة وضعيفة وغبية، ولكنها لم تحاول إيذائي هل يرضيك هذا؟ واحمر وجه "**كاماني**" البرنزي.

– لم أكن لأفكر في هذا. قالت "**نوفريت**" بنعومة:

– أعتقد أنك كنت تفكر في هذا. والآن هيا أطع التعليمات اكتب. قالت "**هينيت**" :

– نعم اكتب. أنا مغمومة جدًّا من كل هذا، متضايقة لدرجة كبيرة لكن يجب أن يعرف "**أمحتوب**" بما حدث. إنه يجب أن يعرف. ومهما كان الأمر كريها فيجب على المرء أن يؤدي واجبه. لقد شعرت بهذا دائما. ضحكت "**نوفريت**" بنعومة:

– إنني واثقة بهذا يا "**هينيت**" ، أنت ستقومين بواجبك، و"**كاماني**" سيقوم بمهام وظيفته وأنا سأفعل ما يحلو لي. ولكن "**كاماني**" كان لا يزال مترددا. كان وجهه

عابسا بل يكاد يكون غاضبا قال:

– أنا لا أحب هذا. "**نوفريت**" من الأفضل أن تفكري وقتا أطول.

– أأنت الذي تقول هذا لي أنا؟! واحمر وجه "**كاماني**" للهجتها وتفادى نظراتها ولكن وجهه ظل عابسا. قالت "**نوفريت**" بنعومة:

– خذ حذرك يا "**كاماني**" إن لي نفوذا كبيرا لدى "**أمحتوب**" وهو يستمع إلى ما أقوله له، وهو راض عنك حتى الآن، وتوقفت وكان معناها واضحا.

– هل تهددني يا "**نوفريت**"؟

– ربما.. نظر إليها بغضب للحظة أو لحظتين ثم أحنى رأسه:

– سأفعل كما تقولين يا "**نوفريت**" ولكني أعتقد.. نعم إني أعتقد أنك ستندمين.

– هل تهددني أنت يا "**كاماني**"؟

– إنني أحذرك.

الفصل الثامن

مضت الأيام تباعا و"**رينسنب**" تشعر أحيانا بأنها تعيش في حلم. لم تتقرب من "**نوفريت**" بعد تلك المرة، إذ أصبحت تخاف "**نوفريت**" فقد كان ثمة شيء حولها لا تفهمه. تغيرت "**نوفريت**" بعد ذلك المشهد في ساحة الدار ذلك اليوم، وأصبحت بشوشة وتبدو مبتهجة، ولم تكن "**رينسنب**" لتدري لذلك سببا، وفي بعض الأحيان كانت تظن أن تصورها لـ"**نوفريت**" كحزينة جداً كان لابد خاطئا بدرجة مضحكة، فإن "**نوفريت**" كانت تبدو سعيدة بالحياة وبنفسها ومنْ حولها، ولكن الواقع إن مَنْ حولها كانوا قد تغيروا إلى الأسوأ، في الأيام التي تلت رحيل "**أمحتوب**". كانت "**نوفريت**" تتعمد –كما تعتقد "**رينسنب**"– إشعال الفرقة بين أفراد عائلة "**أمحتوب**" العديدين، أما الآن فقد اتحدت العائلة بقوة ضد الغريبة، ولم تعد هناك خلافات بين "**ساتيبي**" و"**كيت**"، لم تعد "**ساتيبي**" تعنف "**ياموس**" المسكين وبدا "**سوبك**" أهدأ، ولم يعد يتباهى كثيرا، أما "**إيبي**" فقلّت وقاحته نحو أخويه الكبيرين، وبدأ انسجام جديد بين أفراد العائلة، ومع ذلك فلم يجلب هذا الانسجام راحة البال لـ"**رينسنب**" لأنه كان مصحوبا بتيار خفي من البغض

لـ"**نوفريت**" . لم تعد المرأتان "**ساتيبي**" و"**كيت**" تتشاحنان مع "**نوفريت**" بل أصبحتا تتحاشيانها ولم تعودا تتكلمان معها، وعندما كانت تأتي إلى أي مكان كانتا تأخذان أطفالهما وتذهبان بهم إلى أي مكان آخر. وفي الوقت نفسه بدأت أمور صغيرة عجيبة تحدث: أتلف ثوب من اللينوه لـ"**نوفريت**" من مكواة ساخنة أكثر من اللازم، واختلطت بعض الصبغات بالوان أخرى، وفي بعض الأحيان كانت تجد أشواكا حادة في ثيابها، ووجدت ثعبانا بجوار فراشها. وكان الطعام الذي يقدم إليها فيه توابل كثيرة أكثر من اللازم، أو ليس فيه أي نوع من التوابل، وفي يوم وجدت فأرا ميتا في خبزها. كانت حملة اضطهاد لا هوادة فيها في سكون ولؤم، لا شيء مكشوف فيها، لا شيء ممكن الإمساك به، كانت حملة نسائية أصيلة. ثم في يوم من الأيام أرسلت "**أسا**" في طلب "**ساتيبي**" و"**كيت**" و"**رينسنب**" وعندما وصلن وجدن "**هينيت**" هناك تهز رأسها وتفرك يديها. قالت "**أسا**" وهي تنظر إليهن بنظرتها التهكمية المعتادة:

– ها، إذن ها هن حفيداتي الذكيات.. ماذا تعتقدن أنكن تفعلن؟ ما هذا الذي أسمعه عن إتلاف ثوب "**نوفريت**"؟ وأن طعامها غير مستساغ؟ وابتسمت كلا من "**ساتيبي**" و"**كيت**" ابتسامة صفراء. سألت "**ساتيبي**":

– هل شكت "**نوفريت**"؟ قالت "**أسا**":

– لا لم تشك "**نوفريت**" وهذا هو ما يقلقني. وأزاحت الباروكة التي تلبسها حتى في المنزل إلى الخلف قليلا. قالت "**ساتيبي**" وهي ترمي رأسها الجميل إلى الخلف:

– هذا لا يقلقني أنا. قالت "**أسا**" بحدة:

– لأنك غبية. إن لـ"**نوفريت**" عقلا يوازي مرتين عقولكن الثلاث مجتمعات. قالت "**ساتيبي**":

– سنرى إذا كان هذا صحيحا. كانت تبدو منشرحة المزاج وراضية عن نفسها. قالت "**أسا**":

– ماذا تظنن أنكن فاعلات؟ وبدت القسوة على وجه "**ساتيبي**". وهي تقول:

– إنك امرأة عجوز يا "**أسا**"، وأنا لا أتكلم دون احترام لك، ولكن لم تعد الأمور تهمك مثلما تهمنا نحن الآن، ولنا أزواج وأطفال. لقد قررنا أن نأخذ زمام الأمور

في أيدينا، إن لنا طرقنا في معاملة امرأة لا نحبها ولن نقبلها. قالت "**أسا**" :

– كلام جميل، كلام جميل. وضحكت واكملت:

– ولكن من الممكن أن نسمع كلاما جميلا من الجواري اللاتي يعملن في الطاحونة. وقالت "**هينيت**" وهي تتنهد في آخر الغرفة:

– قول حقيقي وحكيم. واستدارت لها "**أسا**" :

– هيا يا "**هينيت**" ماذا تقول "**نوفريت**" عن كل الذي يجري؟ يجب أن تعرفي، فأنت دائما تلبين طلباتها.

– كما أمرني "**أمحتوب**" . إن هذا شيء كريه لي بالطبع، ولكن يجب أن أعمل ما أمرني به السيد. آمل ألا تعتقدي... وقاطعت "**أسا**" صوت "**هينيت**" الباكي:

– نحن نعرف كل شيء عنك يا "**هينيت**" . أنت دائما متفانية.. وقليلا ما تُشْكَرِين كما يجب. ماذا تقول "**نوفريت**" بخصوص هذا كله؟ هذا هو ما أسالك عنه. وهزت "**هينيت**" رأسها:

– إنها لا تقول شيئا. إنها فقط تبتسم.

– بالضبط. والتقطت "**أسا**" فاكهة وفحصتها ثم وضعتها في فمها ثم مضت تقول فجأة بفظاظة شريرة:

– إنكن جميعا غبيات.. إن السطوة في يد "**نوفريت**" لا معكن، وكل ما تفعلن هو انكن تلعبن كما تريد هي، وإني لأجرؤ أن اقسم إنها سعيدة بما تفعلن. قالت "**ساتيبي**" بحدة:

– هراء. "**نوفريت**" وحيدة هنا.. ما سطوتها؟ قالت "**أسا**" بعبوس:

– سطوة امرأة صغيرة وجميلة متزوجة برجل كبير. انا أعرف ما أتكلم عنه. استدارت سريعا برأسها وقالت:

– "**هينيت**" تعرف ما أتكلم عنه. أجفلت "**هينيت**" وتنهدت وبدت تلوي يديها:

– إن السيد يعزها كثيرا.. طبيعي.. نعم طبيعي تماما. قالت "**أسا**" :

– اذهبي إلى المطبخ وآتي لي ببعض البلح والشراب السوري.. نعم والعسل أيضا. وعندما انصرفت "**هينيت**" قالت السيدة العجوز:

– هناك عراك يكبر وينمو.. أنا أستطيع أن أشم رائحته. "**ساتيبي**" أنت رأس

هذه المؤامرة. احذري فبينما تعتقدين أنك ذكية، فإنك تتصرفين مثلما تريد "**نوفريت**" وتلعبين لها لعبتها. ومالت إلى الخلف واقفلت عينيها ثم قالت:

– اذهبي.. لقد حذرتكن.. والآن انصرفن. قالت "**ساتيبي**" وهي ترمي رأسها إلى الخلف وهن في طريقهن إلى البحيرة:

– نحن تحت سطوة "**نوفريت**".. يا سلام... إن "**أسا**" كبرت لدرجة أن أغرب الأفكار تدور في ذهنها. نحن الذين نضع "**نوفريت**" تحت سطوتنا، ثم إننا لن نفعل شيئا ضدها تستطيع أن تشكونا به، ولكني أعتقد، نعم أعتقد أنها ستأسف قريبا على أنها جاءت هنا. صاحت "**رينسنب**":

– أنت قاسية، قاسية. وبدا على "**ساتيبي**" الغضب:

– لا تتظاهري بحب "**نوفريت**" يا "**رينسنب**".

– أنا لا أحبها، ولكنك تبدين... تبدين كمن يود الانتقام.

– إنني أفكر في أولادي و"**ياموس**"، إني لست امرأة مستسلمة أو امرأة تقبل الإهانة، وإني طموحة، بوسعي أن أعصر عنق هذه المرأة بسرور، ولكن للأسف إن الامر ليس بهذه السهولة؛ لأننا لا يجب أن نثير غضب "**أمحتوب**".

-2-

جاء الخطاب كسهم أطلق على سمكة. جلس "**ياموس**" و"**سوبك**" و"**إيبي**" ساكنين لا يتكلمون ويحدقون إلى "**حوري**" وهو يقرأ الكلمات من ورق البردي:

– ألم أقل لـ"**ياموس**" أني ساحمله مسؤولية أي أذى يصيب محظيتي؟ يقيني أنكم جميعا على قيد الحياة.. أنا منذ اليوم عدوكم وأنتم أعدائي، لن أعيش معكم بعد اليوم تحت سقف واحد، وبما أنكم لم تحترموا محظيتي "**نوفريت**" لم تعودوا يا "**ياموس**" ويا "**سوبك**" ويا "**إيبي**" أبنائي من لحمي ودمي. إن كل واحد منكم قد آذى محظيتي وقد شهد على ذلك "**كاماني**" و"**هينيت**". ساطردكم من بيتي كلكم. لقد كنت انفق عليكم، والآن لن أنفق عليكم" وتوقف "**حوري**" ثم مضى يقرأ:

– إن خادم القبور "**أمحتوب**" يخاطب "**حوري**". أنت أيها المخلص كيف حالك وصحتك؟ بلغ تحياتي لوالدتي "**أسا**" ولابنتي "**رينسنب**" وسلم على "**هينيت**".

اعتن بأعمالي جيدا حتى أرجع إليك وجهز لي عقدا تشاركني فيه محظيتي "**نوفريت**" في كل أملاكي بوصفها زوجتي، ولن أشارك "**ياموس**" أو "**سوبك**" ولن أنفق عليهما، وإني هنا أعلن أنهما أساءا إلى محظيتي، حافظ على كل شيء لحين عودتي. ما أسوأ أن يقوم أهل بيت الرجل بأعمال شريرة تجاه محظيته. أما بالنسبة إلى "**إيبي**" فليحذر، وإذا آذى محظيتي بأي شكل فهو أيضا سيخرج من منزلي".
ساد سكون شامل. ثم نهض "**سوبك**" وهو في ثورة غضب وهياج عنيفة:
– كيف حدث هذا؟ ما الذي سمعه أبي؟ من ذهب إليه بروايات كاذبة؟ هل سنحتمل هذا؟ لا يستطيع أبي أن يحرمنا من الميراث ويعطي كل أملاكه لمحظيته.
قال "**حوري**" بهدوء:
– إن هذا سيثير انتقادات في غير صالحه، ولن يتقبله الناس كتصرف عادل، ولكنه يملك من الوجهة القانونية أن يفعل هذا فإن في إمكانه أن يكتب أملاكه لمن يشاء.
– لقد سحرته هذه الحية السوداء المتهكمة، لقد سحرت له. وتمتم "**ياموس**" كمن فقد المقدرة على الكلام:
– هذا شيء غير مصدق لا يمكن أن يكون حقيقيا. صاح "**إيبي**":
– إن أبي مجنون.. مجنون. لقد تحول حتى ضدي أنا بأمر هذه المرأة. قال "**حوري**" جادا:
– سيرجع "**أمحتوب**" قريبا، هكذا يقول، وحينئذ ربما يكون غضبه قد سكن وقد لا يعني حقا ما يقوله. ورنت ضحكة قصيرة شريرة، وكانت "**ساتيبي**" هي التي تضحك، وقد وقفت تنظر إليه من عتبة الباب المطل على جناح النساء:
– إذن هذا هو ما علينا أن نفعله يا "**حوري**" العظيم؟ ننتظر ونرى ما سيحدث.
قال "**ياموس**" ببطء:
– وما عسانا أن نفعل غير هذا؟ وارتفع صوت "**ساتيبي**" وصرخت:
– ما الذي يجري في عروقكم كلكم؟ لبن؟ إني أعرف أن "**ياموس**" ليس رجلا، ولكن أنت يا "**سوبك**" أليس عندك علاج لهذا البلاء؟ سكين في القلب ولا تستطيع الفتاة لكم أذى بعد ذلك؟ هتف "**ياموس**":
– "**ساتيبي**"! لن يسامحنا أبي أبدا.
– هذا ما تقوله أنت، ولكني أقول لكم إن المحظية الميتة ليست مثل المحظية الحية،

عندما تموت سيعود قلبه لأولاده وأطفالهم، وإلى جانب كل هذا كيف سيعرف كيفية موتها.. يمكننا أن نقول إن ثعبانا لدغها، نحن جميعا معا في هذا الأمر أليس كذلك؟ قال "**ياموس**" ببطء:

– سيعرف أبي فستخبره "**هينيت**". وضحكت "**ساتيبي**" بهستيريا:

– أيها الرجل الحذر جداً "**ياموس**"، "**ياموس**" الرقيق الحذر، كان يجب أن ترعى الأطفال وتقوم بأعمال المرأة في مؤخرة المنزل. فليساعدني "**تكمت**" إنني متزوجة بزوج ليس برجل، وأنت يا "**سوبك**" بكل كلامك أين شجاعتك وعنادك؟ إنني أقسم بـ"**رمح**" أني أشد رجولة منكما أنتما الاثنين. واستدارت وخرجت، وتقدمت "**كيت**" –التي كانت تقف خلفها– خطوة إلى الأمام، وقالت بصوت عميق مهزوز:

– إن ما تقوله حق، إنها أكثر رجولة منكم. "**ياموس**"، "**سوبك**"، "**إيبي**" –هل ستجلسون هنا ولا تفعلون شيئا؟ ماذا عن أولادنا يا "**سوبك**"؟ يطردون ليجوعوا؟ حسن جداً إذا لم تفعلوا أنتم شيئا سأفعل أنا. ليس بينكم رجل. وحينما خرجت بدورها قفز "**سوبك**" واقفا وهتف:

– بحق الآلهة التسعة في "**الأينيد**" إن "**كيت**" على حق.. هذا عمل رجل يجب القيام به.. ونحن نجلس هنا نتكلم ونهز رؤوسنا. ومشى بخطوات سريعة نحو الباب. هتف "**حوري**" من ورائه:

– "**سوبك**" أين ستذهب..؟ ماذا ستفعل؟ وهتف "**سوبك**" من عتبة الباب وهو يبدو وسيما وشرسا:

– سأفعل شيئا ما.. هذا أكيد وسأستمتع بما أفعله.

الفصل التاسع

خرجت "**رينسنب**" إلى الشرفة، ووقفت هناك برهة وهي تحمي عينيها من الضوء الشديد المفاجئ. كانت تشعر بالغثيان وترتعد خوفا من أمر خفي، وكانت تردد لنفسها بطريقة آلية: «يجب أن أحذر "**نوفريت**".. يجب أن أحذرها». وكانت تسمع خلفها من داخل المنزل أصوات الرجال: أصوات "**حوري**" و"**ياموس**" مختلطة وفوقها صوت "**إيبي**" الصبياني واضحا.

– "**ساتيبي**" و"**كيت**" على حق. لا يوجد رجال في هذه الأسرة، ولكني أنا رجل.. نعم أنا رجل، بشعوري وفي جوهري وإن لم يكن سني كبيرا، لقد تهكمت "**نوفريت**" عليّ وهزأت مني وعاملتني كطفل. سأريها أنني لست طفلا. أنا لست خائفا من غضب أبي فأنا أعرفه، لقد سحرت له هذه المرأة وسحرته، ولو قُضي عليها لرجع حبه لي.. لي أنا، أنا الابن الذي يحبه أكثر من أي من أبنائه. إنكم تعاملونني جميعا كطفل.. ولكنكم سترون. نعم سترون. وهرع خارجا واصطدم بـ"**رينسنب**" وكاد أن يوقعها على الأرض وأمسكت به من كمه:

– "**إيبي**"، "**إيبي**" أين ستذهب؟

– سأبحث عن "**نوفريت**" وسترى إذا كان بإمكانها أن تهزأ بي.

– انتظر قليلا فيجب أن تهدأ. لا يجب أن يفعل أي منا شيئا بتهور.

– تهور؟... وضحك الولد بازدراء:

– أنت مثل "**ياموس**". حذر وحريص. لا يجب أن يفعل شيئا بسرعة. إن "**ياموس**" امرأة عجوز و"**سوبك**" مجرد ثرثار متباه، دعيني يا "**رينسنب**"... وجذب كم ثوبه اللينون من قبضتها..

– "**نوفريت**"، أين "**نوفريت**"؟ وغمغمت "**هينيت**" التي كانت قد جاءت توا من المنزل وهي تفتعل ضجة:

– آه يا أعزائي هذا شيء سيئ... شيء سيئ جدًا. ماذا سيحدث لنا جميعا؟ ماذا عسى كانت تقول سيدتي العزيزة المرحومة؟

– أين "**نوفريت**" يا "**هينيت**"؟ وهتفت "**رينسنب**":

– لا تخبريه... ولكن "**هينيت**" كانت قد أجابت:

– لقد خرجت من الباب الخلفي وذهبت نحو حقول الكتان. وهرع "**إيبي**" إلى داخل المنزل، وقالت "**رينسنب**" معاتبة:

– ما كان يجب أن تخبريه يا "**هينيت**".

– إنك لا تثقين بـ"**هينيت**" العجوز. أنتم لا تثقون بي أبدا... ووضحت النبرة الشاكية في صوتها أكثر وأكثر:

– ولكن "**هينيت**" العجوز المسكينة تعرف ما تفعله. إن الفتى يحتاج إلى بعض الوقت لتهدأ ثورته وهو لن يجد "**نوفريت**" في حقول الكتان –وابتسمت– إن

"**نوفريت**" هنا في الكوخ مع "**كاماني**" .. وأومأت برأسها عبر الفناء ثم أضافت وهي تضغط على الكلمات بما يبدو أنه ضغط غير مناسب:

– مع "**كاماني**". ولكن "**رينسنب**" كانت قد بدأت تعبر الفناء. جاءت "**تيتي**" تجري من البحيرة نحو والدتها، ورفعتها "**رينسنب**" بين ذراعيها واحتضنتها، وشعرت وهي تحتضن الطفلة بالقوة التي تدفع "**ساتيبي**" و"**كيت**". إن هاتين المرأتين تحاربان من أجل أطفالهما، وأطلقت "**تيتي**" صرخة صغيرة:

– لا تمسكي بي بهذه الشدة يا أمي إنك تؤلمينني. وأنزلت "**رينسنب**" الطفلة، وذهبت ببطء عبر الفناء في الجانب الآخر من الكوخ وكانت "**نوفريت**" و"**كاماني**" يقفان سويا واستدارا عندما اقتربت "**رينسنب**". تكلمت "**رينسنب**" بسرعة وهي تلتقط انفاسها:

– "**نوفريت**" .. لقد جئت لأحذرك.. يجب أن تأخذي حذرك.. يجب أن تحترسي لنفسك.. وبدت نظرة هازئة على وجه "**نوفريت**":

– إذن فالكلاب تنبح؟

– إنهم غاضبون جداً... إنهم سيؤذونك. وهزت "**نوفريت**" رأسها وقالت بثقة تامة:

– لا يستطيع أحد أن يؤذيني. ولو حدث هذا فسيبلغ الأمر أباك وسينتقم، وسيدركون هذا عندما يفكرون في الأمر، وضحكت:

– كم كانوا أغبياء بإهانتهم الحقيرة واضطهادهم لي، كانوا يلعبون كما أريد طوال الوقت. قالت "**رينسنب**" ببطء:

– إذن فأنت قد خططت لهذا طوال الوقت؟ وأنا التي كنت آسفة من أجلك، أنا التي اعتقدت أننا غير كرماء، أنا غير آسفة.. إني اعتقد يا "**نوفريت**" أنك شريرة وعندما ياتي وقت الحساب في يوم الحساب، لن يكون في مقدورك أن تقولي: «لم أفعل شرا» ولا أن تقولي: «أنا لم أكن جشعة»، وسيكون ميزان قلبك الذي يوزن أمام ريشة الحق ثقيلا. قالت "**نوفريت**" بعبوس:

– انت متدينة جداً على حين فجأة، ولكنني لم أُؤذِكِ يا "**رينسنب**" ولم أقل شيئا ضدك.. سلي "**كاماني**" اليس هذا حقا؟ ثم مضت فعبرت الفناء وصعدت السلم إلى الشرفة، وجاءت "**هينيت**" لملاقاتها، ودخلت المرأتان إلى المنزل. واستدارت

"رينسنب" ببطء نحو "**كاماني**".

– إذن أنت يا "**كاماني**" الذي ساعدتها على أن تفعل بنا هذا. قال "**كاماني**" منفعلا:

– هل أنت غاضبة مني جداً يا "**رينسنب**"؟ ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ قالت "**رينسنب**" ببطء:

– أنا لا أستطيع أن ألومك فقد كان عليك على ما أظن أن تطيع أوامر أبي.

– إنني لم أكن راضيا عما فعلته، وإنها لحقيقة يا "**رينسنب**" إنه لم تكن هناك كلمة واحدة ضدك.

– هذا لا يهمني.

– ولكنه يهمني أنا، فمهما كانت "**نوفريت**" قد قالت لي، ما كنت سأكتب كلمة تؤذيك أنت يا "**رينسنب**" أرجوك صدقيني. هزت "**رينسنب**" رأسها حائرة فإن النقطة التي كان "**كاماني**" يجاهد لإبرازها بدت غير ذات أهمية لها. كانت تشعر بالغضب، وجرح شعورها كما لو أن "**كاماني**" بطريقة ما قد خيب ظنها فيه، ومع ذلك فهو غريب، ولو أنه يمت إليهم بصلة قرابة، لكنه مع كلٍّ غريب أتى به والدها من مكان بعيد من الريف. إنه كاتب صغير عهد إليه بمهمة من مخدومه ونفذها مطيعا. ردد "**كاماني**" في إصرار:

– أنا لم أكتب إلا الحقيقة. لم تكن هناك أية أكاذيب في الرسالة إنني أقسم لك بذلك. قالت "**رينسنب**":

– لا.. إن "**نوفريت**" أذكى من أن تبعث بأكاذيب في الرسالة. إن "**أسا**" العجوز كانت على حق. إن هذا الاضطهاد الذي كان يسر "**ساتيبي**" و"**كيت**" كان بالضبط هو ما تريده "**نوفريت**"، فلا عجب من أنها كانت تبتسم طوال الوقت؛ ابتسامتها التي تشبه ابتسامة القطط. قالت "**رينسنب**" وهي تتابع أفكارها:

– إنها شريرة نعم.. ووافقها "**كاماني**":

– إنها امرأة شريرة. واستدارت "**رينسنب**" ونظرت إليه بفضول:

- إنك كنت تعرفها قبل أن تأتي إلى هنا أليس كذلك؟ إنك كنت تعرفها في "**ممفيس**"؟ واحمر وجه "**كاماني**" وبدا عليه الارتباك.

– لم أكن لأعرفها جيدا.. كنت قد سمعت عنها. يقال إنها فتاة قاسية وطموحة

ولا تغتفر. أمالت "**رينسنب**" رأسها إلى الوراء بصبر نافد فجأة وقالت :

– أنا لا أصدق هذا. إن أبي لن يفعل ما يهدد به. إنه غاضب الآن، ولكنه لا يمكن أن يكون ظالما إلى هذا الحد. سيعفو عندما يعود. قال "**كاماني**" :

– "**نوفريت**" ستحرص على الا يغير رأيه عند عودته. إنك لا تعرفين "**نوفريت**" يا "**رينسنب**" إنها ذكية جداً وعنيدة، وهي –تذكَّري– جميلة جداً. وأقرت "**رينسنب**" :

– نعم إنها جميلة. وتنهدت فلسبب ما آلمتها فكرة جمال "**نوفريت**" .

-2-

أمضت "**رينسنب**" بعد الظهر في اللعب مع الأطفال، وقلَّ الألم المبهم الذي كان في قلبها وهي تشاركهم لعبهم، وقبل غروب الشمس بقليل انتصبت واقفة وأصلحت من شعرها وثوبها اللذين كانا قد فقدا ترتيبهما، وتساءلت عرضا: «لماذا لم تخرج "**ساتيبي**" و"**كيت**" إلى الحديقة كالمعتاد؟» كان "**كاماني**" قد غادر الحوش منذ وقت طويل، ومضت "**رينسنب**" ببطء نحو المنزل. لم يكن أحد موجودا في حجرة الجلوس، ومضت نحو مؤخرة المنزل وجناح النساء. كانت "**أسا**" نصف نائمة في ركن من الحجرة وكانت جاريتها الصغيرة تضع علامات على الملاءات، وفي المطبخ كانوا يخبزون خبزا مثلث الشكل، ولم يكن أحد موجودا خلاف هؤلاء في المنزل. شعرت "**رينسنب**" شعورا غريبا بالفراغ. أين ذهب الجميع؟ "**حوري**" على الأرجح ذهب إلى المقبرة، وقد يكون "**ياموس**" معه أو في الحقول. "**سوبك**" و"**إيبي**" يرقبان الماشية أو يلاحظان القمح، ولكن أين "**ساتيبي**" و"**كيت**" وأين.. نعم.. أين "**نوفريت**"؟ كانت رائحة عطور "**نوفريت**" القوية تملأ غرفتها، ووقفت "**رينسنب**" على عتبة الباب تحدق إلى المنضدة الخشبية الصغيرة، وصندوق الجواهر وعدد من الأساور وخاتم فيه جعران أزرق زاه. عطور ودهون وملابس وصنادل. كلها أشياء تتحدث عن صاحبتها، عن "**نوفريت**" الغريبة العدوة التي تعيش وسطهم. وتساءلت "**رينسنب**" :

– أين "**نوفريت**"؟ ومضت ببطء نحو مؤخرة المنزل وقابلت "**هينيت**" وهي تدخل من الباب الخلفي.

– أين الجميع يا "**هينيت**"؟ إن المنزل خال من الكل ماعدا جدتي.

– وأنَّى لي ان اعرف يا "**رينسنب**"؟ لقد كنت أعمل. أساعد على الغزل وأراقب الف شيء.. إني لا وقت عندي للتنزه. وفكرت "**رينسنب**": «هذا يعني أن هناك من ذهب للنزهة. ربما ذهبت "**ساتيبي**" وراء "**ياموس**" حتى المقبرة لتشاحنه أكثر «ولكن أين "**كيت**"؟ ليس من عادتها أن تبتعد عن أطفالها لفترة طويلة». ومرة أخرى ساورتها الفكرة الخفية: "أين "**نوفريت**"؟" وكما لو أن "**هينيت**" قرأت افكارها جاوبت كمن ترد عليها:

– اما عن "**نوفريت**" فقد ذهبت منذ وقت طويل إلى المقبرة. آه حسنا إنَّ "**حوري**" كفء لها. وضحكت "**هينيت**" بغلٍ وهي تقول:

– إن "**حوري**" ذكي أيضا. واقتربت من "**رينسنب**":

– اتمنى ان تعرفي يا "**رينسنب**" كم أنا تعسة مما حدث. أتعرفين لقد جاءت إليَّ في ذلك اليوم، وعلى وجنتيها آثار يد "**كيت**" والدم يسيل من وجهها، وأجبرت "**كاماني**" على أن يكتب وأجبرتني على أن أقول ما رأيته، وبالطبع لم يكن في وسعي أن أقول إني لم أر هذا، آه إنها ذكية وكنت افكر طوال الوقت في والدتك العزيزة. تركتها "**رينسنب**" ومضت إلى الخارج في أشعة شمس العصر المحرقة. كانت هناك ظلال داكنة على التلال وبدا العالم أجمع خياليا غريب الشكل في ساعة الغروب هذه. وأسرعت خطى "**رينسنب**" وهي تتخذ طريقها إلى الطريق المؤدي إلى الجبل لتصعد إلى المقبرة وستجد "**حوري**" هناك. أجل ستجد "**حوري**"، فإن هذا كان ما تفعله وهي صغيرة عندما تكسر إحدى لعبها، أو عندما تكون خائفة أو مرتبكة. إن "**حوري**" مثل الجبال، ثابت لا يتحول ولا يغيره شيء. فكرت "**رينسنب**" باضطراب: "سيكون كل شيء على ما يرام عندما أصل إلى "**حوري**"..» وأسرعت، كانت تجري تقريبا. ثم فجأة رأت "**ساتيبي**" آتية نحوها. إن "**ساتيبي**" أيضا قد صعدت إلى المقبرة. كم تبدو الطريقة التي تسير بها "**ساتيبي**" غريبة تتمايل من ناحية إلى أخرى وتتعثر كما لو كانت لا ترى ما أمامها. وعندما رأت "**ساتيبي**" "**رينسنب**" توقفت ووضعت يدها على صدرها، وأجفلت "**رينسنب**" حينما اقتربت ورأت وجه "**ساتيبي**":

– ما بك يا "**ساتيبي**"؟ هل انت مريضة؟ وأجابت "**ساتيبي**" بصوت مثل نعيب

الغراب وعيناها تتحركان من ناحية لأخرى:

– كلا.. كلا.. بالطبع لا.

– إنك تبدين مريضة ويبدو عليك الخوف. ماذا حدث؟

– ماذا كان يجب أن يحدث؟ لا شيء بالطبع.

– أين كنت؟

– صعدت إلى المقبرة، لأرى "**ياموس**" ولم يكن هناك. لم يكن هناك أحد. كانت "**رينسنب**" ما تزال تحدق إلى "**ساتيبي**". إن "**ساتيبي**" هذه جديدة عليها. "**ساتيبي**" قد استُنزِفت منها كل شجاعتها وحزمها.

– هيا يا "**رينسنب**". ارجعي إلى المنزل. ووضعت "**ساتيبي**" يدها التي ترتعش قليلا على ذراع "**رينسنب**" وهي تحثها على الرجوع، وشعرت "**رينسنب**" عندما لمستها "**ساتيبي**"، بثورة مفاجئة.

– لا.. إني صاعدة إلى المقبرة.

– أقول لك إنه لا يوجد أحد هناك.

– أحب أن أجلس هناك وأنظر إلى النهر.

– لكن الشمس تغرب. لقد تأخر الوقت. وأمسكت أصابع "**ساتيبي**" بشدة بذراع "**رينسنب**"، وشدت "**رينسنب**" ذراعها بقوة وأفلتت من قبضة "**ساتيبي**".

– لا تمسكي بي هكذا، دعيني أذهب يا "**ساتيبي**".

– لا، عودي، عودي معي. ولكن "**رينسنب**" كانت قد أفلتت منها ومضت متخطية إياها في طريقها إلى الجبل. هناك أمر ما، إن غريزتها تقول لها هذا.. وأسرعت خطاها حتى أصبحت تجري. ثم رأتها.. الكومة الداكنة الراقدة في ظل الجبل.. وأسرعت حتى وقفت بجانبها، لم تدهش لما رأته، كما لو أنها كانت تتوقعه. كانت "**نوفريت**" ممددة ووجهها إلى أعلى وقد تحطم جسدها والتوى وكانت عيناها مفتوحتين دون حياة. انحنت "**رينسنب**" ولمست الوجنة الباردة ثم انتصبت مرة أخرى ووقفت تنظر إليها ولم تسمع "**ساتيبي**" وقد صارت خلفها. كانت "**ساتيبي**" تقول:

– لابد من أنها سقطت، إنها سقطت ووقعت لقد كانت تمشي على حافة الجبل ووقعت. وفكرت "**رينسنب**": "نعم إن هذا هو ما حدث. لقد سقطت "**نوفريت**"

من درب الجبل وقد ارتطم جسدها بالصخور الجيرية ». استطردت "**ساتيبي**" :

– من الجائز أنها رأت ثعبانا وأجفلت. هناك ثعابين تنام في الشمس في هذا الطريق في بعض الأحيان. « ثعابين. نعم ثعابين "**سوبك**" والثعبان. ثعبان وقد تحطم ظهره ملقى ميتا في الشمس.. "**سوبك**" وعيناه تلمعان. فكرت "**رينسنب**" : "**سوبك**" .. "**نوفريت**" .. » ثم جاءتها المعونة فجأة عندما سمعت صوت "**حوري**" :

– ماذا حدث؟ واستدارت بارتياح.. لقد جاء "**ياموس**" و"**حوري**" معا وكانت "**ساتيبي**" تشرح بحماس أن "**نوفريت**" لابد من أن تكون قد وقعت من أعلى الطريق. قال "**ياموس**" :

– لابد أنها صعدت لتقابلنا ولكن "**حوري**" وأنا كنا نفتش على قنوات الرى. لقد تغيبنا ساعة على الأقل ورأيناكما واقفتين هنا ونحن عائدان... وقالت "**رينسنب**" وقد أدهشها صوتهما الغريب :

– أين "**سوبك**"؟ وشعرت بـ"**حوري**" وهو يدير رأسه بحدة عند سماعه لهذا السؤال. وبدا من صوت "**ياموس**" أنه في حيرة حينما قال :

– "**سوبك**"؟ لم أره طوال بعد الظهر بعد أن تركنا في المنزل وهو غاضب. ولكن "**حوري**" كان ينظر إلى "**رينسنب**"، ورفعت عينيها وقابلت عينيه ورأته يحول نظرته عنها وينظر مفكرا إلى أسفل نحو جسد "**نوفريت**" وأدركت بالضبط ما يفكر فيه. ثم تمتم متسائلا :

– "**سوبك**"؟ وسمعت "**رينسنب**" نفسها وهي تقول :

– آه.. كلا.. آه كلا.. كلا.. قالت "**ساتيبي**" بعجلة مرة أخرى :

– إنها وقعت من فوق الطريق الجبلي.. إنه ضيق في هذه المنطقة، وخطر.. فكرت "**رينسنب**" : « خطر؟ ما الذي قاله "**حوري**" لها مرة؟ حكاية عن "**سوبك**" إذ هاجم "**ياموس**" وهو طفل، وإن والدتها المتوفاة أبعدتهما عن بعض وقالت : لا يجب أن تفعل هذا يا "**سوبك**". إنه خطر.. "**سوبك**" يحب القتل. سأفعله، سأفعله بسرور... "**سوبك**" وهو يقتل الثعبان. "**سوبك**" يقابل "**نوفريت**" في هذا الطريق الضيق.. » وسمعت نفسها وهي تغمغم بارتباك :

– نحن لا نعرف، نحن لا نعرف. ثم سمعت بارتياح لا حد له وبشعور من أزيح عنه حمل ثقيل، صوت "**حوري**" الجاد وهو يؤيد ويزيد من قيمة تأكيدات "**ساتيبي**" :

– لابد من أنها سقطت من فوق الطريق الجبلي . . . وتقابلت عيناه مع عيني "**رينسنب**" وفكرت : "هو وأنا سنعرف . . سنعرف دائما . ." وسمعت صوتها يقول بارتعاش :

– لقد سقطت من الطريق الجبلي . . ومثل صدى أخير للنغم جاء صوت "**ياموس**" الرقيق :

– إنها لابد من أن تكون قد سقطت من فوق الطريق الجبلي .

الفصل العاشر

جلس "**أمحتوب**" في مواجهة "**أسا**" وقال متبرما :

– إنهم يروون جميعا نفس الرواية . قالت "**أسا**" :

– هذا على الأقل شيء مريح .

– مريح . . . مريح ؟ ما أغرب الكلمات التي تستعملينها . وضحكت "**أسا**" ضحكة قصيرة :

– أنا أعرف ما أقوله يا بني . قال "**أمحتوب**" بصوت ينذر بالسوء :

– هل يذكرون الحقيقة ؟ هذا ما علي أن أقرره . . .

– إنك لست الإله "**مات**" ولا تستطيع مثل "**عنابيس**" أن تزن القلب في الميزان .

– هل كان حادثا ؟ وهز "**أمحتوب**" رأسه كقاض . . إن عليَّ أن أتذكر أن إعلان نيَّاتي تجاه عائلتي الناكرة للجميل قد يكون أثار بعض الانفعالات .

– نعم بالفعل أثيرت الانفعالات ، وكانوا يصيحون في البهو الرئيسي لدرجة أنه كان في وسعي سماع ما يقال من غرفتي هنا ، وعلى فكرة هل كانت هذه هي نيَّاتك حقا ؟ وتململ "**أمحتوب**" بعدم ارتياح وهو يغمغم :

– كنت غاضبا وأنا أكتب . . وكنت على حق في غضبي كانت أسرتي تحتاج إلى درس قاس .

– بمعنى آخر كنت تنوي مجرد إخافتهم . أليس كذلك ؟

– هل هذا يهم الآن يا أمي العزيزة ؟

– إنني أرى أنك لم تكن لتعرف ما تنوي أن تفعله . تفكير مشوش كالمعتاد .

وتحكم "**أمحتوب**" بجهد في انفعاله:

– إن ما اعنيه ببساطة هو أن هذه النقطة لم يعد لبحثها مجال. إن ما هو محل بحث الآن هو ظروف موت "**نوفريت**". فلو أقتنعت بأن أي فرد من أسرتي يمكن أن يكون غير مخلص وغير متزن في غضبه لدرجة أن يؤذي جزافا الفتاة: أنا، أنا لا أعرف حقيقة ما أفعله في هذه الحالة.

– لذلك فإنه من حسن الحظ أنهم جميعا يروون نفس الرواية. لم يلمح أحد إلى شيء، أليس كذلك؟

– بالتأكيد لا.

– إذن لماذا لا تعتبر الحادث منتهيا؟ كان يجب أن تأخذ الفتاة معك إلى الشمال.. لقد قلت هذا في ذلك الوقت.

– إذن فانت تعتقدين. قالت "**أسا**" وهي تشدد على كلماتها للتأكيد:

– أنا أصدق ما يقال لي ما لم يتعارض مع ما رأيته بعيني، وهذا يحدث قليلا جداً الآن، أو سمعته باذني. أنت استجوبت "**هينيت**" على ما أظن. ما الذي قالته عن هذا الموضوع؟

– إنها حزينة جداً، إنها مغمومة جداً من أجلي. ورفعت "**أسا**" حاجبيها:

– أحقا؟! أنت تدهشني. قال "**أمحتوب**" بحماس:

– إن لـ"**هينيت**" قلبًا كبيراً.

– بالضبط ولها أيضا لسان أطول من المعتاد، لو كان رد فعلها الوحيد هو الحزن على فجيعتك فإنني بالتأكيد لو كنت في مكانك فسأنظر للموضوع على أنه قد انتهى، وهناك أمور أخرى عديدة تسترعي انتباهك.

– نعم بالفعل... ونهض "**أمحتوب**" وقد استعاد أسلوبه الصاخب المهم:

– "**ياموس**" ينتظرني الآن في البهو الرئيسي، ولديه كثير من الأمور المتنوعة التي تتطلب عنايتي العاجلة، وهناك قرارات عديدة تنتظر موافقتي عليها، وكما تقولين فإن الحزن الشخصي لا يصح أن يحل محل الوظائف الرئيسية للحياة. وهرع خارجا. وابتسمت "**أسا**" لبرهة ابتسامة فيها شيء من التهكم، ثم ظهر الجد مرة أخرى على وجهها وتنهدت وهزت رأسها.

-2-

كان "**ياموس**" ومعه "**كاماني**" ينتظر أباه، وشرح لأبيه سبب غياب "**حوري**" الذي كان يشرف على عمل والحنوطيَّة الذين كانوا مشغولين في أول مراحل إعداد الجنازة. كان "**أمحتوب**" قد استغرق بضعة أسابيع في رحلته عائداً إلى منزله، بعد أن تلقى نبأ موت "**نوفريت**"، وكانت استعدادات الجنازة قد تمت الآن، فالجثمان قد نُقع الفترة الطويلة المطلوبة في محلول الماء المخصوص، وقد أعيد إلى شكله الأصلي وسُكب عليه الزيت ودُلك بالأملاح ولُف في لفائفه كما يجب ووضع في نعشه. وأوضح "**ياموس**" لأبيه أنه قد اختار لـ"**نوفريت**" حجرة صغيرة للدفن بجوار المقبرة الحجرية التي شيدت لتضم جثمان "**أمحتوب**" نفسه، ومضى يشرح بالتفصيل ما قد أمر به وأعرب "**أمحتوب**" عن موافقته على كل هذا. قال "**أمحتوب**" بحنو:

– خيرا ما فعلت يا "**ياموس**". يبدو أنك قد أظهرت رأيا سديدا جدا وأنك تصرفت بحكمة. واحمر وجه "**ياموس**" قليلا لهذا الإطراء غير المنتظر، ومضى "**أمحتوب**" يقول:

– إن "**إيبي**" و"**منتو**" هما بالطبع محنطان يكلفان الكثير فمثلا هذه الأوعية لحفظ الأحشاء تبدو لي غالية دون سبب، وليس هناك حاجة في الحقيقة إلى كل هذا الإسراف، ويبدو لي أن الكثير من قوائمهم غالية الثمن وهذا هو الحال مع الحنوطية الذين استخدمتهم عائلة الحاكم، فإنهم يعتقدون أن بإمكانهم طلب أية أسعار خيالية كما يشاءون. كان الأمر سيتكلف أقل بكثير لو استخدمنا أناسا آخرين غير مشهورين مثلهم. قال "**ياموس**":

– كان عليّ –في غيابك– أن أقرر هذه الأمور، وكنت مهتما بأن يُعطى كل الاحترام لمحظية تكن لها كل هذا الحب. وأومأ "**أمحتوب**" وربت كتف "**ياموس**".

– كانت هذه غلطة مباحة يا بني، فأنت كما أعرف عادة حريص جداً في الأمور المالية، وأنا أقدر أنك في هذا الموضوع قد أنفقت مبالغ بلا حاجة لكي تسعدني. ولكن مع كل فأنا لست غنيا جداً، والمحظية هي مجرد محظية. أعتقد أننا سنلغي الأحجبة الغالية، ودعني أرى هناك بعض الوسائل لتخفيض المصروفات.. اقرأ قائمة المصروفات يا "**كاماني**". وقلب "**كاماني**" الأوراق وتنهد "**ياموس**" بارتياح.

-3-

خرجت "**كيت**" ببطء من المنزل، وذهبت إلى البحيرة وتوقفت حيث كان الأطفال والأمهات. قالت "**كيت**":

- إنك كنت على حق يا "**ساتيبي**" فإن محظية على قيد الحياة ليست كمحظية ميتة، ونظرت إليها "**ساتيبي**" بعين لا ترى، وكانت "**رينسنب**" هي التي سألت بسرعة:

- ماذا تعنين يا "**كيت**"؟

- لم يكن هناك شيء يغلو على المحظية الحية.. الملابس والجواهر.. وحتى إرث "**أمحتوب**" وحرمان من هم من لحمه ودمه منه، ولكن "**أمحتوب**" الآن مشغول بإنقاص نفقات الجنازة، وعلى كل حال فلماذا يصرف نقوده على امرأة ميتة؟ نعم يا "**ساتيبي**" كنت على صواب. وتمتمت "**ساتيبي**":

- ماذا قلت؟ لقد نسيت.. ووافقتها "**كيت**":

- نعم هذا أفضل. أنا أيضا نسيت وكذلك "**رينسنب**". نظرت "**رينسنب**" إلى "**كيت**" دون أن تتكلم. كان هناك شيء ما في صوت "**كيت**"، شيء فيه قليل من التهديد لم يعجب "**رينسنب**". كانت معتادة دائما أن تفكر في "**كيت**" كامرأة غبية نوعا، امرأة رقيقة ومطيعة ولكن كمية مهملة نوعا. وصدمت الآن بأن "**كيت**" و"**ساتيبي**" بدتا كمن تبادلتا شخصيتيهما، فـ"**ساتيبي**" المسيطرة المشاكسة أصبحت مذعنة بل وتقريبا جبانة، و"**كيت**" الهادئة تبدو الآن مسيطرة على "**ساتيبي**". وفكرت "**رينسنب**": "ولكن الناس لا يغيرون شخصياتهم حقًّا، أم هل يغيرونها؟" وشعرت بحيرة: "هل تغيرت "**كيت**" و"**ساتيبي**" حقًّا في الأسابيع القليلة الماضية، أم هل التغيير الذي طرأ على واحدة هو نتيجة لتغير الأخرى؟ هل هي "**كيت**" التي أصبحت مشاكسة؟ أم هل تبدو هكذا بسبب انهيار "**ساتيبي**" المفاجئ؟ إن "**ساتيبي**" قطعًا متغيرة، فصوتها لم يعد يرتفع بنبراته الحادة المألوفة، وأصبحت تمشي في الفناء وفي البيت بطريقة عصبية ومنكمشة لا تشبه في شيء طريقتها العادية المعتدة وكانت "**رينسنب**" قد نسبت هذا التغير إلى صدمة موت "**نوفريت**"، ولكن ما لا يصدق أن تدوم تلك الصدمة هذه المدة الطويلة. ولم تتمالك "**رينسنب**" نفسها من التفكير إنه كان من الأقرب لطبيعة "**ساتيبي**" أن

تكون قد ابتهجت -دون مواربة كامر واقعي- لموت المحظية المفاجئ، ولكن على العكس من هذا كانت تنكمش بعصبية كلما ذكر اسم "**نوفريت**". وحتى "**ياموس**" أعفي من سيطرتها وشجارها، وبدأ نتيجة لذلك في اتخاذ سلوك أكثر حزما، وعلى أي حال فإن التغيير الذي حدث لـ"**ساتيبي**" كان تغيرا حسنا.. أو هكذا على الأقل ما تظنه "**رينسنب**" ولكن كان هناك مع ذلك شيء ما في هذا التغيير يجعلها غير مرتاحة.. وفجأة أجفلت "**رينسنب**" عندما أدركت أن "**كيت**" تنظر إليها عابسة، وأدركت أنها تنتظر كلمة موافقة على ما قالته. ورددت "**كيت**":

– إن "**رينسنب**" أيضا قد نسيت. وفجأة شعرت "**رينسنب**" بثورة من الغضب تغمرها. لن تملي عليها "**كيت**" أو "**ساتيبي**" أو أي شخص آخر ما يجب وما لا يجب أن تتذكره. وقابلت نظرة "**كيت**" بحزم وبنظرة واضحة من التحدي. قالت "**كيت**":

– إن نساء الدار يجب أن يقفن معا. واستطاعت "**رينسنب**" أن تتكلم أخيرا وقالت بوضوح وتحد:

– لماذا؟

– لأن مصالحهن واحدة. وهزت "**رينسنب**" رأسها بعنف وفكرت بارتباك: «أنا بجانب كوني امرأة إنسانة لي كياني المستقل.. إنني "**رينسنب**"». وقالت بصوت عال:

– ليس الأمر بهذه البساطة.

– هل تريدين إثارة المتاعب يا "**رينسنب**"؟

– كلا، على أي حال ماذا تعنين بالمتاعب؟

– إن كل شيء قيل في البهو الرئيسي في ذلك اليوم من الأفضل نسيانه. وضحكت "**رينسنب**" وقالت:

– أنت غبية يا "**كيت**" فإن الخدم والعبيد وجدتي وكل شخص سمعوا بالتأكيد، ولماذا ندعي أن أشياء لم تحدث بينما هي حدثت فعلا؟ قالت "**ساتيبي**" في صوت كئيب:

– كنا غاضبين، ولم نكن نعني ما نقوله... وأضافت بعصبية:

– كفي عن الحديث في هذا الموضوع يا "**كيت**". إذا كانت "**رينسنب**" تريد إثارة

المتاعب فدعيها تفعل. وقالت "**رينسنب**" باستنكار:

– أنا لا أريد إثارة متاعب ولكن من الغباء التظاهر بما ليس حقيقيا. قالت "**كيت**":

– لا.. إن من الحكمة أن نفعل هذا ويجب أن تراعي "**تيتي**".

– إن "**تيتي**" بخير.

– إن كل شيء بخير الآن وقد ماتت "**نوفريت**".. وابتسمت "**كيت**". كانت ابتسامة هادئة قانعة وصافية، ومرة أخرى شعرت "**رينسنب**" بموجة من الثورة تجتاحها، ومع ذلك فإن ما قالته حقيقي، فإنه الآن –وقد ماتت "**نوفريت**" –أصبح كل شيء على ما يرام، فإن "**ساتيبي**" و"**كيت**" وهي والأطفال أصبحوا آمنين، في سلام، ودون خوف من المستقبل. والدخيلة الغريبة التي كانت تهددهم وتقلقهم قد رحلت إلى الأبد. إذن لماذا هذه المشاعر الثائرة التي لا تفهمها بخصوص "**نوفريت**"؟ لماذا هذا الشعور بمناصرة الفتاة الميتة التي لم تكن لتحبها؟ كانت "**نوفريت**" شريرة وقد ماتت. الا يمكن أن يترك الأمر عند هذا الحد..؟ لم هذا الشعور المفاجئ بالرأفة، بل أكثر من الرأفة، بشيء يكاد يكون عطفا؟ وهزت "**رينسنب**" رأسها بحيرة وجلست هناك بجوار الماء –بعد أن دخل الآخرون المنزل– وهي تحاول بلا جدوى أن تفهم هذه الخواطر المربكة التي تدور في رأسها. كانت الشمس قد قاربت الغروب عندما رآها "**حوري**" وهو يعبر الفناء فجاء وجلس بجانبها.

– إن الوقت متأخر يا "**رينسنب**". الشمس تغرب، من الأفضل أن تدخلي. وكان لصوته الهادئ الرزين وقع مسكن لها كدأبه وتحولت إليه بسؤال:

– أيجب أن تتحد النساء اللاتي في بيت واحد؟

– من قال لك هذا يا "**رينسنب**"؟

– "**كيت**" هي و"**ساتيبي**"... وتوقفت عن الكلام.

– وأنت... تريدين أن تستقلي بتفكيرك؟

– آه أفكر. أنا لا أعرف كيف أفكر يا "**حوري**".. إن كل شيء مرتبك في رأسي. الناس مربكون، الجميع مختلفون عما كنت أعتقد. كنت دائما أعتقد أن "**ساتيبي**" جسورة وحازمة ومسيطرة، ولكنها الآن ضعيفة ومتذبذبة وحتى خجولة. إذن ماذا تكون "**ساتيبي**" الحقيقية؟ إن الناس لا يمكن أن يتغيروا هكذا في يوم واحد.

– لا . . ليس في يوم.

– و"**كيت**" . . وهي التي كانت دائما مستسلمة وديعة تترك الجميع يسيرونها . . الآن تسيطر علينا جميعا حتى "**سوبك**" يبدو خائفا منها. وحتى "**ياموس**" أصبح مختلفا إنه يصدر الأوامر وينتظر أن تطاع.

– وكل هذا يحيرك يا "**رينسنب**"؟

– نعم. لأني لا أفهم. إنني أشعر في بعض الأحيان بأنه حتى "**هينيت**" ممكن أن تكون مختلفة تماما عما تبدو. وضحكت "**رينسنب**" كما لو كان هذا شيئا غير معقول، ولكن "**حوري**" لم يشاركها الضحك وظل وجهه جادا ومفكرا:

– إنك لم تفكري كثيرا في الناس قبل ذلك يا "**رينسنب**"؟ فلو كنت فكرت لكنت أدركت. وتوقف ثم مضى يقول:

– أنت تعرفين أنه يوجد دائما باب وهمي في كل المقابر؟ وحدجته "**رينسنب**" :

– نعم بالطبع.

– حسنا هكذا الناس أيضا. إنهم يخلقون بابا وهميا للتمويه. لو شعروا بضعف أو بعدم كفاءة فإنهم يقيمون بابا مهيبا من الثقة بالنفس والغلو والتعالي الشامل، ويدور الزمن ويبدؤون هم أنفسهم في تصديق هذا. ويعتقد الجميع أنهم حقا هكذا، ولكن خلف هذا الباب يا "**رينسنب**" مجرد حجر. . ولذلك عندما يمسهم الواقع بريشة من الصدق تظهر حقيقتهم، وبالنسبة إلى "**كيت**" فإن رقتها وخضوعها جلبا لها ما كانت تتمناه، زوجا وأولادا وكان الغباء يسهل حياتها، ولكن عندما هددها الواقع في صورة الخطر ظهرت على حقيقتها. إنها لم تتغير يا"**رينسنب**"، إن هذه القوة والقسوة كانتا كامنتين فيها دائما. قالت "**رينسنب**" بسذاجة:

– لكني لا أحب هذا يا "**حوري**" فإنه يخيفني. إن الجميع مختلفون عما كنت أظنهم، ولكن ماذا عن نفسي؟ إنني لم أتغير.

– أهذا صحيح؟ وابتسم لها وهو يقول:

– إذن لماذا جلست هنا كل هذه الساعات عابسة الجبين تفكرين وتتأملين؟ هل كانت "**رينسنب**" السابقة –"**رينسنب**" التي ذهبت مع "**فاي**"– تفعل هذا أبدا؟

– آه كلا. لم يكن هناك داع، وتوقفت.

– أترين؟ لقد قلتها بنفسك. هذا هو الواقع، فإنه لم يكن هناك داع إلى هذا في

ذلك الوقت. إن الحاجة تتطور بالمرء، وأنت لست الطفلة السعيدة التي لا تفكر كما كنت تبدين وتتقبلين الأمور كما تبدو. أنت لست مجرد امرأة من أهل البيت. أنت "**رينسنب**" التي تريد أن تستقل بتفكيرها والتي تتساءل عن الآخرين. قالت "**رينسنب**" ببطء:

– كنت اتساءل عن "**نوفريت**".

– تتساءلين عن ماذا؟

– كنت أتساءل لماذا لا أستطيع أن أنساها.. إنها كانت شريرة وقاسية وحاولت أن تؤذينا جميعا وقد ماتت، لماذا لا أترك الأمر عند هذا الحد؟

– هل تستطيعين أن تتركيه عند هذا الحد؟

– لا.. إني أحاول، ولكن.. وتوقفت ومسحت عينيها بحيرة:

– في بعض الأحيان أشعر بأني أعرف أمورا عن "**نوفريت**" يا "**حوري**".

– ماذا تعنين؟

– لا أستطيع أن أوضح ولكن ..بين الحين والآخر أشعر بهذا.. كما لو كانت هنا بجانبي. إني أشعر، أكاد أشعر... بأنني هي؛ ويبدو لي أني أدرك ما كانت تشعر به. لقد كانت تعسة جداً يا "**حوري**".. إني أعرف هذا الآن، ولو أنني كنت لا أعرفه في الماضي. كانت تريد أن تؤذينا كلنا؛ لأنها كانت تعسة جداً.

– لا يمكن أن تعرفي هذا يا "**رينسنب**".

– بالطبع لا يمكنني أن أعرفه ولكن هذا ما أشعر به. تلك التعاسة والمرارة والحقد الدفين، لقد رأيتها في وجهها مرة ولم أفهم، لابد أنها أحبت شخصا ثم حدث شيء ما، ربما مات أو رحل بعيدا، ولكن الأمر جعلها هكذا تريد أن تؤذي وتجرح.. آه. في وسعك أن تقول ما تشاء، ولكنني أعرف أنني على حق. لقد أصبحت محظية هذا الرجل العجوز، أبي، وجاءت إلى هنا ولم نحبها، وفكرت أن تتعسنا جميعا مثلها... نعم هكذا جرت الأمور. ونظر إليها "**حوري**" بفضول:

– كم تبدين واثقة يا "**رينسنب**" ومع ذلك فأنت لم تعرفي "**نوفريت**" جيدا.

– ولكنني أشعر بأن هذه هي الحقيقة يا "**حوري**". إنني أشعر بها – "**نوفريت**" – وفي بعض الأحيان أشعر بها قريبة جداً بجواري.

– أجل.. أجل.. وسادت بينهما فترة سكون. كان الظلام يكاد يحل. ثم قال

"**حوري**" بهدوء:

– إنك تعتقدين، اليس كذلك، ان "**نوفريت**" لم تمت نتيجة حادث؟ انت تعتقدين انها أُلقيت إلى أسفل؟ وشعرت "**رينسنب**" بنفور شديد لهذه الكلمات التي تعبر في الواقع عما يدور في ذهنها:

– لا. لا تقل هذا.

– ولكنني أعتقد يا "**رينسنب**" أنه من الأفضل ان نقوله، بما أنه يجول بخاطرك.. أتعتقدين هذا؟

– أنا؟ نعم. وأحنى "**حوري**" رأسه مفكرا ومضى يقول:

– وأنت تعتقدين ان "**سوبك**" هو الفاعل؟

– ومن يمكن أن يكون غيره؟ اتذكره مع الثعبان؟ اتذكر ما قاله في ذلك اليوم–يوم وفاتها– قبل أن يخرج من البهو الكبير؟

– نعم إنني أذكر ما قاله. لكن في معظم الأحيان ليس الذين يتكلمون كثيرا هم الذين يفعلون.

– لكن الا تعتقد أنها قتلت؟

– نعم أنا أعتقد هذا، ولكن هذا فضلا على كونه مجرد راي فليس عندي دليل عليه. ولا أعتقد أنه يمكن أن يوجد أبدا دليل. لهذا شجعت "**أمحتوب**" على تقبل الأمر كحادث. إن شخصا ما دفع "**نوفريت**"، ولن نعرف أبدا من هو.

– أتعني أنك لا تعتقد أنه كان "**سوبك**".

– أنا لا أعتقد هذا ولكن اقول لا يمكن أن نعرف أبدا؛ لذلك فمن الأفضل الا نفكر في هذا.

– ولكن إن لم يكن "**سوبك**" فمن تظنه يكون؟ وهز "**حوري**" رأسه:

– لو كانت لديَّ فكرة، فقد تكون خاطئة. لذلك فمن الأفضل الا اقولها..

– إذن لن نعرف أبدا. كان ثمة قنوط في صوت "**رينسنب**".

– ربما... وتردد "**حوري**":

– ربما كان هذا أفضل شيء.

– الأ نعرف؟

– الا نعرف. وارتعشت "**رينسنب**":

– ولكن إذا . . . آه "**حوري**" أنا خائفة.

الفصل الحادي عشر

انتهت المراسم وألقيت التعاويذ طبقا للواجب وأخذ "**منتو**" الكاهن المبجل من معبد "**هاتور**" المكنسة المصنوعة من الحشائش، وكنس بها بعناية الحجرة وهو يتلو الطلاسم؛ لإزالة آثار كل الأرواح الشريرة قبل أن يغلق باب المقبرة ويبرشمه إلى الأبد. ثم برشم الباب ووضع كل ما تبقى مما استعمله الحنوطية: أوعية مليئة بالقطران، ملح وأقمشة لامست الجثمان في حجرة مجاورة وبرشمت هذه الحجرة أيضا. وشد "**أمحتوب**" قامته وأخذ نفسا طويلا وتخلى عن مظهره الجنائزي، إن كل شيء تم بأفضل طريقة مناسبة، لقد دفنت "**نوفريت**" حسب الطقوس الدينية المقررة ولم تقتصد أي نفقات، فإن بعض النفقات لم يكن لها داع في رأي "**أمحتوب**". تبادل "**أمحتوب**" التحيات مع الكهنة، الذين بعد أن فرغوا من عملهم المقدس، عاودوا سلوكهم كرجال مجتمع. ونزل الجميع إلى المنزل حيث كانت تنتظرهم مرطبات مناسبة، وتناقش "**أمحتوب**" مع الكاهن المبجل في التغيرات السياسية الحديثة، إن "**طيبة**" كانت تتحول بسرعة إلى مدينة قوية جداً، وأصبح من الممكن أن تتحد "**مصر**" مرة أخرى تحت حكم واحد بعد فترة وجيزة، وربما يعود العهد الذهبي لباني الأهرامات. تكلم "**منتو**" باحترام مؤيدا الملك "**رع**" وهو جندي من الطراز الممتاز ورجل دين أيضا. إن الشمال الفاسد الجبان لن يستطيع أن يصمد أمامه، "**مصر**" الموحدة هذا ما تحتاج إليه البلاد، وسيعني هذا –بدون شك– شأنا عظيما لـ"**طيبة**"... وتكلم الرجال معا وتناقشوا في المستقبل. نظرت "**رينسنب**" خلفها إلى الجبل وغرفة المقبرة المغلقة وغمغمت:

– إذن هذه هي النهاية واجتاحها شعور بالراحة. لقد كانت تخشى شيئا لا تكاد تتبينه. اتهام أو انفجار في آخر دقيقة؟ ولكن كل شيء قد تم بهدوء ودفنت "**نوفريت**" كما يجب وفق كل الطقوس الدينية، تلك هي النهاية.. قالت "**هينيت**" بصوت منخفض:

– إنني آمل هذا، أنا بالتأكيد آمل هذا يا "**رينسنب**". واستدارت "**رينسنب**" نحوها:

– ماذا تعنين يا "**هينيت**"؟ وتحاشت "**هينيت**" نظراتها:

– إنما قلت إنني آمل أن هذه هي النهاية. في بعض الأحيان يكون ما تعتقدين أنه النهاية هو مجرد البداية. ولن يكون هذا طيبا أبدا. قالت "**رينسنب**" بغضب:

– ما الذي تتكلمين عنه يا "**هينيت**"؟ ما الذي تلمحين إليه؟

– أنا لا ألمح أبدا يا "**رينسنب**". أنا لا أقول شيئا من هذا القبيل إطلاقا. لقد دفنت "**نوفريت**" والكل راض ولذلك فإن كل شيء كما يجب.

– هل سألك أبي عما تعتقدينه بخصوص موت "**نوفريت**"؟

– نعم يا "**رينسنب**". كان مهتما جداً أن أقول له ما أعتقده بالضبط عن كل هذا.

– وماذا قلت له؟

– حسنا بالطبع قلت له "إني أعتقد أنها كانت حادثة، ولا يمكن أن يكون غير ذلك؟" قلت له "أنت نفسك لا تعتقد ولو لدقيقة أن أي فرد من أسرتك يؤذي الفتاة؟ إنهم لا يجرؤون على ذلك. إنهم يحترمونك جداً. قد يتذمرون ولكن لا يفعلون أكثر من هذا بوسعك أن تصدق ما يجري به لساني. لم يجر شيء من هذا القبيل". وأومأت "**هينيت**" وضحكت فقالت "رينسنب":

– وهل صدقك أبي؟ وأومأت "**هينيت**" مرة أخرى برضاء شديد:

– آه، إن أباك يعرف كم أنا متفانية في مصالحه، وهو دائما يصدق كلام "**هينيت**" العجوز في أي أمر، وهو يقدرني وإن لم يقدرني أحد منكم. آه حسنا إن في تفانيَّ لكم جميعا جزائي ولا أنتظر أي شكر. قالت "**رينسنب**":

– كنت أيضا متفانية لـ"**نوفريت**".

– لا أعرف من أين واتتك هذه الفكرة يا "**رينسنب**". كان عليّ أن أطيع الأوامر مثل الجميع.

– كانت تعتقد أنك متفانية لها. وضحكت "**هينيت**" مرة أخرى:

– إن "**نوفريت**" لم تكن ذكية كما كانت تظن نفسها. كانت فتاة متكبرة تعتقد أن الأرض ملكها. حسنا إن عليها إرضاء قضاء العالم الأسفل الآن، ولن ينقصها هناك وجه جميل، على أي حال لقد تخلصنا منها، وأضافت بصوت منخفض وهي تلمس أحد أحجبتها:

– على الأقل آمل هذا.

-2-

– "**رينسنب**" أريد أن أتحدث معك بخصوص "**ساتيبي**" .
– نعم يا "**ياموس**" . ونظرت "**رينسنب**" بود إلى وجه أخيها الرقيق البادي القلق.
قال "**ياموس**" ببطء وثقل:
– هناك شيء ليس على ما يرام بـ"**ساتيبي**" وأنا لا أفهمه.هزت "**رينسنب**" رأسها بحزن، لم تجد كلمات مطمئنة لتقولها. ومضى "**ياموس**" يقول:
– لقد لاحظت هذا التغير فيها منذ بعض الوقت. إنها تجفل وترتعش من أي صوت غير مألوف. وهي لا تأكل ما فيه الكفاية. إنها تمشي زاحفة، كما لو كانت خائفة من خيالها.. لابد من أنك لاحظت هذا يا "**رينسنب**" ؟
– نعم لقد لاحظناه جميعا.
– لقد سألتها إن كانت مريضة، وهل أبعث في طلب طبيب؛ ولكنها تقول ليس بها شيء وأن صحتها جيدة.
– أعرف.
– إذن لقد سألتها أنت أيضا؟ ولم تقل لك شيئا... لا شيء بالمرة. وضغط على الكلمات الأخيرة، وعطفت "**رينسنب**" عليه لقلقه، ولكن لم يكن لديها ما تقوله لتساعده.
– إنها مصممة على أنها بخير. وتمتم "**ياموس**" :
– إنها لا تنام جيدا ليلا وهي تبكي وهي نائمة، هل هي... هل يمكن أن يكون لديها شيء لا نعرفه يحزنها؟ وهزت "**رينسنب**" رأسها.
– لا أدري مِمَّ يكون هذا. فالأولاد على ما يرام ولم يحدث شيء هنا، إلا موت "**نوفريت**" بالطبع، وأضافت بجفاء:
– ولا أعتقد أن "**ساتيبي**" ستحزن من أجل هذا. ابتسم "**ياموس**" قائلا:
– لا أبدا بل بالعكس، وإلى جانب هذا فإن هذه الحالة بدأت منذ بعض الوقت. لقد بدأت كما أعتقد قبل موت "**نوفريت**" . كانت نبراته مترددة قليلا، ونظرت إليه "**رينسنب**" سريعا وقال "**ياموس**" بإصرار رقيق:

– قبل موت "**نوفريت**". الا تعتقدين هذا؟ قالت "**رينسنب**" ببطء:

– لم الاحظ هذا إلا بعد الوفاة.

– ولم تقل لك شيئا، أأنت متأكدة؟ وهزت "**رينسنب**" رأسها وقالت:

– ولكن أتعرف يا "**ياموس**" لا اعتقد أن "**ساتيبي**" مريضة. بل يبدو لي –أكثر من هذا– إنها خائفة. هتف "**ياموس**" بدهشة:

– خائفة؟ ولكن لماذا تخاف "**ساتيبي**"؟ ومن ماذا؟ إن "**ساتيبي**" كانت لديها دائما الشجاعة: شجاعة الأسد. قالت "**رينسنب**" وقد أسقط في يدها:

– أنا أعرف. كانت هذه فكرتنا جميعا عنها، ولكن الناس تتغير هذا أمر غريب.

– هل تعتقدين أن "**كيت**" تعرف شيئا ما؟ هل تكلمت "**ساتيبي**" معها؟

– الأرجح أن تتكلم معها بدلا من أن تتكلم معي، ولكني لا أعتقد هذا. بل في الواقع إني واثقة بما أقول.

– وما رأي "**كيت**"؟

– "**كيت**"؟ "**كيت**" لا تفكر أبدا في أي شيء. وكانت "**رينسنب**" تفكر: "كل ما فعلته "**كيت**" أنها استغلت وداعة "**ساتيبي**" غير العادية للاستيلاء لنفسها ولأولادها على أرقى الأقمشة المنسوجة، وهو أمر لم يكن لِيُسْمَحَ به لها قط لو كانت "**ساتيبي**" في حالتها الطبيعية، فالمنزل كان سيمتلئ في هذه الحالة بالمشاحنات الحامية"، وكان غريبًا أن "**ساتيبي**" قد سمحت بهذا دون كلمة معارضة وقد أثر هذا في "**رينسنب**" أكثر من أي شيء آخر. سألت "**رينسنب**":

– هل تحدثت مع "**أسا**"؟ إن جدتنا خبيرة بالنساء وبطرقهن. قال "**ياموس**" بامتعاضة خفيفة:

– إن "**أسا**" طلبت مني أن أكون شاكرا لهذا التغيير. وهي تقول إنه لا يمكن أن يأمل المرء في أن "**ساتيبي**" ستبقى طويلا لطيفة ومعتدلة لهذه الدرجة. قالت "**رينسنب**" ببعض التردد:

– هل سألت "**هينيت**"؟

– "**هينيت**"؟ وعبس "**ياموس**"، ثم قال:

– لا.. أنا بالطبع لا أتحدث مع "**هينيت**" في هذه الأمور. فإنها تتدخل فيما لا يعنيها وفوق ذلك فإن أبي يفسدها بتدليلها.

– آه أنا أعرف هذا. إنها متعبة جداً. ولكن "**هينيت**" في العادة تعرف أمورا كثيرة. قال "**ياموس**" ببطء:

– هل لك أن تسأليها أنت يا "**رينسنب**"؟ وأن تخبريني بما تقوله؟

– لو أردت. ثم سألتها "**رينسنب**" في وقت كانت هي و"**هينيت**" وحدهما وكانتا في طريقهما إلى مكان الغزل، وأدهشها أن سؤالها قد أزعج "**هينيت**" التي كان ينقصها شوقها المعتاد للقيل والقال. لمست "**هينيت**" تعويذة كانت تلبسها ونظرت خلفها.

– هذا شيء لا يعنيني بالتأكيد.. وليس لي أن الاحظ إذا كان شخص ما على طبيعته أم لا، أنا لا أتدخل في غير شؤوني ولو كانت هناك متاعب فإنني لا أريد أن أتورط فيها.

– متاعب؟ أي نوع من المتاعب؟ ألقت عليها "**هينيت**" نظرة جانبية سريعة. وقالت:

– ليس من أي نوع كما آمل، وعلى أي حال متاعب لا داعي إلى أن يكون لنا بها شأن فأنت وأنا يا "**رينسنب**" لا شيء نلوم أنفسنا عليه وهذه تعزية كبيرة لي.

– هل تعنين أن "**ساتيبي**"... ماذا تعنين؟

– أنا لا أعني شيئا يا "**رينسنب**"، وأرجوك ألا تقولي شيئا لم أقله. لستُ أكثر من خادمة في هذا المنزل، وليس من شأني إبداء الآراء في أمور لا تخصني. ولو سألتني رأيي لقلت إن هذا تغير إلى الأفضل، وإذا لم يتطور فإنه أحسن لنا جميعا. والآن عن إذنك يا "**رينسنب**" فإن عليَّ أن أتأكد أنهم يعلمون القماش بالتاريخ الصحيح فإن هؤلاء النساء مهملات، وهن يتكلمن ويضحكن دائما ويهملن عملهن. وراقبتها "**رينسنب**"، غير مقتنعة، وهي تهرع إلى المنزل، ثم مشت "**رينسنب**" ببطء راجعة إلى المنزل، ولم تسمعها "**ساتيبي**" عندما دخلت غرفتها، وقد أجفلت واستدارت صارخة عندما لمست "**رينسنب**" كتفيها.

– آه لقد أفزعتني. لقد ظننت..

– "**ساتيبي**".. ما الأمر؟ ألا تقولين لي؟ إن "**ياموس**" قلق من أجلك و..؟ وارتفعت يد "**ساتيبي**" بسرعة لشفتيها، وقالت وهي تتلعثم بعصبية وقد فتحت عينيها واسعتين وهي خائفة:

– "**ياموس**"؟ ماذا... ماذا قال؟

– إنه قلق. فانت تتكلمين وانت نائمة؟

– "**رينسنب**". وأمسكت "**ساتيبي**" ذراعها:

– هل قلت... ماذا قلت؟ كانت عيناها قد اتسعت من الرعب. واستطردت قائلة:

– هل يعتقد "**ياموس**"... ماذا قال لك؟

– إن كلانا يعتقد أنك مريضة.. أو... أو تعيسة.

– تعيسة؟ رددت "**ساتيبي**" الكلمة بطريقة غريبة وبصوت منخفض.

– هل أنت تعيسة يا "**ساتيبي**"؟

– ربما.. أنا لا أعرف. لا ليس هذا هو الحال.

– لا. إنك خائفة أليس كذلك؟ وحدجتها "**ساتيبي**" بعداء مفاجئ.

– لماذا تقولين هذا؟ لماذا أخاف؟ ماذا هناك ليخيفني؟

– أنا لا أعرف. لكن هذه هي الحقيقة أليس كذلك؟ واستردت "**ساتيبي**" بجهد طريقتها المتصنعة المتعجرفة القديمة وألقت برأسها إلى الوراء.

– أنا لست خائفة من أي شيء.. أو أي واحد. كيف تجرئين على الإيعاز لي بشيء من هذا القبيل يا "**رينسنب**"؟ إنني لا أسمح لك بالتحدث عني مع "**ياموس**". أنا و"**ياموس**" نفهم بعضنا. وتوقفت ثم قالت بحدة:

– "**نوفريت**" قد ماتت وتخلصنا منها. هذا ما أقوله وبوسعك أن تقولي لأي واحد يسالك أن هذا هو شعوري تجاه موتها. قالت "**رينسنب**" متسائلة:

– "**نوفريت**"؟ واشتاطت "**ساتيبي**" غضبا، وجعلها ذلك تبدو كما كانت من قبل:

– "**نوفريت**"، "**نوفريت**"، "**نوفريت**". إني سئمت سماع هذا الاسم. لا حاجة بنا في هذا المنزل إلى سماعه بعد الآن وشكرا للآلهة على ذلك. وانخفض فجأة صوتها الذي كان قد ارتفع عندما دخل "**ياموس**" الحجرة وقال بحزم غير عادي:

– خفضي صوتك يا "**ساتيبي**"، لو سمعك أبي لثارت متاعب جديدة. كيف يمكنك التصرف بهذه الرعونة؟ وكما كانت نبرات "**ياموس**" الحازمة المستاءة غير مألوفة، كذلك أيضا كانت وداعة "**ساتيبي**" المفاجئة وتمتمت:

– أنا آسفة يا "**ياموس**" . . لم أفكر.

– حسنا كوني حذرة أكثر في المستقبل. أنت و"**كيت**" أثرتما أكثر المتاعب في الماضي. فأنتن –يا معشر النساء– لا إدراك لكنَّ. تمتمت "**ساتيبي**" مرة أخرى:

– إني آسفة. وخرج "**ياموس**" وقد شد قامته وأصبحت خطاه أثبت مما كانت كما لو أن إثباته لسيطرته لمرة واحدة قد أفادته. ومضت "**رينسنب**" ببطء نحو غرفة "**أسا**" العجوز، وكانت تشعر بأنها ربما وجدت لديها مشورة مفيدة، ولكن "**أسا**" التي كانت حينئذ تأكل عنبا بشهية رفضت النظر إلى الموضوع بجدية.

– "**ساتيبي**"؟ "**ساتيبي**"؟ لمَ كل هذه الضجة حول "**ساتيبي**"؟ هل تحبون جميعا تعاليها عليكم والأوامر التي تصدرها لكم حتى تثيروا هذه الضجة لأنها تتصرف الآن بكياسة؟ ولفظت بذر العنب ثم أشارت قائلة:

– على أي حال هذا الوضع أفضل من أن يدوم، ما لم يستطع "**ياموس**" أن يجعله دائما.

– "**ياموس**"؟

– نعم وإنني آمل أن يكون "**ياموس**" قد ثاب إلى رشده أخيرا وضرب "**ساتيبي**" جيدا، فإن هذا هو ما تحتاج إليه، وهي من ذلك الطراز من النساء الذي يسوسه هذا على الأرجح. ولا ريب أن "**ياموس**" بطباعه الوديعة الذليلة كان محنة كبيرة لها. هتفت "**رينسنب**" محتجة:

– إن "**ياموس**" لطيف وهو طيب مع الجميع وفي مثل رقة النساء. وأضافت بارتياب:

– إذا كن رقيقات. وضحكت "**أسا**" لهذا القول الأخير وقالت:

– كلامك في محله يا حفيدتي. كلا ليست هناك أية رقة في النساء، أو لو كان هناك فلتساعدهن "**إيزيس**". ولا يوجد الكثير من النساء ممن يرغبن في زوج طيب ورقيق. بل إنهن يفضلن رجلا وسيما وفظا مثل "**سوبك**". فإن أمثاله تعجب بهم الفتيات، أو حتى فتى ذكيا مثل "**كاماني**" –هه يا "**رينسنب**"؟ إن له أيضا ذوقا جميلا في أغاني الحب هه؟ ها. ها. ها. شعرت "**رينسنب**" بوجنتيها تحمران وقالت بعزة نفس:

– إنني لا أفهم ماذا تعنين؟

– إنكم تظنون جميعا أن "أسا" العجوز لا تعلم ما يجري. لكنني أعرف جيدا، وحدقت إلى "**رينسنب**" بعينيها اللتين لا تكاد ترى بهما ومضت تقول:

– انا أعرف وربما قبل أن تعرفي أنت يا طفلتي. لا تغضبي فهذه سنة الحياة يا"**رينسنب**" . "**فاي**" كان زوجا طيبا؛ ولكنه الآن يبحر بقاربه في بحر القرابين. إن الزوجة ستجد زوجا يصطاد السمك في نهرنا، ولا يعني هذا أن "**كاماني**" سيكون صيادا ماهرا. فإن هوايته هي قلمه وورق البردي، ولكنه مع هذا شاب وجيه وله ذوق جميل في الأغاني، ومع كل فإني لست متأكدة انه الرجل الذي يصلح لك. إننا لا نعرف الكثير عنه فهو من الشمال.. إن "**أمحتوب**" راض عنه؛ ولكني كنت أعتقد دائما أن "**أمحتوب**" غر، وفي وسع أي واحد أن يتملقه ويخدعه بأن يمدحه، وعندنا "**هينيت**" مثلا. قالت "**رينسنب**" بعزة نفس:

– أنت مخطئة تماما.

– حسن جداًّ. إذن أنا مخطئة. إن أباك ليس غرا.

– ليس هذا ما أعنيه..

– أنا أعرف ما عنيته يا طفلتي، ولكنك لا تعرفين كم هو لطيف أن يجلس المرء مثلي مرتاحا وقد فرغ من أمور الزواج والحب والكره. ان يأكل وجبة شهية –بطة أو فرخة سمينة ثم فطيرة بالعسل وبعض الكرات أبو شوشة المطهو جيدا، وبعض الكرفس ويبلع كل هذا بكأس من الشراب السوري ولا يهتم بشيء في العالم. ينظر إلى كل الاضطرابات والأحزان ويعرف ان لا شيء من هذا يمسه. ان أرى ابني وهو يتصرف بغباء من أجل فتاة جميلة وأراها وهي تثير زوبعة في المكان كله، وبوسعي ان اقول لك إن هذا قد أضحكني. أتعرفين أني كنت بطريقة ما أحب هذه الفتاة، كانت شيطانة، تلك الطريقة التي كانت تجرحهم بها جميعا في الصميم. جعلت "**سوبك**" يبدو كالبالونة وخزت ونفست، و"**إيبي**" كطفل، و"**ياموس**" أخجلته بإظهاره زوجا تسيطر عليه زوجته. إنه كما يرى المرء نفسه في بركة من الماء. لقد جعلتهم يرون كيف يبدون للناس أجمعين. لكن لماذا كانت تكرهك أنت يا"**رينسنب**" ؟ أعطيني الجواب عن هذا؟ وتكلمت "**رينسنب**" بشك:

– هل كانت تكرهني؟ لقد... لقد حاولت مرة أن أصادقها.

– ولم تقبل هذه الصداقة؟ إنها كانت تكرهك بالتأكيد يا "**رينسنب**" . وصمتت

"**أسا**" ثم سألت بحدة:

– هل يمكن أن يكون هذا بسبب "**كاماني**"؟ وقالت "**أسا**" مفكرة:

– إنها هي و"**كاماني**" من الشمال، ولكن "**كاماني**" كان يراقبك أنت وأنت تعبرين الفناء. قالت "**رينسنب**" بجفاء:

– يجب أن أذهب لأعتني بـ"**تيتي**". ولاحقتها ضحكة "**أسا**" الرفيعة المتهكمة، وهرعت "**رينسنب**" ووجنتاها محمرتان عبر الفناء ثم نحو البحيرة وناداها "**كاماني**" من الشرفة:

– لقد ألفت أغنية جديدة يا "**رينسنب**" انتظري واسمعيها. وهزت رأسها ومضت مسرعة. كان قلبها يدق بغضب. "**كاماني**" و"**نوفريت**".. "**نوفريت**" و"**كاماني**"..! لماذا تترك "**أسا**" العجوز، بولعها الخبيث بالأذى، تضع هذه الأفكار في رأسها؟ ولماذا تهتم بهذا؟ على أي حال ماذا يهم؟ إنها لا تشعر باي شيء تجاه "**كاماني**" لا شيء بتاتا. إنه شاب وقح له صوت ضاحك وكتفان تذكرانها بـ"**فاي**". "**فاي**".. "**فاي**". ورددت اسمه بإصرار، ولكن في هذه المرة لم تظهر صورة "**فاي**" أمام عينيها. "**فاي**" أصبح في عالم آخر وفي الشرفة كان "**كاماني**" يغني برقة:

– سأقول لـ"**بتاح**" أعطني زوجتي الليلة..

-3-

– "**رينسنب**". كان "**حوري**" قد ردد اسمها مرتين قبل أن تسمعه وتتحول عن تأملها للنيل.

– كنت غارقة في أفكارك يا "**رينسنب**". فيم كنت تفكرين؟ قالت "**رينسنب**" بتحد مفاجئ:

– كنت أفكر في "**فاي**" ونظر إليها "**حوري**" لدقيقة أو دقيقتين ثم ابتسم قائلا:

– هكذا. وشعرت "**رينسنب**" بارتباك. إنه فعلا يدرك ما هنالك. وقالت باندفاع مفاجئ:

– ماذا يحدث عندما نموت؟ هل يعرف أحد حقيقة كل هذه الكتب؟ كل هذه الأشياء التي تكتب على الأكفان؟ إن بعضها غامض لدرجة أنه لا يعني شيئا بالمرة. نحن نعرف أن "**أوزوريس**" قد قتل وأن جسده قد أعيد مرة أخرى وأنه يلبس التاج

الأبيض ولذلك سيبعث من جديد، ولكن يا "**حوري**" في بعض الأحيان لا يبدو أي شيء من هذا حقيقيا . .وكل شيء مربك لدرجة . . وأومأ "**حوري**" برقة.

– ولكن الذي أود أن أعرفه حقيقة، هو ما يحدث بعد الموت.

– ليس بوسعي أن أقول لك يا "**رينسنب**" . فمن الأوفق أن تطرحي هذه الأسئلة على كاهن.

– إنه سيجيبني بالإجابات المألوفة وأنا أريد أن أعرف، قال "**حوري**" برقة:

– لن يعرف أحد منا إلا بعد أن نموت. وارتعدت "**رينسنب**" :

– لا . . لا تقل هذا.

– إن شيئا قد أزعجك يا "**رينسنب**"؟

– إنها "**أسا**" . وتوقفت ثم قالت:

– قل لي يا "**حوري**" هل . . . هل كان "**كاماني**" و"**نوفريت**" يعرفان بعضهما جيدا قبل . . . قبل أن يأتيا إلى هنا؟ وقف "**حوري**" ساكنا تماما لفترة وجيزة ثم قال وهو يمشي بجانب "**رينسنب**" عائدين إلى المنزل:

– إنني أرى أن هذا هو الواقع.

– ماذا تعني بقولك هذا هو الواقع؟ إني إنما سألتك سؤالا؟

– وأنا لا أعرف له جوابا. إن "**نوفريت**" و"**كاماني**" كانا يعرفان بعضهما في الشمال، أما إلى أي درجة فهذا ما لا أعرفه. وأضاف برقة:

– هل يهم هذا؟

– لا . . بالطبع لا. لا اهمية لهذا إطلاقا.

– إن "**نوفريت**" ميتة.

– ميتة ومحنطة وموصد عليها في قبرها. وتابع "**حوري**" بهدوء:

– و"**كاماني**" لا يبدو أنه حزين؟

– لا هذا حقيقي. واستدارت نحوه تلقائيا.

– آه يا "**حوري**" كم . . . كم أنت شخص مريح. وابتسم:

– كنت أُصلح لـ"**رينسنب**" الصغيرة أسدها والآن لها لُعب أخرى. وتحاشت "**رينسنب**" المنزل حينما اقتربا منه.

– لا اريد أن ادخل الآن. أشعر بأنني أكرههم جميعا. آه افهمني ليس هذا حقًّا

ولكنني غاضبة، وليس لديّ صبر والجميع غريبون جداً. الا نستطيع أن نصعد إلى المقبرة؟ هناك مكان لطيف. هناك فوق... إن المرء يشعر بأنه فوق كل شيء هناك.

– أصبت يا "رينسنب" هذا ما أشعر به، إن المنزل والزراعة والأراضي، كل هذا أدنى منا وليس له قيمة. إن المرء ينظر إلى ما وراء هذا، إلى النهر، وإلى ما وراءه، إلى "مصر" كلها. لأنه عن قريب ستصبح "مصر" متحدة مرة أخرى، قوية وعظيمة مثلما كانت في الماضي. غمغمت "رينسنب" في إبهام:

– آه.. هل يهم هذا؟ وابتسم "حوري":

– ليس لـ"رينسنب" الصغيرة إن كل ما يهمها هو أسدها.

– إنك تضحك عليّ يا "حوري" إذن فإنه يهمك أنت. وتمتم "حوري":

– ولماذا يهمني؟ نعم لماذا؟ أنا مجرد رجل أعمال لكاهن قبور. فلماذا أهتم إذا غدت "مصر" عظيمة أم لا؟ ولفتت "رينسنب" انتباهه للربوة فوقهم:

– انظر إن "ياموس" و"ساتيبي" كانا في المقبرة وهما ينزلان الآن.

– نعم كانت هناك بعض الأشياء التي كان يجب التصرف فيها: بعض الأقمشة الليبنون التي لم يستعملها الحنوطية. وقال "ياموس" إنه سيدعو "ساتيبي" لتصعد معه إلى المقبرة وتشير عليه بما يجب عمله بها. ووقفا ينظران إلى "ياموس" و"ساتيبي" وهما ينزلان عبر الطريق فوقهما. وأيقنت "رينسنب" فجأة بأنهما يقتربان من المكان الذي سقطت منه "نوفريت" بلا ريب. كانت "ساتيبي" تمشي في الأمام و"ياموس" خلفها قليلا. وفجأة أدارت "ساتيبي" رأسها لتكلم "ياموس"، ومر بخاطر "رينسنب" أنها تقول له إن هذا هو المكان الذي وقع فيه الحادث دون ريب. ثم فجأة تسمرت "ساتيبي" في مكانها ووقفت كما لو أنها تجمدت وهي تحدق خلفها، ورفعت ذراعيها كما لو أنها رأت منظرا مخيفا أو كمن يحمي نفسه من ضربة. وهتفت بشيء وتعثرت وترنحت، ثم بينما "ياموس" يقفز نحوها صرخت صرخة مليئة بالرعب، ووثبت إلى الأمام وسقطت من فوق الحافة على الصخور في أسفل الجبل. وشاهدت "رينسنب" ويدها على عنقها الواقعة وهي غير مصدقة لما تراه. وكان جسم "ساتيبي" الممزق ملقى في نفس المكان الذي وقعت فيه "نوفريت"، وجمعت "رينسنب" شتات نفسها وجرت نحوها، وكان "ياموس" ينادي ويجري نازلا من فوق الجبل. ووصلت "رينسنب" إلى جسد زوجة أخيها

وانحنت عليها. كانت عينا "**ساتيبي**" مفتوحتين ورموشها تخفق، وكانت تحرك شفتيها محاولة الكلام، وانحنت عليها "**رينسنب**" أكثر وكانت مرتاعة من الفزع المتجمد في عيني "**ساتيبي**". ثم سمع صوت المرأة التي على شفا الموت، كان مجرد بحة -"**نوفريت**" وسقط رأسها إلى الوراء وفتح فكها. كان "**حوري**" قد استدار لمقابلة "**ياموس**" وجاء الرجلان معا. تحولت "**رينسنب**" نحو أخيها وقالت:

- بماذا هتفت وهي أعلى الجبل قبل أن تسقط؟ كان "**ياموس**" يتنفس بسرعة وكان لا يكاد يستطيع الكلام.

- لقد نظرت خلفي... من خلف كتفي كما لو أنها رأت شخصا قادما على الطريق، ولكن لم يكن هناك أحد. لم يكن هناك أحد. ووافق "**حوري**" قائلا:

- لم يكن هناك أحد. وانخفض صوت "**ياموس**" حتى صار همسا فزعا:

- ثم هتفت... وسألت "**رينسنب**" بعصبية:

- ماذا قالت؟

- إنها قالت... إنها قالت... وارتعد صوته وهو يقول:

- "**نوفريت**".

الفصل الثاني عشر

- إذن هذا هو ما كنت تعنيه؟ كانت الطريقة التي تكلم بها "**رينسنب**" "**حوري**" تأكيدا أكثر منها سؤالا. وأضافت برقة وبصوت خفيض وقد ازداد فزعها وفهمها:

- إن "**ساتيبي**" هي التي قتلت "**نوفريت**". كانت "**رينسنب**" جالسة وهي واضعة يديها تحت ذقنها في غرفة "**حوري**" الحجرية الصغيرة الملاصقة للمقبرة، وكانت تحدق إلى الوادي تحتها. فكرت وهي حالمة كيف أن الكلمات التي نطقت بها البارحة كانت صادقة. هل مر حقا وقت قصير إلى هذا الحد؟ كان يبدو أن المنزل والأشخاص الذين يهرعون هنا وهناك في الوادي لا قيمة لهم أو معنى، مثل خلية نمل. إن الشمس بقوتها الملكية وهي ساطعة فوقهم، والنيل الذي يتمثل في هذا الشعاع الفضي اللامع الرفيع في ضوء هذا النهار، هما فقط الشيئان الخالدان الباقيان. لقد مات "**فاي**" و"**نوفريت**" و"**ساتيبي**"، وفي يوم ما ستموت هي

و"**حوري**"، ولكن "رع" سيظل يحكم في السماء، ويسير بمركبه في الليل في العالم الأسفل حتى مطلع الفجر، وسيظل النهر ساريا ويجري من منبعه إلى مصبه مارا بـ"**طيبة**" وبالقرية وبصعيد مصر، حيث عاشت "**رينسنب**" وكانت سعيدة ومرحة، ثم يمضي إلى البحر تاركا "**مصر**". "**ساتيبي**" و"**نوفريت**". وتابعت "**رينسنب**" أفكارها بصوت عال بما أن "**حوري**" لم يكن قد أجاب على سؤالها الأخير:

– أترى أني لست واثقة بأن "**سوبك**"... وتوقفت عن الحديث. قال "**حوري**" لنفسه مفكراً: "الفكرة التي كونتها سابقًا". ومضت "**رينسنب**" قائلة:

– ومع ذلك كان هذا غباء مني. لقد قالت لي "**هينيت**" –أو على الأقل كان هذا مجمل حديثها– إن "**ساتيبي**" قد ذهبت تتمشى في هذا الاتجاه، وقالت إن "**نوفريت**" قد صعدت إلى هنا، فكان يجب عليَّ أن أتبين كيف أنه من الواضح أن "**ساتيبي**" تتبعت "**نوفريت**"، إنهما تقابلتا في الطريق، وبعد ذلك دفعتها "**ساتيبي**" من فوق.. إن "**ساتيبي**" كانت قد قالت قبل ذلك بفترة وجيزة إنها أكثر رجولة من كل إخوتي. وتوقفت "**رينسنب**" عن الكلام وارتعشت ثم تابعت حديثها:

– كان يجب أن أدرك الحقيقة عندما قابلتها. كانت على غير عادتها، كانت مذعورة. لقد حاولت أن تقنعني بأن أعود معها، ولم تكن لتريد أن أرى جثمان "**نوفريت**". إني كنت عمياء بلا ريب لأني لم أدرك الحقيقة، لكني كنت ممتلئة بالخوف بخصوص "**سوبك**".

– أعرف. كان هذا بسبب رؤيتك إياه وهو يقتل الثعبان. ووافقته "**رينسنب**" بحماس:

– نعم هذا هو السبب وبعد ذلك حلمت.. مسكين "**سوبك**".. كم أسأت به الظن.. فكما تقول التهديد ليس كالفعل. إن "**سوبك**" كان دائما يتباهى بالكلام، وكانت "**ساتيبي**" هي دائما الجريئة دون رحمة ولا تخاف من الأفعال. ثم بعد ذلك، الطريقة التي بدت بها مثل شبح، لقد حيرنا هذا جميعا. لماذا لم نفكر في التعليل الصحيح؟ ثم أضافت وهي تنظر إليه بسرعة:

– ولكن أنت فكرت في هذا؟ قال "**حوري**":

– منذ وقت كنت موقنا أن مفتاح الحقيقة لموت "**نوفريت**" هو في التغير الغريب

الذي طرأ على شخصية "**ساتيبي**"، فكان هذا التغير عجيبا ولابد أن يكون هناك سبب له.

– ومع ذلك لم تقل شيئا؟

– كيف يمكن أن أقول شيئا يا "**رينسنب**" ماذا كان بوسعي أن أثبته؟

– لا.. بالطبع لا..

– إن الدلائل يجب أن تكون قوية. وناقشته "**رينسنب**" قائلة:

– ومع ذلك فإنك قلت مرة إن الناس لا يتغيرون حقيقة. ولكنك الآن تعترف بأن "**ساتيبي**" تغيرت. وابتسم لها "**حوري**":

– كان يجب أن تتجادلي في المحاكم. كلا يا "**رينسنب**" إن ما قلته حقيقي فالناس دائما كما هم لا يتغيرون. إن "**ساتيبي**" مثل "**سوبك**" كانت جريئة بالكلام فقط. وهي فعلا ربما كانت تستطيع أن تتبع القول بالفعل، ولكني أعتقد أنها ليست ممن بوسعهم أن يعرفوا شيئا أو ما هو عليه إلا بعد أن يقع في حياتها، ولم تكن قد خافت من شيء حتى هذا اليوم المعين. وعندما واجهت الخوف أخذت على غرة، وتعلمت عندئذ أن الشجاعة هي التصميم على مواجهة المجهول، ولم تكن لتملك هذه الشجاعة. وتمتمت "**رينسنب**" بصوت منخفض:

– عندما واجهت الخوف.. نعم إن الخوف كان ملازما لنا جميعا منذ أن ماتت "**نوفريت**" ورأيناه جميعا على وجه "**ساتيبي**". كان هناك يطل من عينيها وهي تموت.. وعندما قالت "**نوفريت**".. كان كما لو أنها رأت.. وأوقفت "**رينسنب**" نفسها عن الكلام وأدارت وجهها نحو "**حوري**" وفي عينيها تساؤل.

– ماذا رأت؟ هناك على الدرب. لم نر شيئا. لم يكن هناك شيء.

– لا لم يكن هناك شيء نراه نحن.

– ولكن كان هناك شيء رأته هي؟ لقد رأت "**نوفريت**"، "**نوفريت**" التي جاءت لتقيم، ولكن "**نوفريت**" ماتت وأوصد قبرها إذن ما الذي رأته "**ساتيبي**"؟

– الصورة التي رسمها لها عقلها.

– أواثق أنت؟ لأنه إن لم يكن هكذا.

– نعم يا "**رينسنب**" ألم يكن هكذا؟

– "**حوري**". ومدت "**رينسنب**" يدها إلى الأمام:

– هل انتهى هذا الموضوع الآن؟ الآن.. وقد ماتت "**ساتيبي**"؟ هل انتهى حقا؟ وأمسك يدها بين يديه مطمئنا إياها.

– نعم. نعم بالتأكيد يا "**رينسنب**" وأنت على الأقل لا داعي لأن تخافي. وتمتمت "**رينسنب**":

– لكن "**أسا**" تقول إن "**نوفريت**" كانت تكرهني.

– "**نوفريت**" كانت تكرهك أنت؟

– هكذا تقول "**أسا**". قال "**حوري**":

– كانت "**نوفريت**" ميالة إلى الكره. وأعتقد أحيانا أنها كانت تكره جميع أفراد هذا المنزل، ولكن أنت على الأقل لم تفعلي شيئا ضدها.

– كلا. كلا هذا حقيقي.

– ولذلك يا "**رينسنب**" ليس هناك ما تلومين عليه نفسك.

– أتعني يا "**حوري**" أني إذا مشيت في هذا الطريق –في ساعة الغروب– في نفس الوقت الذي ماتت فيه "**نوفريت**"، وإذا أدرت رأسي لن أرى شيئا، وسأكون في أمان؟

– ستكونين في أمان يا "**رينسنب**" لأنك إذا مشيت في هذا الطريق سأمشي بجانبك ولن يصيبك أذى. وعبست "**رينسنب**" وهزت رأسها.

– لا يا "**حوري**" سأمشي وحدي.

– لماذا يا "**رينسنب**" الصغيرة؟ ألن تخافي؟

– نعم أعتقد أني سأخاف ولكن مع ذلك فهذا ما يجب أن أفعله. إنهم في البيت جميعا يرتعشون ويرتعدون ويهرعون إلى المعابد ليشتروا أحجبة، ويتصايحون بأن المشي في هذا الدرب في ساعة الغروب لا خير فيه، ولكن الذي جعل "**ساتيبي**" تتعثر وتسقط هو الخوف وليس السحر، الخوف المتسبب من العمل الشرير الذي قامت به. لأن سلب حياة امرأة شابة قوية تستمتع بالحياة هو عمل شرير. لكن أنا لم أفعل شرا ولذلك فحتى لو كانت "**نوفريت**" تكرهني، فإن كرهها لا يمكن أن يؤذيني. هذه هي عقيدتي، وعلى أي حال فلو كان المرء سيعيش دائما في خوف فمن الأفضل له أن يموت. لذلك سأتغلب على الخوف.

– هذه كلمات شجاعة يا "**رينسنب**".

– ربما إنها أشجع مما أشعر به يا "**حوري**" . وابتسمت له وهبّت واقفة :

– لكن كان من المريح أن أقولها . ونهض "**حوري**" ووقف بجانبها :

– سأتذكر دائما كلماتك هذه يا "**رينسنب**" . أجل والطريقة الأبية التي تكلمت بها . إنها تظهر الشجاعة والحقيقة التي شعرت دائما بأنهما في قلبك . وأمسك بيدها ومضى قائلا :

– انظري يا "**رينسنب**" انظري من هنا عبر الوادي إلى النهر وإلى ما وراءه، هذه هي "**مصر**" بلدنا . ممزقة بالحرب والنزاع لسنين عديدة منقسمة إلى ممالك صغيرة ولكن الآن، قريبا جداًّ ستتحد مرة أخرى "**مصر**" الشمالية والجنوبية، متحدتان في مملكة واحدة، إني آمل وأعتقد أنها ستسترد عظمتها السابقة، وفي ذلك الحين ستحتاج "**مصر**" إلى رجال ونساء شجعان ومخلصين، نساء مثلك يا "**رينسنب**" . إن "**مصر**" لن تحتاج إلى رجل مثل "**أمحتوب**" المشغول دائما بمكاسبه وخسائره الخاصة، ولا إلى رجال مثل "**سوبك**" لا يشتغلون، ودائما يتباهون ولا إلى فتيان مثل "**إيبي**" الذي يفكر فقط فيما يستطيع أن يكسبه لنفسه، ولا حتى إلى أبناء أمناء ذوي ضمائر مثل "**ياموس**" . لقد تبينت، وأنا جالس هنا بين الأموات أحسب المكاسب والخسائر، وهكذا اهتديت إلى مكاسب لا يمكن أن تحسب بمقاييس الثروة وخسائر أكثر ضررا من فقد المحصول . . . أنا أنظر إلى النهر وأرى فيه مصدرا لحياة "**مصر**"، لقد وجد قبل أن نولد وسيظل بعد أن نموت . . إن الحياة والموت يا"**رينسنب**" ليسا بمثل هذه الأهمية . أنا "**حوري**" مجرد رجل أعمال "**أمحتوب**" لكنني عندما أنظر عبر "**مصر**" أشعر بسلام، نعم وبإعزاز لن أبادلهما لأصبح حاكما للمنطقة هل تفهمين ما أعني يا "**رينسنب**" ؟

– أعتقد ذلك يا "**حوري**" ، فعلى الأقل أنت مختلف عن الآخرين، ولقد عرفت هذا لفترة، وأحيانا عندما أكون هنا معك أشعر بما تشعر به لكن ليس بوضوح . ولكني أعرف ما تعنيه . . وأشارت بيدها :

– عندما أكون هنا لا تبدو الأمور التي في الوادي مهمة، المشاجرات والأحقاد والضجة التي لا تهدأ، وهنا يهرب المرء من هذا كله . وتوقفت وقد قطبت جبينها وأردفت وهي تتلعثم قليلا :

– أحيانا أكون سعيدة لأني هربت ومع ذلك فأنا لا أعرف، هناك شيء . . . هناك

شيء في الوادي يناديني. ترك "**حوري**" يدها وتراجع خطوة ثم قال برفق:

– نعم، إنني أرى "**كاماني**" وهو يغني في الفناء.

– ماذا تعني يا "**حوري**"؟ لم أكن أفكر في "**كاماني**".

– هذا جائز يا "**رينسنب**" ولكني أعتقد أنه يغني حتى دون أن تعرفي ما تسمعينه. وحدقت "**رينسنب**" إليه وهي مقطبة الجبين.

– إنك تقول أشياء غريبة يا "**حوري**". لا يمكن للمرء أن يسمعه من هنا. إن هذا بعيد جداً. وتنهد "**حوري**" برفق وهز رأسه، وحيرتها النظرة التي في عينيه وشعرت ببعض الضيق والحيرة لأنها لا تفهم.

الفصل الثالث عشر

– هل يمكنني التحدث معك دقيقة يا "**أسا**"؟ نظرت "**أسا**" بحدة نحو "**هينيت**" التي كانت تقف على عتبة باب الغرفة وعلى وجهها ابتسامة استعطاف. وسألت المرأة العجوز بحدة:

– ما الأمر؟

– لا شيء حقيقة، على الأقل لا أظن ذلك لكنني فكرت في أني أود أن أسأل. وقاطعتها "**أسا**" بحدة:

– ادخلي إذن. ادخلي وأنت –ومست بعصاها على كتف الجارية الصغيرة السوداء التي كانت تطرز الخرز– اذهبي إلى المطبخ وأحضري لي بعض الزيتون وأعدي لي شرابا من عصير الرمان. وهرعت الفتاة الصغيرة خارجة وأشارت "**أسا**" إلى "**هينيت**" بعصبية.

– هذا هو كل ما في الأمر يا "**أسا**". وحدقت "**أسا**" إلى الشيء الذي كانت "**هينيت**" ترفعه إليها.. كانت علبة جواهر صغيرة بغطاء ينزلق وبزرارين مثبتين.

– ما هذا؟

– إنها علبتها ولقد وجدتها الآن... في حجرتها.

– عمن تتحدثين؟ "**ساتيبي**"؟

– كلا، كلا يا "**أسا**"... الأخرى.

– هل تعنين "**نوفريت**"؟ ماذا عنها؟

– إن كل جواهرها وأدوات زينتها وروائحها.. كل شيء.. دفن معها. وفتحت "**أسا**" العلبة، وكان فيها خيط من الخرز الأحمر الصغير ونصف تميمة خضراء. قالت "**أسا**":

– هه ليس هذا بالكثير. لقد تغاضوا عنها.

– إن المحنطين أخذوا كل شيء معهم.

– إن المحنطين كغيرهم من الرجال لا يمكن الاعتماد عليهم. لقد نسوا هذا.

– إني أقول لك يا "**أسا**" لم تكن هذه الأشياء في الغرفة عندما نظرت إليها آخر مرة. نظرت "**أسا**" بحدة إلى "**هينيت**":

– ماذا تحاولين أن تثبتي؟ أن "**نوفريت**" قد عادت من العالم الأسفل وموجودة هنا في المنزل؟ أنت لست غبية يا "**هينيت**" ولو أنك في بعض الأحيان تحبين أن تتظاهري بذلك. ما السرور الذي تشعرين به من نشر حكايات السحر السخيفة هذه؟ كانت "**هينيت**" تهز رأسها بتشاؤم.

– نحن نعرف جميعا ماذا حدث لـ"**ساتيبي**" والسبب في ذلك.

– قد نعرف وربما كان بعضنا يعرف قبل ذلك. هه يا "**هينيت**"؟ لقد كانت دائما تراودني فكرة أنك تعرفين أكثر منا جميعا حقيقة موت "**نوفريت**".

– آه "**أسا**" بالتأكيد إنك لا تفكرين للحظة... وقاطعتها "**أسا**":

– ما الذي لا أفكر فيه؟ إني لست خائفة من التفكير يا "**هينيت**". لقد رأيت "**ساتيبي**" وهي تتسلل من المنزل في الشهرين الماضيين وهي تبدو خائفة جداً، ولقد خطر لي منذ البارحة أنه من الممكن أن يكون ثمة من كان يعرف ما فعلته بـ"**نوفريت**" وربما كان يهددها بإفشاء السر إلى "**ياموس**" أو "**أمحتوب**" نفسه. وانفجرت "**هينيت**" بسلسلة من الاعتراضات والتعجب بصوت حاد رفيع. وأغمضت "**أسا**" عينيها ومالت إلى الخلف في مقعدها ثم قالت:

– لا أظن ولو للحظة أنك ستعترفين أبدا بأنك فعلت شيئا من هذا القبيل وأنا لا أنتظر أن تفعلي هذا.

– لماذا أفعل شيئا مثل هذا؟ هذا هو ما أسالك عنه.

– ليس لديَّ أية فكرة عن السبب. فإنك تفعلين أشياء كثيرة يا "**هينيت**" لم أجد

لها قط سببا مرضيا.

– أظن أنك تعتقدين اني كنت احاول ان اجعلها ترشوني لأسكت. إني أقسم بآلهة "**الأينيد**" التسعة...

– لا تقلقي ومن الجائز أنك لم تكوني تعرفين شيئا عن موت "**نوفريت**". لكنك تعرفين اغلب ما يجري في هذا المنزل، وأُقْسم أنك انت التي وضعت هذه العلبة في حجرة "**نوفريت**". ولو انني لا أستطيع ان أتصور السبب في ذلك، ولكن هناك سبب وراء هذا، وبوسعك أن تخدعي "**أمحتوب**" بالاعيبك، لكن لايمكنك ان تخدعيني. انا امرأة عجوز ولا احتمل الأشخاص الذين يئنون. اذهبي واندبي لـ"**أمحتوب**" فإنه يبدو عليه انه يحب ذلك، غير ان "**رع**" فقط هو الذي يعرف السبب في ذلك.

– سآخذ العلبة إلى "**أمحتوب**" وأقول له...

– سأعطيه أنا بنفسي العلبة. هيا اذهبي يا "**هينيت**" ولا تنشري هذه الروايات الخرافية السخيفة. إن المنزل أهدأ دون "**ساتيبي**". إن موت "**نوفريت**" قد أفادنا أكثر من حياتها. لكن الآن وقد دُفع الدين فليرجع الجميع إلى أعمالهم اليومية.

-2-

تساءل "**أمحتوب**" بصخب وهو يدخل غرفة "**أسا**" بعد بضع دقائق:

– ما الأمر؟ إن "**هينيت**" في غاية الغم، لقد جاءت إليّ والدموع تجري على وجنتيها، لماذا لا يظهر اي شخص في هذا المنزل لهذه المرأة المتفانية أبسط أنواع المعاملة الطيبة؟ وأطلقت "**أسا**" –التي لم تهتز من هذا الكلام– ضحكة. ومضى "**أمحتوب**" يقول:

– لقد اتهمتها كما فهمت بسرقة علبة... علبة جواهر.

– هل هذا ما قالته لك؟ لم أفعل شيئا من هذا القبيل. ها هي العلبة ويبدو أنها وجدت في غرفة "**نوفريت**". وأخذها "**أمحتوب**" منها.

– آه نعم إنها العلبة التي أعطيتها لها. وفتحها قائلا:

– لا يوجد شيء يذكر بداخلها إنه الإهمال، إهمال شديد من الحنوطية إنهم لم يضعوا هذه الأشياء ضمن حاجاتها الشخصية الأخرى. ونظراً للأتعاب التي

يتقاضاها "**إيبي**" و"منتو" فإن المرء ينتظر على الأقل الا يوجد إهمال. حسنا إن كل هذا يبدو لي زوبعة في فنجان دون سبب.

– بالضبط.

– سأعطي العلبة لـ"**كيت**"، كلا لـ"**رينسنب**" فقد كانت دائما تتصرف بذوق مع "**نوفريت**". وتنهد وهو يقول:

– كم يبدو من المستحيل أن يتمتع الرجل بالسلام. هؤلاء النساء دموع بلا نهاية أو مشاجرات ومشاحنات.

– آه حسنا يا "**أمحتوب**" لقد نقص عددهن واحدة على الأقل الآن.

– نعم هذا صحيح. يا لـ"**ياموس**" المسكين ومع كلٍّ يا "**أسا**" إني أشعر بأن هذا قد يكون من الأفضل.. إن "**ساتيبي**" قد أنجبت حقيقة أطفالاً أصحاء، ولكنها كانت من نواحي عديدة زوجة غير مرضية و"**ياموس**" بالطبع كان يخضع لها أكثر من اللازم. حسنا. حسنا إن كل هذا قد انتهى الآن. ويجب أن أقول إني مسرور من سلوك "**ياموس**" في الفترة الأخيرة. إنه يبدو أكثر اعتمادا على نفسه وأقل حياء وحكمة وفي عدة أمور كان ممتازا، ممتازا تماما..

– لقد كان دائما ولدا مطيعا طيبا.

– نعم. نعم، ولكنه بطيء نوعا ويخاف من المسؤولية إلى أبعد الحدود. قالت "**أسا**" بجفاء:

– إن المسؤولية شيء لم يُسمح له به قط.

– حسنا إن كل هذا سيتغير الآن. إني أعد وثيقة مشاركة وستوقع بعد بضعة أيام. إني سأشارك أبنائي الثلاث معي.

– بالتأكيد لن تشارك "**إيبي**"؟

– سيجرح شعوره إذا لم أشاركه. إنه ولد عزيز دافئ القلب.

– بالتأكيد لا يعيبه اي بطء.

– على حد قولك، و"**سوبك**" أيضا، لقد كنت مستاء منه في الماضي، ولكنه بدأ أخيرا صفحة جديدة حقيقية. إنه لم يعد يمضي وقته في اللهو ويستمع إلى رأيي ورأي "**ياموس**" أكثر. قالت "**أسا**":

– هذه حقا أنشودة من المديح. حسنا يا "**أمحتوب**" يجب أن أقول إني أعتقد

أنك تفعل صوابا. عدم إرضاء أبنائك كانت سياسة خاطئة. لكني لا زلت أعتقد أن "**إيبي**" صغير على ما تعتزمه له. إن من السخف إعطاء ولد في هذه السن مركزا قويا. ماذا ستكون سلطتك عليه؟ وبدا على "**أمحتوب**" التفكير:

– لك بعض الحق في هذا بلا ريب. ثم نهض مهتما وقال:

– يجب أن أذهب.. هناك ألف أمر يجب العناية به، هناك كل الترتيبات التي يجب اتخاذها لدفن "**ساتيبي**". إن الموت يكلف... يكلف جداً وقد تتابعت الوفيات الواحدة بعد الأخرى بهذه السرعة.

– آه حسنا لنأمل أنها ستكون الوفاة الأخيرة حتى يأتي دوري.

– آمل أنك ستعيشين سنين أخرى عديدة يا والدتي العزيزة. قالت "**أسا**" بابتسامة:

– أنا واثقة بهذا. أرجوك ألا توفر في جنازتي. لن يبدو هذا جميلا. سأحتاج إلى كمية كبيرة من الأدوات لتسليني في العالم الآخر. الكثير من الطعام والشراب ونماذج كثيرة من العبيد، منضدة مزينة ببذخ للعب، عطور وأدوات تجميل وأنا أصر على أنواع الزينة المصنوعة من الألبستر.

– نعم، نعم بالطبع، وغيَّر "**أمحتوب**" وضع قدميه بعصبية.

– بالطبع سيقدم لك كل الاحترام عندما يحين هذا اليوم المحزن. لكنني يجب أن أعترف بأنني أشعر بشعور مختلف حيال "**ساتيبي**". إن المرء لا يريد فضيحة ولكن في الحقيقة، نظرا إلى هذه الظروف... ولم يكمل "**أمحتوب**" كلامه ولكنه هرع خارجا. وابتسمت "**أسا**" بتهكم عندما أدركت أن هذه الجملة «نظرا إلى هذه الظروف» هي أقصى ما سيقوله "**أمحتوب**" اعترافا بأن كلمة حادثة لا تنطبق تماما على الطريقة التي لاقت بها محظيته الغالية موتها.

الفصل الرابع عشر

ساد شعور عام بالسرور والبهجة عند رجوع أفراد العائلة من بلاط الحاكم بعد أن سجل عقد المشاركة، وكان الاستثناء الوحيد هو بلا ريب، "**إيبي**" الذي لم يشرك في آخر وقت على أساس صغر سنه. ولذلك كان عابسا وتغيب متعمدا عن المنزل.

ونادى "**أمحتوب**" وهو في غاية الانشراح مطالبا بجرة شراب فجيء بها إلى الشرفة. وقال وهو يربت كتف "**ياموس**":

– ستشرب يا بني. انس فترة حزنك ودعنا نفكر فقط في الأيام الطيبة القادمة. وشرب "**أمحتوب**" و"**ياموس**" و"**سوبك**" و"**حوري**" هذا النخب، ثم جاء نبأ سرقة ثور فهرع الرجال الأربعة ليتأكدوا صحة الخبر. وعندما رجع "**ياموس**" بعد ساعة إلى الفناء كان متعبا ويشعر بالحر، وقصد خابية الشراب التي كانت ما تزال في الشرفة واحتسى الشراب على مهل، وبعد قليل جاء "**سوبك**" يخطو بسرعة وهتف بسرور:

– هيا لنشرب الآن مزيدا من الشراب. لنشرب نخب مستقبلنا الذي أمن أخيرا. إن هذا بلا ريب يوم سعيد لنا يا "**ياموس**". ووافق "**ياموس**":

– نعم بالتأكيد إن هذا سيجعل الحياة أسهل من جميع النواحي.

– إنك دائما متحفظ في شعورك يا "**ياموس**". وضحك "**سوبك**" وهو يتكلم وملأ كأسه بالشراب وشربه في جرعة واحدة، ثم لعق شفتيه وهو يضع كأسه.

– سنرى الآن إذا كان أبونا سيظل محافظا كما كان، أم هل سيكون بوسعي أن أهديه للطرق الحديثة؟ ونصحه "**ياموس**" قائلا:

– لو كنت مكانك لتأنيت. إنك كنت دائما متسرعا. وابتسم "**سوبك**" لأخيه بود وكان في غاية الانشراح ثم قال مداعبا:

– كنت دائمًا متسرعًا ولكنني كنت متأكداً. وابتسم "**ياموس**" دون أن يهتز لذلك ثم قال:

– هذه أفضل طريقة في النهاية. وإلى جانب ذلك فأبي كان كريما جدًّا معنا، ولا يجب أن نفعل شيئا يقلقه. ونظر إليه "**سوبك**" بفضول:

– إنك تحب أبانا حقيقة؟ إنك إنسان ودود يا "**ياموس**". أنا لا يهمني أحد – بتاتا– إلا "**سوبك**"، ليعيش طويلا. وأخذ جرعة أخرى من الشراب. قال "**ياموس**" محذراً:

– كن حذراً.. إنك لم تأكل كثيرا اليوم وفي بعض الأحيان عندما يحتسي المرء شرابا... وتوقف فجاة وقد التوت شفتاه.

– ماذا بك يا "**ياموس**"؟

– لا شيء.. ألم مفاجئ.. أنا، لا شيء.. ولكنه رفع يده ليمسح بها جبينه الذي

ملأه العرق فجأة.

– أنت لا تبدو على ما يرام.

– لقد كنت بخير الآن.

– طالما أن أحدا لم يسمم الشراب. وضحك "**سوبك**" لكلماته ومد ذراعه نحو الجرَّة ثم تخشب ذراعه وهو ممدود، وانحنى جسده إلى الأمام في تشنج مفاجئ من الألم.

– "**ياموس**"، "**ياموس**"، أنا أيضا. كان "**ياموس**" ينزلق إلى الأمام وقد انثنى، وصدرت منه صرخة مكتومة. وكان "**سوبك**" يتلوى من الألم ورفع صوته:

– النجدة، ابعثوا في طلب طبيب، طبيب.. وجاءت "**هينيت**" تجري من داخل المنزل:

– هل ناديت؟ ماذا قلت؟ ما الأمر..؟ وأتى آخرون على صياحها. كان الأخوان يئنان من الألم وقال "**ياموس**" بصوت منخفض:

– الشراب.. سم.. ابعثوا في طلب طبيب.. وصدرت صرخة رقيقة من "**هينيت**":

– مصيبة أخرى. إن هذا المنزل ملعون في الحقيقة. بسرعة.. أسرعوا ابعثوا للمعبد في طلب الكاهن المبجل "**مرسو**" الطبيب البارع ذي الخبرة العظيمة.

-2-

مشى "**أمحتوب**" ذهابا وإيابا في البهو الرئيسي للمنزل، وكان ثوبه اللينون الفاخر قذرا ومجعداً ولم يكن قد استحم أو غير ثوبه، ووجهه متجهما من القلق والخوف. ومن مؤخرة المنزل كان يسمع صوت بكاء منخفض ومستمر –مساهمة من النساء في الكارثة التي حلت بالبيت– وكان صوت "**هينيت**" يقود الأصوات الأخرى، ومن غرفة جانبية كان يسمع صوت الطبيب الكاهن "**مرسو**" وهو يرتفع بينما يناضل حول جسد "**ياموس**" الراقد دون حركة. وجذب صوته "**رينسنب**" التي تسللت بهدوء من جناح السيدات إلى البهو الرئيسي. وقادتها قدماها إلى عتبة الباب المفتوح، وتوقفت هناك وهي تشعر ببلسم شاف في الكلمات الرنانة التي كان الكاهن يتلوها.

– أي "**إيزيس**" يا ذات السحر العظيم، حرريني من كل الشرور والسيئات والأمور الحمراء، حرريني من لطمة إله ومن لعنة آلهة، من الأموات، من عدو ذكر أو عدوة أنثى ممن هم ضدي.. وبدرت تنهيدة خافتة من شفتي "**ياموس**". وفي دخيلة قلبها شاركت "**رينسنب**" في الصلاة.

– "**إيزيس**"، "**إيزيس**" العظيمة، أنقذيه.. أنقذي أخي "**ياموس**"، يا ذات السحر العظيم.. ومرت بخلدها أفكار متضاربة انبعثت من كلمات التراتيل:

– من كل الشرور والسيئات والأمور الحمراء.. هذا هو ما أصابنا كلنا في هذا المنزل.. نعم الأفكار الحمراء الغاضبة، غضب امرأة ميتة. وخاطبت الشخص الذي كان في ذهنها بما يدور في ذهنها. «لم يكن "**ياموس**" هو الذي آذاك يا "**نوفريت**"، ولو أن "**ساتيبي**" كانت زوجته فلا يمكنك أن تحمليه مسؤولية أفعالها، إنه لم يكن له قط أي سلطان عليها، ولم يكن لأحد سلطان عليها "**ساتيبي**" التي آذتك ماتت. أليس هذا كافيا؟ "**سوبك**" مات، "**سوبك**" الذي تكلم ضدك فقط ومع ذلك لم يفعل أي شيء يؤذيك قط. آه يا "**إيزيس**" لا تدعي "**ياموس**" يموت، أنقذيه من حقد "**نوفريت**" المنتقم». ورفع "**أمحتوب**" بصره وهو يروح ويجيء بلا وعي ورأى ابنته واسترخى وجهه ببرود.

– تعالي هنا يا طفلتي العزيزة "**رينسنب**". وجرت نحوه ووضع ذراعه حولها.

– آه يا أبي ما قولهم؟ وقال "**أمحتوب**" بحزن:

– لقد مات في الفجر. "**سوبك**" ابني القوي الوسيم. وتعثر صوته وكف عن الكلام.

– آه إن هذا الأمر شرير وقاس، ألم يمكن عمل شيء؟

– لقد عملنا كل ما يمكن عمله. أُعطي عقاقير مقيئة وأُعطي له عصير بعض الأعشاب الفعالة ووضعت له أحجبة مقدسة ودُعِي له دعاء عظيم، ولم ينفع هذا كله. إن "**مرسو**" طبيب بارع ولو لم يتمكن من إنقاذ ابني فإنها إذن إرادة الآلهة. ارتفع صوت الطبيب الكاهن في دعاء عالٍ أخيرا، وخرج من الغرفة وهو يمسح العرق عن جبينه. واتجه "**أمحتوب**" نحوه:

– حسنا؟ وقال الطبيب بجدية:

– بفضل "**إيزيس**" سيعيش ابنك. إنه ضعيف ولكن خطورة السم قد زالت، وبدأ

التأثير الشرير في الاندثار. ومضى يقول وهو يغير نبرات صوته ليصبح صوته عاديا :

– من حسن الحظ أن "**ياموس**" ارتشف كمية قليلة من الشراب المسموم بينما يبدو أن ابنك "**سوبك**" جرعه. وتأوه "**أمحتوب**" :

– هذا هو الفارق بينهما : "**ياموس**" خجول حذر في معالجته لكل أمر حتى الأكل والشرب. و"**سوبك**" دائما مفرط وكريم –ويا للأسف– متهور، ثم أضاف بحدة :

– الشراب كان مسموما قطعا؟

– ليس هناك أي شك في هذا يا "**أمحتوب**". لقد أجرى مساعدي تجربة على المتبقي منه، ولقد ماتت سريعا كل الحيوانات التي شربت منه.

– ومع ذلك فأنا الذي شربت من نفس الشراب قبل ذلك بأقل من ساعة ولم أشعر بأي سوء.

– لم يكن الشراب بلا ريب مسموما في ذلك الوقت، إن السم قد أضيف بعد ذلك. وضرب "**أمحتوب**" كفا على كف وقال :

– لا يوجد حي يجرؤ على سم ولدي هنا تحت سقف بيتي. هذا شيء مستحيل. إني أقول لا يوجد حي. وأحنى "**مرسو**" رأسه قليلا وبدا وجهه دون تعبير:

– أنت أفضل من يحكم في هذا يا "**أمحتوب**"، ووقف "**أمحتوب**" وهو يحك خلف أذنه بعصبية. وقال فجأة :

– هناك رواية أريد أن تسمعها. وصفق وقال لخادمه الذي جاء يجري.

– ائتِ بالراعي الصغير هنا. وتحول نحو "**مرسو**" قائلا :

– إنه ولد فيه شيء من البله. إنه يستوعب ما يقوله الناس له بصعوبة، وليس متمالكا لكل قواه العقلية، ورغم ذلك فإن له عينين ونظره جيد، وفوق ذلك فهو متفان في الإخلاص لابني "**ياموس**" الذي يعامله برفق ويحنو عليه. ورجع الخادم وهو يجر بيده غلاما نحيفا أسود تقريبا يلبس قماشا ملفوفا حول خصره، وعيناه فيهما حول ووجهه يبدو عليه الغباء والخوف. قال "**أمحتوب**" بحدة :

– تكلم. ردد الآن ما قلته لي. وطأطأ الغلام رأسه وبدت أصابعه تمسك بالقماش الملفوف حول وسطه. وصرخ "**أمحتوب**" :

– تكلم. وجاءت "**أسا**" تتكئ على عصاها وهي تحدق بعينيها الضعيفتين.

– إنك ترعب الغلام. خذي يا "**رينسنب**" أعطيه هذه الحلوى. هيا يا بني قل لنا

ما رأيته. وحدق الولد إليهم وذكرته "**أسا**" قائلة:

– كان ذلك البارحة عندما مررت أمام باب الفناء لقد رأيت... ماذا رأيت؟ هز الولد رأسه ونظر جانبا وغمغم:

– أين مولاي "**ياموس**"؟ وتكلم الكاهن برفق وحزم:

– إنها رغبة مولاك "**ياموس**" أن تخبرنا بالرواية. لا تخف لن يؤذيك أحد، واستنار وجه الغلام.

– إن مولاي "**ياموس**" طيب معي. سأفعل ما يريد، وتوقف عن الكلام وبدا أن "**أمحتوب**" سيتكلم بغضب ولكن نظرة من الطبيب كبحته. وفجأة بدأ الولد يتكلم بعصبية وبسرعة، وهو ينظر إلى جانبيه كما لو كان خائفا من أن يسمعه شخص غير ظاهر للعين.

– كنت أجري بعصاي وراء الحمار الصغير، الذي يحميه "**ست**" والذي يثير المشاكل دائما، وتعدى بوابة الفناء ونظرت من البوابة نحو المنزل ولم يكن هناك أحد في الشرفة، ثم خرجت سيدة من سيدات المنزل إلى الشرفة، ومشت نحو الإناء ومدت يديها فوقه ثم رجعت إلى المنزل كما أعتقد.. إني لا أعرف لأني سمعت وقع أقدام واستدرت ورأيت مولاي "**ياموس**" قادما من بعيد من الحقول. لذلك مضيت أبحث عن الحمار الصغير ودخل مولاي "**ياموس**" الفناء. صاح "**أمحتوب**" غاضبا:

– ولم تحذره. لم تقل شيئا. وصاح الولد:

– لم أعرف أن هناك شيئا على غير ما يرام. لم أر إلا السيدة تقف هناك تبتسم وهي تفرد يديها فوق إناء الشراب. لم أر شيئا. سأل الكاهن:

– من كانت السيدة يا ولد؟ وهز الولد رأسه دون أي تعبير في نظراته.

– لا أعرف. لابد أنها إحدى سيدات المنزل واللاتي لا أعرفهن. لأني أرعى الماشية في الناحية النائية من الضيعة. كانت تلبس ثوب لينون مصبوغًا.

– ربما خادمة؟ وراقب الكاهن الولد. وهز الولد رأسه بتأكيد:

– لم تكن خادمة.. كانت على رأسها باروكة وكانت تلبس جواهر. قال "**أمحتوب**":

– جواهر؟ أي جواهر؟ أجاب الغلام بثقة كمن استرد ثقته، وتغلب على خوفه وهو متأكد جدًّا فقال:

– عقد به ثلاثة صفوف من اللالئ، وبينها أُسود من الذهب معلقة بينها. ووقعت عصا "**أسا**" على الأرض وأطلق "**أمحتوب**" صرخة مكتومة. قال "**مرسو**" مهددا:

– وإذا كنت تكذب يا ولد؟

– إنها الحقيقة. أقسم إنها الحقيقة. كان صوت الولد مرتفعا وواضحا. ونادى "**ياموس**" المريض بصوت ضعيف من الغرفة الجانبية حيث كان راقدا:

– ما كل هذا؟ ومرق الولد من الباب المفتوح وركع بجانب الأريكة التي كان "**ياموس**" راقدا عليها.

– سيدي. سيعذبونني.

– كلا، كلا، وأدار "**ياموس**" رأسه بصعوبة على المخدة الخشبية.

– لا تؤذوا الغلام، إنه ساذج ولكنه أمين، عدوني. قال "**أمحتوب**" :

– بالطبع. بالطبع. لا حاجة إلى هذا إنه من الواضح أن الولد قال كل ما يعرفه وأنا لا اعتقد أنه يكذب. امض يا ولد ولكن لا ترجع إلى القطعان البعيدة. ابق على مقربة من المنزل لكي نستطيع استدعاءك مرة أخرى إذا احتجنا إليك. ونهض الولد وألقى نظرة مترددة إلى "**ياموس**" :

– أنت مريض يا مولاي "**ياموس**". وابتسم "**ياموس**" بضعف:

– لا تخف. لن أموت. اذهب الآن وأطع ما قيل لك. ومضى الولد وهو يبتسم بسعادة، وفحص الكاهن عيني "**ياموس**" وجس نبضه ثم أوصاه بالنوم، وخرج مع الآخرين إلى البهو الرئيسي مرة أخرى، وقال الكاهن:

– هل تعرفت إلى الوصف الذي أعطاه الولد؟ وأومأ "**أمحتوب**" وبدا على وجنتيه البرنزيتين الداكنة مثل إصفرار المريض. قالت "**رينسنب**" :

– إن "**نوفريت**" فقط هي التي كانت تلبس ثوبا من اللينون المصبوغ. إنها موضة حديثة جاءت بها من المدن الشمالية، ولكن هذه الأثواب دفنت معها. وقال "**أمحتوب**" :

– والثلاثة صفوف من اللالئ مع رؤوس الأسود الذهب حلية أعطيتها لها، ولا توجد حلية مثلها في المنزل. كانت غالية وغير مألوفة. إن كل جواهرها باستثناء عقد من اللؤلؤ الأحمر الزائف دفنت معها وأحكم غلق المقبرة. ولوح بيديه:

– ما هذا الحقد والاضطهاد. محظيتي التي عاملتها معاملة طيبة وباحترام والتي

دفنتها حسب الطقوس الصحيحة ولم أبخل عليها بشيء. لقد أكلت وشربت معها بمودة، والكل شاهد على ذلك لم يكن هناك شيء تشكو منه، بل لقد فعلت من أجلها أكثر مما ينبغي وكنت مستعدا لأن أفضلها على حساب أولادي. لماذا إذن ترجع من الموت لتضطهدني أنا وأسرتي؟ قال "**مرسو**" بجد:

– يبدو أن المرأة الميتة لا تضمر لك شخصيا شرا. إن الشراب كان غير مضر عندما شربته. مَنْ مِنْ عائلتك أضر محظيتك المتوفاة؟ قال "**أمحتوب**" بجفاء:

– امرأة ماتت.

– هكذا. أتعني زوجة ابنك "**ياموس**"؟

– نعم، وصمت "**أمحتوب**" ثم انفجر قائلا:

– لكن ما الذي يمكن عمله أيها الكاهن المبجل؟ كيف نقاوم هذا الشر؟ إن اليوم الذي أدخلت فيه هذه المرأة إلى منزلي كان يوم شؤم. قالت "**كيت**" بصوتها العميق وهي خارجة من جناح النساء:

– إنه كان يوم شؤم حقا. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع التي سفحتها، وكان على وجهها غير الجميل أمارات قوة وتصميم بارزة، وكان صوتها عميقا وأجش ويرتعش من الغضب.

– كان يوم شؤم عندما أتيت بـ"**نوفريت**" هنا يا "**أمحتوب**" لكي تقتل أذكى وأجمل أبنائك. لقد جلبت الموت لـ"**ساتيبي**" ولـ"**سوبك**" ونجا "**ياموس**" بأعجوبة، ترى من يكون التالي؟ هل ستبقي حتى على الأطفال، وهي التي ضربت صغيرتي "**انكا**"؟ يجب عمل شيء يا "**أمحتوب**". وردد "**أمحتوب**" كصدى وهو ينظر بتضرع إلى الكاهن:

– يجب عمل شيء. وأومأ هذا الأخير بهدوء:

– هناك طرق عديدة يا "**أمحتوب**" ومتى تأكدنا من الواقع يمكننا المضي قدما. إني أفكر في زوجتك المتوفاة "**أياشات**" لقد كانت امرأة من عائلة ذات نفوذ، ويمكن أن تستنجد بذوي النفوذ في عالم الأموات الذين بوسعهم أن يتدخلوا لصالحك، والذين لا تقدر عليهم "**نوفريت**".. يجب أن نتشاور معا. وأطلقت "**كيت**" ضحكة قصيرة:

– لا تنتظروا كثيرا. إن الرجال دائما سواء، نعم حتى الكهنة. يجب عمل كل

شيء وفقا للقانون وللسوابق. لكني أقول اعملوا بسرعة، أو سيكون هناك أموات آخرون تحت هذا السقف. واستدارت وخرجت. وتمتم "**أمحتوب**" :

– امرأة ممتازة. أم متفانية لأولادها، زوجة مطيعة، لكن سلوكها أحيانا ليس كما يجب أن يكون تجاه سيد المنزل. وبالطبع فإني أسامحها في مثل هذا الوقت، إننا جميعا مذهولون ولا نكاد نعرف ماذا نعمل، وأمسك رأسه بين يديه. وقالت "**أسا**" :

– إن بعضنا قليلا ما يعرفون ماذا يعملون. وألقى إليها "**أمحتوب**" نظرة غاضبة. واستعد الطبيب للانصراف، وخرج "**أمحتوب**" معه إلى الشرفة وتلقى منه التعليمات للعناية بالمريض. ونظرت "**رينسنب**" التي بقيت إلى جدتها بتساؤل. كانت "**أسا**" جالسة وهي ساكنة وكانت عابسة، وكان التغير الذي بدا على وجهها غريبا لدرجة أن "**رينسنب**" سألت بخجل:

– ما الذي تفكرين فيه يا جدتي؟

– التفكير هو الكلمة المناسبة يا "**رينسنب**" فإن الأمور التي تجري في هذا المنزل غريبة لدرجة أنه من الضروري أن يفكر المرء.

– إنها أمور مريعة وهي تخيفني. وارتعشت "**رينسنب**" . استطردت "**أسا**" :

– إنها تخيفني أيضا لكن ربما ليس لنفس السبب. وبحركتها القديمة المألوفة أزاحت الباروكة من على رأسها. قالت "**رينسنب**" :

– لكن "**ياموس**" لن يموت الآن. إنه سيعيش. وأومأت "**أسا**" :

– نعم لقد أنقذه طبيب ماهر في الوقت المناسب، ولكن في مناسبة أخرى قد لا يكون سعيد الحظ مثل هذه المرة.

– أتعتقدين أنه ستحدث أمور أخرى مثل هذه؟

– إني أعتقد أن "**ياموس**" وأنت و"**إيبي**" ، وربما "**كيت**" أيضا من الأفضل أن تحترسوا جيدا جداً مما تأكلون وتشربون. دعوا دائما عبدا يذوقه قبلكم.

– وأنت يا جدتي؟ وابتسمت "**أسا**" ابتسامتها المتهكمة:

– أنا يا "**رينسنب**" امرأة عجوز وأحب الحياة كما يستطيع الكبار فقط أن يحيوها بتذوق كل ساعة وكل دقيقة باقية لهم، ولي دونكم جميعا أفضل فرصة للحياة لأني سأحترس أكثر منكم جميعا.

– وأبي؟ بالتأكيد إن "**نوفريت**" لن تتمنى له أي شر؟

– أبوك؟ لا أعرف.. لا أعرف، أنا لا يمكنني حتى الآن أن أرى بوضوح. غدا بعد أن أكون قد فكرت في كل هذا سأتكلم مرة أخرى مع راعي الغنم. هناك شيء في روايته، وتوقفت وهي عابسة، ثم وقفت وهي تتنهد واتكأت على عصاها ومضت خارجة ببطء نحو جناحها. دخلت "رينسنب" إلى غرفة أخيها وكان نائما فخرجت بهدوء، وبعد لحظة تردد ذهبت إلى جناح "كيت" ووقفت على عتبة الباب، دون أن تلاحظها "كيت"، وجعلت تراقبها وهي تغني لطفلها لينام. كان وجه "كيت" هادئا وساكنا مرة أخرى، وبدت كعادتها لدرجة أنه للحظة خيل إلى "رينسنب" أن الأمور المفجعة التي حدثت في الأربع والعشرين ساعة الماضية كانت حلما. ثم استدارت ببطء ومضت نحو جناحها الخاص، وعلى منضدة بين أدوات زينتها وأوانيها كانت توجد علبة "نوفريت" الصغيرة للجواهر. والتقطتها "رينسنب" ووقفت تنظر إليها وهي في يدها. إن "نوفريت" قد لمستها وحملتها، إنها كانت ملكها. ومرة أخرى جرفت "رينسنب" موجة من العطف ممزوجة بشعور غريب من الفهم. إن "نوفريت" كانت تعسة وربما بينما كانت تمسك بهذه العلبة الصغيرة حولت هذه التعاسة إلى حقد وضغينة.. وإلى الآن لم ينفث هذا الحقد.. كان لا يزال يبحث عن الانتقام.. آه كلا بالتأكيد.. كلا بالتأكيد.. كلا.. وبطريقة آلية تقريبا. أدارت "رينسنب" الزرارين وانفتحت العلبة كانت اللالئ الحمراء فيها والحجاب المكسور وشيء آخر. وأخرجت "رينسنب" وقلبها يدق بعنف عقدا من الذهب وفيه أسود ذهبية في واجهته.

الفصل الخامس عشر

وبحركة لا شعورية أعادته بسرعة إلى علبة الجواهر وأقفلتها مرة ثانية. كانت تشعر بفطرتها بأن عليها أن تخفي اكتشافها، ونظرت خلفها بخوف لتتأكد عدم وجود أي شخص يراقبها. وأمضت ليلة لم تذق فيها النوم وهي تتقلب على جنبيها بقلق، وتغير وضع رأسها على المسند الخشبي للرأس على سريرها. وعندما لاح الصباح كانت قد قررت أنها يجب أن تأتمن أحدا على سرها، فلم يكن في وسعها أن تتحمل مثل هذا الاكتشاف المحير وحدها. وكانت قد جفلت مرتين في الليل وهي

تتساءل لو أنها ربما سترى "**نوفريت**" واقفة مهددة بجانبها، ولكن لم يكن هناك شيء لتراه. وأخذت "**رينسنب**" العقد ذا الأسود الذهبية من علبة المجوهرات وأخفته في ثنايا ثوبها اللينون، وما كادت تفرغ من هذا حتى قابلت "**هينيت**" التي كانت عيناها تلمعان بشدة سرورا لأن لديها أنباء جديدة.

– تصوري يا "**رينسنب**" .. أليس هذا فظيعا؟ هذا الولد الراعي، نائم نوما عميقا بجوار القمح والجميع يهزونه ويصيحون في أذنه، والآن يبدو أنه لن يصحو أبدا مرة أخرى. إنه يبدو كما لو أنه شرب عصير الخشخاش، وربما فعل ذلك، لكن إذا كان هذا هو ما حدث فمن أعطاه إياه؟ لا أحد هنا.. أنا واثقة بهذا، وليس من المحتمل أنه قد شربه وحده. آه كان يجب أن نتوقع هذا منذ الأمس، ولمست "**هينيت**"إحدى الأحجبة العديدة التي تلبسها:

– ليحمينا "**آمون**" من أرواح الأموات الشريرة. إن الولد روى ما رآه وكيف رآه، ولذلك رجعتْ مرة ثانية وسقته من عصير الخشخاش لتغلق عينيه إلى الأبد.. آه إن "**نوفريت**" هذه قوية. لقد سافرتْ كما تعلمين خارج "**مصر**" وأكاد أقسم أنها تعلمت جميع أنواع السحر البدائي الغريبة. نحن لسنا في أمان في هذا المنزل، لا أحد منا في أمان. يجب على والدك أن يقدم ثيرانا كثيرة لـ"**آمون**"– قطيعا بأكمله إذا لزم الأمر، ليس هذا وقت يمارس فيه الادخار. يجب أن نحمي أنفسنا ويجب أن نتوسل لوالدتك، هذا ما يعتزمه "**أمحتوب**". لقد قال الكاهن "**مرسو**" هذا.. خطاب رسمي للأموات.. إن "**حوري**" مشغول الآن بإعداده، وكان والدك يريد أن يوجهه إلى "**نوفريت**"، يستعطفها كما تعلمين يقول: «أيتها الممتازة "**نوفريت**"، ما الشر الذي أذيتك به أبدا.. إلخ». ولكن كما يقول الكاهن المبجل "**مرسو**" إن الأمر يحتاج إلى وسائل أقوى من هذا. إن والدتك "**أياشات**" كانت سيدة عظيمة، وكان خالها هو الحاكم وكان أخوها هو الساقي الأكبر للوزير في "**طيبة**"، وعندما تعرف ما يحدث لن تسمح لمجرد محظية أن تقضي على أولادها. آه نعم سنحصل على العدل وكما أقول إن "**حوري**" يعد لها التماسا الآن.

كان في نية "**رينسنب**" أن تبحث عن "**حوري**" وتروى له كيف وجدت العقد ذا الأسود، ولكن إذا كان "**حوري**" مشغولا مع الكهنة في معبد "**إيزيس**" فلا أمل في التفكير في محاولة مقابلته بمفرده. هل يجب أن تذهب إلى أبيها؟ وهزت

"رينسنب" رأسها دون اقتناع فإن فكرتها القديمة منذ الطفولة عن قوة أبيها قد تلاشت تماما، وأدركت الآن كيف أنه ينهار سريعا في الأزمات، وأن ما لديه هو جعجعة جوفاء وليس قوة حقيقية، ولو لم يكن "ياموس" مريضا لقالت له ولو أنها تشك في أنه كان سيكون لديه أية نصائح عملية لها. إنه في الغالب سيصر على عرض الأمر على "أمحتوب"، وهذا كما تشعر "رينسنب" هو ما يجب أن تتجنبه بكل وسيلة. إن أول شيء سيفعله "أمحتوب" هو أنه سيذيع الأمر على الملإ، وكان شعور "رينسنب" هو أنه يجب إبقاءه سرا، ولو أنها كانت لا تعرف السبب في شعورها هذا. كلا إن ما تحتاج إليه هو مشورة "حوري" فإنه كالمعتاد دائما سيعرف ما يجب عمله، وسيأخذ منها العقد، وفي نفس الوقت سيزيل عنها القلق والحيرة، وسينظر إليها بعينيه الطيبتين الجادتين وستشعر في الحال بأن كل شيء على ما يرام.. ولبرهة أحست "رينسنب" بإغراء لكي تفشى سرها لـ"كيت"، ولكن "كيت" ليست مرضية، فإنها لا تستمع أبدا بانتباه، وربما إذا استطاع المرء أن يبعدها عن أطفالها... كلا هذا لن يفيد، إن "كيت" لطيفة لكنها غبية. وفكرت "رينسنب": "هناك "كاماني".. وهناك جدتي". نعم "كاماني"..؟ كان هناك شيء سار في فكرة تحدثها بهذا لـ"كاماني"، إن بوسعها رؤية وجهه بوضوح تام في مخيلتها، وتعبيره الذي يتغير من مرح إلى اهتمام، إلى خشية من أجلها.. أو هل هو من أجلها؟ لماذا هذا الشك الخبيث في أن "نوفريت" و"كاماني" كانا أقرب لبعضهما مما يبدو ظاهريا؟ لأن "كاماني" ساعد "نوفريت" على حملتها لفصم "أمحتوب" عن أسرته؟ لقد دافع عن نفسه بقوله إنه لم يملك إلا أن يفعل ما أمر به، لكن هل هذا حقيقي؟ إنه شيء يسهل قوله وكل ما يقوله "كاماني" يبدو سهلا وطبيعيا وصحيحا. إن ضحكته مرحة لدرجة أنها تجعلك تريد أن تضحك أيضا. إن مشيته رشيقة، والطريقة التي يحرك بها رأسه من فوق كتفيه البرنزيتين، وعيناه اللتان تنظران إليه... تنظران إليك، وتوقفت أفكار "رينسنب" بارتباك. إن عيني "كاماني" مثل عيني "حوري": فيهما طيبة وأمان، إنهما تتحديان وتطالبان. كانت أفكار "رينسنب" قد ألهبت وجنتيها وبرقت عيناها، ولكنها قررت ألا تخبر "كاماني" بعثورها على عقد "نوفريت". كلا إنها ستذهب إلى "أسا". إن "أسا" قد أثرت فيها أمس فإنها على الرغم من كبر سنها تفهم الأمور، وتتمتع بشعور

عملي ذكي لا يملكه سواها في الأسرة. وفكرت "**رينسنب**" : "إنها عجوز ولكنها ستعرف" .

-2-

عند أول ذكر للعقد نظرت "**أسا**" حولها بسرعة ووضعت إصبعها علي شفتيها محذرة، ومدت يدها وبحثت "**رينسنب**" بين ثنايا ثوبها ثم أخرجت العقد ووضعته في يد "**أسا**" . وأمسكت به "**أسا**" للحظة قريبا من عينيها الكليلتين ثم أخفته في ثوبها، وقالت بصوت منخفض وبلهجة آمرة:

– كفانا الآن فمن يتحدث في هذا المنزل يتحدث إلى ماله أذن.

– لقد ظللت أغلب الليل مستيقظة أفكر وهناك أمور عديدة يجب عملها. إن أبي و"**حوري**" ذهبا إلى معبد "**إيزيس**" ليتشاوروا مع الكاهن "**مرسو**" في محتويات الالتماس لوالدتي لكي تتدخل في الأمر.

– أعرف هذا. حسنا دعي والدك يشغل نفسه.بأرواح أموات، إن أفكاري مشغولة بأمور هذه الدنيا.. عندما يعود "**حوري**" احضريه إلى هنا. هناك أمور يجب قولها ومناقشتها، وأنا أستطيع أن أثق بـ"**حوري**" .

– "**حوري**" سيعرف ما يجب عمله. ونظرت إليها "**أسا**" بفضول:

– إنك تذهبين كثيرا لرؤيته في المقبرة أليس كذلك؟ فيم تتكلمان؟ وهزت "**رينسنب**" رأسها بإبهام:

– "آه.. النهر –و"**مصر**"– والطريقة التي يتغير بها الضوء ولون الرمال والأحجار.. ولكننا في أغلب الأحيان لا نتكلم بتاتا. إني أجلس هناك فقط في سلام دون أصوات عالية ودون أطفال باكية ودون ضجيج. بوسعي ان أفكر كما أشاء ولا يقاطع "**حوري**" افكاري، وفي بعض الأحيان أنظر إلى أعلى وأجده يراقبني ويبتسم كلانا.. إني سعيدة وأنا في أعلى الجبل هناك. قالت "**أسا**" ببطء:

– أنت محظوظة يا "**رينسنب**" . لقد وجدت السعادة التي هي في كل قلوب الناس، والسعادة بالنسبة إلى أغلبية النساء تعني الحركة الدائبة والانشغال بالأمور الصغيرة. إنها العناية بالأطفال والضحك والمحادثة والشجار مع النساء الأخريات والحب والغضب مع رجل. إنها مكونة من أمور صغيرة مرتبطة بعضها ببعض مثل

خرز منظوم.

– هل كانت حياتك هكذا يا جدتي؟

– معظمها، ولكن الآن وقد اصبحت عجوزا أجلس بمفردي كثيرا، وضعفت عيناي وأمشي بصعوبة فقد أدركت أن هناك حياة داخلية، كما أن هناك حياة خارجية، ولكنني كبرت ولم يعد في وسعي أن أتعلم طريقتها الصحيحة، ولذلك فإني أنهر خادمتي الصغيرة وأتمتع بالطعام الساخن الجيد من المطبخ، وأتذوق كل أنواع الخبز العديدة التي تخبزها، وأتمتع بالعنب الناضج وبعصير الرمان. إن هذه الأشياء تبقى عندما تفرغ الأمور الأخرى. إن الأولاد الذين كنت أحبهم قد ماتوا، وأبوك ليساعده "رع"، كان دائما ساذجا، كنت أحبه عندما كان طفلا يحبو ولكنه الآن يثيرني بتصنعه الأهمية. وأنا أحبك أكثر من كل أحفادي يا "**رينسنب**"، وعلى ذكر الأحفاد أين "**إيبي**"؟ لم أره اليوم ولا أمس.

– إنه مشغول جدا بمراقبة تخزين الحبوب. لقد ترك له أبي مسؤولية هذا العمل. وابتسمت "**أسا**":

– هذا سيسر ديكنا الصغير، إنه سيتبختر وهو ممتلئ بأهميته، عندما يأتي ليأكل ابعثي به إليّ.

– نعم يا "**أسا**".

– وبالنسبة إلى بقية الأمر يا "**رينسنب**"، الصمت..

-3-

– هل كنت تريدين رؤيتي يا جدتي؟ وقف "**إيبي**" يبتسم بكبرياء وراسه مائل جانبا قليلا وبين أسنانه وردة بيضاء. وبدا عليه السرور بنفسه وبحياته عموما. وقالت "**أسا**" وهي تفحصه بدقة:

– إذا كان بوسعك أن تمنحني برهة من وقتك الثمين. ولم تؤثر لهجتها الحادة في "**إيبي**".

– أنا حقيقة مشغول جدا اليوم فإن عليَّ أن أراقب كل شيء بما أن أبي ذهب إلى المعبد.

– إن الذئاب الصغيرة تعوي عاليا. ولكن "**إيبي**" لم يهتز:

– هيا يا جدتي إنك بلا ريب لديك أكثر من هذا تريدين قوله لي.

– بالتأكيد لديّ أكثر من هذا لأقوله وأولا هذا منزل حزين. إن جثمان أخيك "**سوبك**" بين أيدي الحنوطية ومع ذلك فوجهك مشرق كما لو كان هذا يوم عيد.

وابتسم "**إيبي**":

– إنك لست منافقة يا "**أسا**" فهل تريدين أن أكون أنا هكذا؟ أنت تعرفين جيدا أنني و"**سوبك**" لم نكن لنحب بعضنا، وكان يفعل كل ما بوسعه ليضايقني ويحبط خططي. كان يعاملني كطفل وكان يعهد إليّ بكل الأعمال المهينة والصبيانية في الحقول. وكثيرا ما كان يتهكم ويضحك عليّ، وعندما أراد أبي أن يشركني وأخوي الكبيرين معه كان "**سوبك**" هو الذي أقنعه بألا يفعل ذلك. وسألت "**أسا**" بحدة:

– ما الذي يجعلك تعتقد أن "**سوبك**" هو الذي أقنعه بذلك؟

– لقد قال لي ذلك "**كاماني**".

– "**كاماني**"؟ ورفعت "**أسا**" حاجبيها وأزاحت باروكتها إلى جانب وهرشت رأسها:

– "**كاماني**". إني أجد هذا الآن مهما.

– قال "**كاماني**" إنه سمع هذا من "**هينيت**"، ونحن متفقون جميعا على أن "**هينيت**" تعرف دائما كل شيء. وقالت "**أسا**" بجفاء:

– ومع ذلك فهذه المرة كانت "**هينيت**" مخطئة. كان من رأي "**سوبك**" و"**ياموس**" بلا ريب أنك صغير جدا على الأعمال.. ولكن أنا.. نعم أنا، التي أقنعت أباك بعدم مشاركتك.

– أنت يا جدتي.. وحدق إليها الصبي بدهشة حقيقية ثم بدا على ملامحه تجهم أسود، ووقعت الوردة من بين شفتيه.

– لماذا تفعلين هذا؟ ما شأنك؟

– إن شؤون أسرتي هي من صميم شؤوني.

– واستمع لك والدي؟

– ليس في أول مرة. لكنني سأعطيك درسا يا ولدي الجميل. إن النساء يحاورن ويتعلمن، إذا كن لم يولدن وهن يعرفن أن يلعبن على ضعف الرجال وقد تتذكر أنني بعثت "**هينيت**" بلعبة الشطرنج إلى الشرفة في المساء الرطب.

– إنني أتذكر. لقد لعبت أنا وأبي معا. وماذا في ذلك؟

– هذا. لقد لعبتما ثلاث مرات وبما أنك اللاعب الأمهر فقد هزمته في المرات الثلاث.

– نعم.

– هذا كل ما في الأمر. إن أباك كمثل كل اللاعبين الضعفاء لم يعجبه هزيمته، خصوصا من مجرد صبي ولذلك تذكر كلماتي، وقرر أنك صغير جدا عن أن تصبح شريكا. وحدق "**إيبي**" إليها لحظة ثم ضحك ضحكة غير سارة. وقال:

– إنك ذكية جدا يا "**أسا**". نعم قد تكونين عجوزا ولكنك ذكية. بالتأكيد فأنت وأنا أذكياء هذه الأسرة. لقد انتصرت عليَّ في أول مباراة ولكنك سترين أنني سأنتصر في المباراة القادمة، لذلك خذي حذرك يا جدتي.

– أنا أنوي ذلك وبدوري دعني أدعوك أنت أن تأخذ حذرك. إن أحد أخويك قد مات والآخر كاد أن يموت وانت أيضا ابن أبيك، وقد يصيبك ما أصابهم. وضحك "**إيبي**" باستهزاء:

– لا خوف من ذلك.

– ولم لا؟ أنت أيضا هددت وأهنت "**نوفريت**".

– "**نوفريت**"... كان ازدراء "**إيبي**" واضحا. وسألت "**أسا**" بحدة:

– ماذا يدور برأسك؟

– إن لي آرائي الخاصة يا جدتي وأستطيع أن أؤكد لك أن "**نوفريت**" وألاعيب روحها لا تقلقني. دعيها تفعل أقصى ما في وسعها. وندت صيحة حادة من ورائه ودخلت "**هينيت**" وهي تجري وتهتف:

– أيها الولد الأحمق، أيها الولد المتهور.. أتتحدى الأموات بعد كل ما ذقناه مما تستطيعه؟ ولا تلبس حتى حجابا لحمايتك.

– حماية؟ أنا سأحمي نفسي. ابعدي عن طريقي يا "**هينيت**" فإن ورائي عملا. إن هؤلاء الفلاحين الكسالى سيعرفون ما يعني وجود سيد حقيقي لهم... وأزاح "**هينيت**" جانبا وخرج بخطى واسعة. وقاطعت "**أسا**" عويل ونحيب "**هينيت**":

– استمعي إليَّ "**هينيت**" وكفاك تعجبا من "**إيبي**".. إنه قد يعرف ما يفعله وقد لا يعرف.. إن سلوكه غريب جدا لكن وأجيبيني على هذا: هل قلت لـ"**كاماني**" إن

"**سوبك**" هو الذي اقنع "**أمحتوب**" بالا يدخل "**إيبي**" في الشركة؟ وانخفض صوت "**هينيت**" إلى نبرته الباكية العادية:

– إني بالتأكيد مشغولة جدا في المنزل لكي يضيع وقتي بالجري هنا وهناك وتزويد الناس بالأخبار، و"**كاماني**" من دون الناس جميعا. إني متأكدة من اني لا اكلمه إلا إذا جاء إليّ وكلمني هو. إن له طريقة لطيفة كما يجب أن تعرفي بنفسك يا "**أسا**"، وأنا لست الوحيدة التي تفكر فيه هكذا، آه لا. وإذا أرادت أرملة شابة أن تعقد قرانها من جديد فإنها في العادة تختار شابا وسيما، ولو أني لا أعرف ما سيقوله "**أمحتوب**" فإن "**كاماني**" مجرد كاتب صغير قبل كل شيء.

– دعك من هو "**كاماني**"؟ هل قلت له إن "**سوبك**" هو الذي عارض دخول "**إيبي**" في الشركة؟

– حسنا، في الحقيقة يا "**أسا**" لا أستطيع أن أتذكر ما قد أكون قلته أو لم أقله. وفي الواقع فإني لم أذهب لأحد وأقل له اي شيء. هذا أمر أكيد، ولكن قد تُسمع كلمة من هنا وهناك وأنت نفسك تعلمين ما الذي كان يقوله "**سوبك**"، و"**ياموس**" أيضا في هذا الأمر، ولو أنه بالطبع لم يكن ليتكلم بصوت عال مثله ولا كان يردد هذا بكثرة مثل "**سوبك**"، إن "**إيبي**" مجرد صبي ولن ينفع هذا أبدا، وقد يكون "**كاماني**" سمعه منه وهو يقول هذا وليس مني أنا فإنني لا أثرثر أبدا، ولكن بعد كل هذا فإن الإنسان أُعطي لسانا ليتكلم به وأنا لست خرساء بكماء.

– أنت بالتأكيد لست كذلك. إن اللسان يا "**هينيت**" يكون أحيانا سلاحا. إن اللسان قد يسبب أكثر من موت واحد وآمل الا يكون لسانك انت يا "**هينيت**" قد تسبب في موت أحد.

– "**أسا**"! ماذا تقولين. وماذا يدور في رأسك؟ انا متأكدة انا لا اقول لأحد أبدا كلمة لست مستعدة لأن يسمعها أمام العالم أجمع. أنا مخلصة جدا للعائلة كلها، وعلى استعداد لأن أموت من أجل أي فرد فيها.آه إنهم لا يقدرون إخلاص "**هينيت**" العجوز. لقد وعدت والدتهم الغالية... وقاطعتها "**أسا**" بجفاء:

– ها. ها هي فرختي السمينة المطهوة بالكرات والكرفس.. إن رائحتها بديعة وهي مطهية كما يجب، بما أنك متفانية إلى هذه الدرجة يا "**هينيت**" فيمكنك أن تأخذي قطعة صغيرة من جانب لعلها تكون مسمومة. وصرخت "**هينيت**":

– "أسا"! مسمومة.. كيف يمكنك أن تقولي شيئا كهذا وهي مطبوخة في مطبخنا أيضا؟ وقالت "أسا":

– حسنا يجب أن يذوقها أحد احتياطيا. ومن الأفضل أن يكون أنت يا "هينيت" بما أنك مستعدة لأن تموتي من أجل أي فرد في العائلة. إني لا أظن أنها ستكون ميتة مؤلمة.. هيا يا "هينيت" انظري كم هي سمينة وشهية. كلا شكرا أنا لا أريد أن أفقد جاريتي الصغيرة فهي صغيرة ومرحة، وأنت قد تخطيت أفضل أيامك يا "هينيت" ولا يهم كثيرا ماذا يحدث لك. هيا الآن، افتحي فمك.. ممتازة أليس كذلك؟ أنا لا أقول، لقد اخضر لونك. ألم تعجبك نكتتي الصغيرة؟ أنا لا أعتقد أنها أعجبتك ها. ها.. وتمايلت "أسا" من كثرة الضحك ثم تمالكت نفسها فجأة وبدأت تأكل طبقها المفضل بشهية.

الفصل السادس عشر

انتهت الاستشارة في المعبد وتم إعداد وتدبيج صيغة الالتماس وقد اشتغل فيها بهمة "حوري" وكاتبان آخران من المعبد. والآن أخيرا اتخذت الخطوة الأولى ووقع الكاهن آمرا بقراءة مسودة الالتماس: "إلى روح السيدة الجليلة "أياشات". هذه الرسالة من زوجك. هل نسيت الزوجة زوجها؟ هل نسيت الأم أولادها الذين ولدتهم..؟ ألا تعرف السيدة الجليلة "أياشات" أن روحا شريرة تهدد أولادها؟ إن "سوبك" ابنها قد ذهب إلى "أوزوريس" مسموما. لقد عاملتك بكل احترام في دنياك، وأعطيتك الجواهر والملابس والدهون والعطور، ولقد عشنا في سلام ومودة سويا وعندما مرضت لم أبخل عليك بشيء، وأحضرت لك طبيبا نابغة ودفنت بكل احترام وبالطقوس الأصولية وأعددت كل الأمور التي تحتاجين إليها في حياتك المقبلة، الخدم والثيران ومأكولات ومشروبات وجواهر وملابس وحزنت عليك سنوات كثيرة، وبعد سنوات طويلة اتخذت فقط محظية لكي أعيش كما يجب أن يعيش رجل لم يكبر بعد. إن هذه المحظية هي التي تقوم بأعمال شريرة ضد أولادك. ألا تعرفين هذا؟ ربما تجهلينه وبالتأكيد عندما تعرفين ستهرعين لنجدة أولادك. هل من الممكن أنك تعرفين ولكن الشر مازال مستمرا؛ لأن المحظية "نوفريت" تملك سحرا

شريرا قويا؟ لكن بالتأكيد أن هذا ضد رغبتك يا "**أياشات**" . لذلك تذكري أن لك في حقل القرابين أقارب أقوياء. "**إيبي**" النبيل العظيم الساقي الأول للوزير. اطلبي معونته وأيضا خالك "**مير بتاح**" القوي العظيم حاكم الولاية بلغيه الحقيقة المخجلة. دعي الأمر ينظر في محكمته واستدعي الشهود ودعيهم يشهدون ضد "**نوفريت**" بأنها فعلت شرا. وليصدر حكم ولتدان "**نوفريت**" وليحكم عليها بالا ترتكب شرا ضد هذا البيت. آه أيتها السيدة الجميلة "**أياشات**" إذا كنت غاضبة من زوجك "**أمحتوب**"؛ لأنه استمع إلى تحريض هذه المرأة الشريرة، وهدد بأن يظلم أولادك فتذكري أنه ليس وحده الذي يتألم ولكن أولادك أيضا يتألمون. سامحي زوجك "**أمحتوب**" من أجل ما فعله بأولادك" . وتوقف الكاتب الأول عن القراءة وأومأ "**مرسو**" موافقا.

– إنها مكتوبة جيدا ولا أعتقد أننا أغفلنا فيها شيئا. ونهض "**أمحتوب**" :

– أنا أشكرك أيها الكاهن المبجل وستصلك قرابيني قبل أن تغرب الشمس غدا، مواشي وزيت وكتان.. هل نحدد اليوم الذي يلي ذلك للطقوس ووضع البلأص المنقوش في غرفة القرابين التابعة للمقبرة؟

– اجعلها ثلاثة أيام من الآن، فإنه يجب نقش الكلام على البلأص والإعداد للطقوس الضرورية.

– كما تشاء. إني مشغول البال وأخشى أن تقع أية مصيبة أخرى.

– أفهم قلقك جيدا يا "**أمحتوب**" ولكن لا تخف إن روح "**أياشات**" الطيبة ستستجيب بالتأكيد لهذا الالتماس، وأقاربها أقوياء ولهم نفوذ وفي وسعهم أن ينفذوا العدالة حيث تستحق بجدارة.

– لتسمح "**إيزيس**" بهذا. أشكرك يا "**مرسو**"، لعنايتك ولشفائك لابني "**ياموس**" . هيا يا "**حوري**" علينا الكثير الذي يجب عمله فلنرجع إلى المنزل. آه إن هذا الالتماس قد أزاح حملا عن ذهني إن "**أياشات**" المبجلة لن تتخلى عن زوجها الحائر.

-2-

كانت "**رينسنب**" تترقب "**حوري**" عندما دخل الفناء وهو يحمل رزمة أوراق البردي وجاءت تجري من البحيرة.

– "**حوري**".

– نعم يا "**رينسنب**".

– هل تأتي معي إلى "**أسا**"؟ إنها تنتظرك وتريدك.

– بالطبع. دعيني أرى إذا كان "**أمحتوب**"... ولكن "**إيبي**" كان قد حاصر أباه وكان الابن والأب منهمكين في الحديث.

– دعيني أضع هذه الرزم والأشياء الأخرى وسآتي معك يا "**رينسنب**". وبدت "**أسا**" مسرورة عندما دخلت عليها "**رينسنب**" و"**حوري**".

– ها هو "**حوري**" يا جدتي. لقد أتيت به إليك فوراً.

– حسنا. هل الجو لطيف في الخارج؟ وأخذت "**رينسنب**" تفكر قليلا، ثم قالت:

– أعتقد ذلك...

– إذن ناوليني عصاي فإني سأمشي قليلا في الفناء. كانت "**أسا**" قليلا ما تترك المنزل ولذلك كانت "**رينسنب**" مندهشة. وقادت المرأة العجوز وهي تسندها بيدها ومضوا عبر البهو الرئيسي إلى الشرفة.

– هل تجلسين هنا يا جدتي؟

– كلا يا بنتي سأمشي حتى البحيرة. كانت "**أسا**" تتقدم ببطء ومع أنها كانت تعرج إلا أنها لم يبد عليها التعب، وكانت قدماها قويتين، ونظرت حولها واختارت بقعة بجانب البحيرة كانت فيها زهور وتظللها شجرة جميز. ثم قالت برضاء بعد أن استقرت:

– هنا نستطيع الآن أن نتكلم دون أن يسمعنا أحد. قال "**حوري**" مستحسنا:

– أنت حكيمة يا "**أسا**".

– إن الكلام الذي سيقال لا يجب أن يعرفه أحد سوانا نحن الثلاثة. أنا أثق بك يا "**حوري**". لقد ظللت معنا منذ أن كنت ولدا صغيرا، وكنت دائما مخلصا كتوما وحكيما. إن "**رينسنب**" هي أحب أحفادي إليَّ، ولا يجب أن يصيبها أذى يا "**حوري**".

– لن يصيبها أذى يا "**أسا**" . لم يرفع "**حوري**" صوته ولكن نبراته والنظرة التي في عينيه أرضت السيدة العجوز تماما.

– هذا قول حسن يا "**حوري**" –بهدوء وبلا حماس ولكن كمن يعني ما يقول– والآن ماذا تم اليوم؟ وروى "**حوري**" مضمون الالتماس واستمعت "**أسا**" بعناية. ثم قالت:

– استمع إليّ يا "**حوري**" وانظر إلى هذا... وأخرجت العقد من ثوبها وأعطته له وأضافت:

– قولي له يا "**رينسنب**" أين وجدته... وأخبرته "**رينسنب**" . ثم قالت "**أسا**" :

– حسنا يا "**حوري**" ما رأيك؟ صمت "**حوري**" برهة ثم سأل:

– أنت كبيرة وحكيمة يا "**أسا**" ما رأيك أنت؟

– إنك يا "**حوري**" أحد الذين لا يحبون أن يتكلموا بعجلة دون أدلة. إنك كنت تعرف منذ البداية كيف ماتت "**نوفريت**" أليس كذلك؟

– كنت أشك في الحقيقة يا "**أسا**" . كان مجرد شك.

– بالضبط. وكل ما لدينا الآن مجرد شك، ومع ذلك فهنا بجوار البحيرة وبيننا نحن الثلاثة ممكن أن نتحدث عن الشك. ولا نتكلم عنه بعد ذلك. يبدو لي أن هناك ثلاثة تعليلات للأمور المفجعة التي حدثت: أولا: إن الراعي قد صدق، وإن ما رآه هو في الحقيقة شبح "**نوفريت**" الذي عاد من الموت، وإن لها رغبة شريرة لتنتقم أكثر من ذلك بجلب الحزن والأسى لأسرتنا. هذا ممكن، ويقول الكهنة والآخرون إن هذا ممكن، ونحن نعرف أن الأمراض تسببها الأرواح الشريرة، ولكن يبدو لي –أنا المرأة العجوز التي لا تميل إلى تصديق الكهنة والآخرين– أن هناك احتمالات أخرى. قال "**حوري**" :

– مثل؟

– لتعترف بأن "**نوفريت**" قتلت بيد "**ساتيبي**" ، وأنه بعد ذلك بمدة خيل لـ"**ساتيبي**" أنها رأت "**نوفريت**" وأنها وقعت وماتت نتيجة لخوفها وشعورها بالذنب. إن كل هذا واضح بما فيه الكفاية، ولكن لننظر الآن إلى احتمال آخر، وهو أنه بعد ذلك أراد أحدهم –لسبب لا نعرفه بعد– أن يتسبب في موت اثنين من أبناء "**أمحتوب**" ، وهذا الشخص اعتمد على خوف خرافي يسند الجريمة إلى شبح

"**نوفريت**"، وهو افتراض ملائم بشكل غريب. وصاحت "**رينسنب**" :

– من يريد قتل "**ياموس**" أو "**سوبك**"؟.. أجابت "**أسا**" :

– ليس الخدم فإنهم لا يجرؤون وهذا يترك لنا أفرادا قليلين نختار من بينهم.

– واحد منا؟ لكن كيف يمكن هذا يا جدتي؟ قالت "**أسا**" بجفاء:

– اسألي "**حوري**" ولاحظي أنه لم يعترض. وتحولت "**رينسنب**" نحوه.

– "**حوري**"... بالتأكيد؟ وهز "**حوري**" رأسه بجد:

– "**رينسنب**" أنت صغيرة وتثقين بالناس. أنت تعتقدين أن كل شخص تعرفينه وتحبينه هو كما يبدو لك.. أنت لا تعرفين قلب الإنسان والمرارة، نعم بل والشر الذي قد يحتويه.

– لكن من.. من منهم؟ وقاطعتها "**أسا**" :

– لنرجع إلى هذه الرواية التي قالها الراعي. إنه رأى امرأة مرتدية ثوب لينون مصبوغ، وتضع عقد "**نوفريت**"، والآن إذا لم يكن هذا شبحا فإنه إذن رأى بالضبط ما ذكره، وهذا يعني أنه رأى امرأة تحاول متعمدة أن تبدو مثل "**نوفريت**". قد تكون "**كيت**" وقد تكون "**هينيت**" وقد تكون انت يا "**رينسنب**" وعن هذا البعد قد يكون أي أحد يلبس ثوب امرأة وباروكة. صه.. دعوني أكمل. إن الاحتمال الآخر هو أن الولد يكذب، وأنه روى رواية أوحى له بها أحدهم، وأنه كان يطيع شخصا له الحق في أن يامره، وقد يكون غبيا لدرجة أنه لم يدرك النقطة في الرواية التي أُرشي أو خُدع ليقولها. إننا لن نعرف أبدا الآن لأن الولد قد مات، وهذا في ذاته نقطة مهمة. إن هذا يجعلني أميل إلى الاعتقاد أن الولد روى رواية علمها إياه شخص ما، ولو كان قد استجوب بعمق كما كان سيحدث اليوم، فإنه كان سيتعثر في روايته، فإنه من السهل بقليل من الصبر اكتشاف ما إذا كان طفل يكذب. قال "**حوري**" :

– إذن فانت تعتقدين أن بيننا شخص يدس السم؟

– نعم. ألا تعتقد أنت ذلك؟ ردَّ "**حوري**" :

– أنا أيضا أعتقد هذا. ونظرت "**رينسنب**" من واحد إلى الآخر بحسرة. ومضى "**حوري**" يقول:

– ولكن يبدو لي أن الدافع ليس واضحا. قالت "**أسا**" :

– أنا أوافقك ولهذا فإني لست مرتاحة. أنا لا أعرف مَنْ المهدِّد بعد ذلك. وقاطعتها "**رينسنب**" :

– لكن أحدنا؟ وكان صوتها مازال غير مصدق. وقالت "**أسا**" بحزم:

– نعم يا "**رينسنب**"، أحد منا. "**هينيت**" أو "**كيت**" أو "**إيبي**" أو "**كاماني**" أو حتى "**أمحتوب**" نفسه.. نعم أو "**أسا**" أو "**حوري**" أو حتى... وابتسمت "**رينسنب**". قال "**حوري**" :

– أنت مخطئة يا "**أسا**". يجب أن نحسب أنفسنا. وكان في صوت "**رينسنب**" ذعر وتساؤل:

– لكن لماذا؟.. لماذا؟ قالت "**أسا**" :

– لو كنا نعرف السبب لعرفنا تقريبا كل ما نريد معرفته، إننا نستطيع فقط أن نركِّز في الذين هوجموا. تذكروا أن "**سوبك**" لحق بـ"**ياموس**" على غير انتظار بعد أن بدأ "**ياموس**" يشرب. من المؤكد إذن أن الفاعل كان يريد قتل "**ياموس**"، وهناك تأكيد أقل بأن هذا الشخص كان يريد قتل "**سوبك**". وتكلمت "**رينسنب**" بتشكك:

– لكن من يرغب في قتل "**ياموس**"، إن "**ياموس**" بالتأكيد دوننا جميعا لا أعداء له. إنه دائما هادئ وطيب. قال "**حوري**" :

– إذن فمن الواضح أن الدافع ليس حقدا شخصيا، وكما تقول "**رينسنب**" إن "**ياموس**" ليس من طراز الرجل الذي له أعداء. "**أسا**" :

– كلا إن الدافع أكثر غموضاً من ذلك. إننا هنا نواجه إما عداوة ضد الأسرة كلها كوحدة، أو أن هناك خلف كل هذه الأمور الجشع الذي حذرنا منه "**بتاح**". إنه كما يقول حزمة من كل نوع من الشر، وعصبة من كل شيء سيئ. قال "**حوري**" :

– إنني أرى الاتجاه الذي يميل نحوه عقلك يا "**أسا**"، ولكن لكي نتوصل إلى أية نتيجة يجب أن نتنبأ بالمستقبل. وأومأت "**أسا**" برأسها بشدة وانحرفت باروكتها على إحدى أذنيها، ومع أن مظهرها كان مضحكا إلا أن أحدا لم يشعر بميل إلى الضحك وقالت:

– تنبأ يا "**حوري**". وظل "**حوري**" صامتا لدقيقة أو دقيقتين وعيناه فيهما تفكير وانتظرت المرأتان ثم تكلم أخيرا:

- لو كان "**ياموس**" قد مات كما كانت النية، إذن لأصبح المنتفعون الأوائل هم ابنا "**أمحتوب**" الباقيين "**سوبك**" و"**إيبي**" .. ودون شك إن جزءاً من الضيعة كان سيخصص لأولاد "**ياموس**" ولكن إدارة الأرض كانت ستكون بين أيديهما، وبين يدي "**سوبك**" بالأخص. وبلا ريب أن "**سوبك**" كان سيصبح أكبر منتفع. وفي الغالب كان سيقوم مقام "**أمحتوب**" ككاهن القبر في غيابه، وكان سيرث هذا المنصب بعد وفاته، ولكن مع أن "**سوبك**" كان هو المنتفع الأول إلا أنه لم يكن المذنب؛ لأنه هو نفسه شرب من الشراب المسموم لدرجة أنه مات. لذلك فعلى قدر ما أستطيع أن أراه فإن موت هذين الاثنين كان يفيد شخصا واحدا معينا في هذا الوقت، وهذا الشخص هو "**إيبي**" ... وقالت "**أسا**" موافقة:

- ولكنني الاحظ يا "**حوري**" أنك بعيد النظر وانا أقدر معنى جملتك الوصفية. لكن دعنا نبحث أمر "**إيبي**" إنه صغير، ومتعجل للأمور، وهو من عدة نواح سيئ الطباع، وهو في سن يبدو له فيها أن أهم شيء في الحياة هو أن يحصل على ما يريد، ولقد شعر بغضب واستياء من أخويه الكبيرين، واعتقد أنه قد اسْتُبعد دون حق من المساهمة في المشاركة العائلية، ويبدو أيضا أن "**كاماني**" قال له أشياء دون حكمة.

- "**كاماني**"؟ كانت "**رينسنب**" هي التي قاطعتها، وما كادت تفعل ذلك حتى احمر وجهها وعضت شفتيها، وادار "**حوري**" رأسه لينظر إليها وشعرت بحرج لا تفهمه من نظرته الطويلة الرفيقة. ومدت "**أسا**" عنقها إلى الأمام وحدقت إلى "**رينسنب**" وقالت:

- نعم "**كاماني**". اما إذا كان هذا بإيعاز أو لا من "**هينيت**" فامر آخر، لكن الواقع هو أن "**إيبي**" الذي هو طموح ومتعجرف كان يتبرم من سلطة أخويه الأكبر من سلطته، ويعتبر نفسه دون شك -كما قال لي منذ مدة طويلة- الرأس المفكر الذكي في العائلة. وكان صوت "**أسا**" جافا. قال "**حوري**":

- هل قال ذلك لك أنت؟

- إنه كان من الكرم بحيث أنه أشركني مع نفسه في ملكية كمية معينة من الذكاء. وسالت "**رينسنب**" غير مصدقة:

- أتعتقدين أن "**إيبي**" سم "**ياموس**" و"**سوبك**" متعمدا؟

- أنا أعتبره مجرد احتمال. إن ما نتكلم عنه الآن هو الشك. ولا نملك حتى الآن دليلا.. إن الرجال قد قتلوا إخوتهم منذ الأزل، وهم يعرفون ان الآلهة لا تحب هذا، ولكنهم رغم ذلك مدفوعين بالشرور والجشع والحقد. ولو كان "إيبي" قد فعل هذا فإننا لن نجد من السهل الحصول على ما يثبت ما فعله لأن "إيبي"، وأنا أعترف بهذا، ذكي. وأومأ "حوري" ومضت "أسا" تقول:

- لكن كما اقول نحن الآن نتكلم تحت الشجرة عن الشك، وسنمضي ننظر إلى كل فرد من الأسرة على ضوء الشك، وكما أقول إنني أستبعد الخدم فأنا لا أصدق ولو لدقيقة ان أي واحد منهم يجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل. ولكن لا أستبعد "هينيت". وهتفت "رينسنب":

- "هينيت"؟ لكن "هينيت" متفانية لنا جميعا وهي لا تكف عن ترديد ذلك.

- إنه من السهل الكذب كما أنه من السهل الصدق. إني أعرف "هينيت" منذ سنوات عديدة، عرفتها منذ أن جاءت إلى هنا وهي شابة مع والدتك، وكانت قريبة لها، فقيرة وتعسة وكان زوجها لا يحبها. وكانت "هينيت" في الواقع قبيحة، وكان قد طلقها والطفل الوحيد الذي رزقت به مات في المهد. وجاءت إلى هنا وهي تتصنع التفاني لوالدتك، ولكنني رأيت عينيها وهي تراقب والدتك وهي تتحرك في المنزل وفي الفناء، واقول لك يا "رينسنب" إنه لم يكن فيهما حب. كلا بل كان فيهما شيء أقرب إلى الحسد المر، وأما ادعاؤها بانها تحبكم فانا لا أثق به. قال "حوري":

- قولي لي يا "رينسنب". الا تشعرين بمودة نحو "هينيت"؟ أجابت "رينسنب":

- كلا، لا أستطيع وقد لمت نفسي كثيرا لأني لا أحبها.

- الا تظنين ان هذا لأنك بالغريزة تعرفين ان كلماتها كاذبة؟ هل أظهرت لك أبدا حبها المزعوم بأي خدمة حقيقية؟ الم تثر دائما الخلافات بينكم جميعا بالهمس وبترديد أمور من الجائز أن تجرح وتتسبب في غضب؟

- نعم.. نعم، هذا حقيقي. وضحكت "أسا" ضحكة جافة. وقالت:

- إن لك عينين وأذنين في رأسك يا "حوري" العظيم. وناقشت "رينسنب":

- لكن أبي يودها ويصدقها. قالت "أسا":

– إن ابني كان وسيظل دائما ساذجا. إن الرجال جميعا يحبون المديح، و"**هينيت**" تستعمل العطور في كل حفل. قد تكون حقيقة مخلصة له وفي بعض الأحيان أظن ذلك، ولكنها بالتأكيد ليست مخلصة لأي شخص آخر في هذا المنزل. واعترضت "**رينسنب**":

– ولكنها بالتأكيد لم تقتل. لماذا تريد أن تقتل أي واحد منا؟ ما الخير الذي سيصيبها من ذلك؟

– لا شيء.. لاشيء. أما لماذا، فأنا لا أعرف شيئا عما يجري في رأس "**هينيت**". ما تفكر فيه وما تشعر به هذا ما لا اعرفه. ولكن أعتقد أن أمورا غريبة تختمر خلف هذا السلوك المتذلل المتملق، وإذا كان هذا صحيحا فإن أسبابها لن تفهميها أنت أو "**حوري**" أو أنا. وأومأ "**حوري**":

– هناك عفن يبدأ من الداخل.. لقد كلمت "**رينسنب**" في هذا مرة. قالت "**رينسنب**":

– ولم أفهمك ولكني بدأت أفهم الآن أفضل من قبل.. لقد بدأ بمجيء "**نوفريت**"، لقد رأيت حينئذ كيف أنه لا أحد منا مثلما كنت أظن تماما وأخافني هذا والآن... وأتت بيديها بإشارة كمن لا حول لها:

– كل شيء يخيف. قال "**حوري**":

– إن الخوف هو المعلومات الناقصة، وعندما نعرف يا "**رينسنب**" لن يعود هناك خوف. ومضت "**أسا**" تقول:

– ثم هناك بالطبع "**كيت**". واعترضت "**رينسنب**":

– ليست "**كيت**". إن "**كيت**" لن تحاول قتل "**ياموس**". هذا شيء لا يصدق؟ قالت "**أسا**":

– لا يوجد شيء لا يصدق.. على الأقل هذا ما تعلمته في مجرى حياتي. إن "كيت" امرأة غبية تماما، وأنا دائما لا أثق بالنساء الغبيات فإنهن خطيرات، إنهن لا يستطعن رؤية شيء إلا محيطهن المباشر، وشيء واحد فقط في وقت واحد. إن "**كيت**" تعيش في قلب عالم صغير مكون من نفسها وأولادها و"**سوبك**" بوصفه والد الأولاد، وقد تفكر ببساطة في أن إزالة "**ياموس**" سيغني أطفالها. إن "**سوبك**" كان دائما غير مرض في عين "**أمحتوب**". إنه كان متهورا لا يطيق الرقابة وليس مرنا

وكان "**ياموس**" هو الابن الذي يعتمد عليه "**أمحتوب**". لكن بموت "**ياموس**" كان "**أمحتوب**" سيضطر إلى الاعتماد على "**سوبك**". وأنا أعتقد أنها سترى الموضوع ببساطة هكذا تماما. وارتعدت "**رينسنب**"، فعلى الرغم منها أدركت أن هذا وصف حقيقي لموقف "**كيت**" من الحياة. إن رقتها وحنانها وكل حركاتها الهادئة الحبيبة موجهة لأطفالها والعالم لا وجود له في نظرها خارج نفسها وأطفالها و"**سوبك**"، وهي تنظر إلى العالم دون فضول أو اهتمام. وقالت "**رينسنب**" ببطء:

– لكنها بالتأكيد أدركت أنه من الممكن جدا أن يعود "**سوبك**" كما عاد عطشان ويشرب أيضا من هذا الشراب؟ قالت "**أسا**":

– كلا لا أعتقد أنها كانت ستدرك هذا فإن "**كيت**" كما أقول غبية، وهي ترى فقط ما تريد أن تراه، "**ياموس**" يشرب ويموت وينسب الأمر إلى السحر– إلى سحر فاتنتنا الشريرة "**نوفريت**"– إنها ترى فقط شيئا واحدا بسيطا، وليس إمكانات أو احتمالات عديدة ومتنوعة، وبما أنها لم تكن لتريد أن يموت "**سوبك**" فلن يخطر ببالها أنه سيعود على غير انتظار.

– والآن مات "**سوبك**"، و"**ياموس**" على قيد الحياة كم يكون هذا فظيعا بالنسبة إليها إذا كان ما تخمنينه صحيحا.

– إنه من الأمور التي تحدث للمرء إذا كان غبيا، فإن الأمور تجري مختلفة جدا عن الطريقة التي يعدها... وتوقفت ثم مضت تقول:

– والآن نأتي لـ"**كاماني**". وشعرت "**رينسنب**" بأنه من الضروري أن تقول الكلمة بهدوء ودون اعتراض:

– "**كاماني**"؟ ومرة أخرى شعرت بعدم ارتياح وهي تشعر بعيني "**حوري**" عليها.

– نعم نحن لا نستطيع أن نستبعد "**كاماني**". لا يوجد لديه دافع معروف لإيذائنا، ولكن ما الذي نعرفه عنه حقيقة؟ إنه جاء من الشمال من نفس المكان الذي جاءت منه "**نوفريت**" إنه ساعدها –برضائه أو على الرغم منه– من يستطيع أن يعرف؛ ليغير قلب "**أمحتوب**" ضد أولاده، لقد راقبته في بعض الأحيان وفي الحقيقة فإني لا أفهمه. إنه يبدو لي على العموم شابا عاديا يتمتع ببعض الذكاء، وهو أيضا إلى جانب كونه وسيما له شيء يجذب إليه أعين النساء. نعم إن النساء سيعجبن دائما بـ"**كاماني**" ومع ذلك فأنا أعتقد –وقد أكون مخطئة– أنه ليس من

الطراز الذي له تأثير حقيقي في قلوبهن وعقولهن. إنه يبدو دائما مرحا ولا يحمل هما ولم يبد عليه حزن شديد عند وفاة "**نوفريت**"، ولكن كل هذه مظاهر خارجية. من يستطيع أن يعلم ماذا يجري في القلب البشري؟ إن الرجل المصمم يمكنه بسهولة أن يلعب دوره. هل "**كاماني**" في الحقيقة يستنكر بشدة موت "**نوفريت**"، وهل يسعى لكي ينتقم لها؟ الآن "**ساتيبي**" قتلت "**نوفريت**" يجب أن يموت زوجها "**ياموس**" أيضا؟ نعم و"**سوبك**" أيضا الذي هددها وربما "**كيت**" التي كانت تضطهدها بطرق حقيرة و"**إيبي**" الذي كان يكرهها أيضا؟ إن هذا يبدو خياليا ولكن من يعلم؟ توقفت "**أسا**" ونظرت إلى "**حوري**".. قال "**حوري**":

– من يعلم يا "**أسا**"؟ ونظرت إليه "**أسا**" بخبث.

– ربما تستطيع أن تقول أنت يا "**حوري**"؟ إنك تعتقد أنك تعرف اليس كذلك؟

وصمت "**حوري**" برهة ثم قال:

– نعم إن لي فكرة في رأسي عمن سمم الشراب والسبب لذلك، ولكنها ليست واضحة تماما الآن.. وفي الحقيقة فإنني لا أرى... وتوقف لدقيقة ثم هز رأسه:

– كلا ليس بوسعي أن أوجه اتهاما محددا.

– إننا نتكلم هنا فقط عن الشك. أكمل يا "**حوري**" تكلم. وهز "**حوري**" رأسه:

– كلا يا "**أسا**". إنها مجرد فكرة معتمة.. ولو كانت صحيحة فإن من الأفضل لك إذن الا تعرفي. إن معرفتك قد تكون خطرا عليك ونفس الشيء ينطبق على "**رينسنب**".

– إذن فإن ما تعرفه خطر عليك أنت أيضا يا "**حوري**".

– نعم إنه خطر.. وأعتقد يا "**أسا**" أننا جميعا في خطر، ولو أن "**رينسنب**" ربما كانت أقلنا تعرضا للخطر. ونظرت إليه "**أسا**" لبعض الوقت دون أن تتكلم ثم قالت أخيرا:

– أنا على استعداد لبذل الكثير لمعرفة ما في ذهنك. ولم يجب "**حوري**" في الحال وقال بعد برهة بدا أنه يفكر في خلالها:

– إن المفتاح الوحيد لما في عقول الناس هو سلوكهم. إذا تصرف رجل بطريقة غريبة وغير مألوفة دون أن يكون على طبيعته... قالت "**رينسنب**":

– حينئذ تشك فيه؟ أجاب "**حوري**":

– كلا.. هذا بعينه هو ما أعنيه. إن الرجل الشرير الذي ينوي الشر يدرك هذا ويعرف انه يجب أن يخفيه باي ثمن، وهو لذلك لا يجرؤ على أن يتصرف أي تصرف غير عادي.. قالت "**أسا**":

– رجل؟

– رجل أو امرأة. الأمر سيان. قالت "**أسا**":

– حقا.. ورمقته بنظرة فاحصة ثم قالت:

– وماذا عنا؟ ماذا عن الشك فينا نحن الثلاثة؟ قال "**حوري**":

– هذا أيضا يجب مواجهته. أنا موثوق بي جدا. إن العقود وبيع المحاصيل بين يديَّ، وبوصفي كاتبا أتولى كل الحسابات، فإن من المحتمل أن أكون قد زورتها، كما اكتشف "**كاماني**" في الشمال، ثم قد يكون "**ياموس**" قد حيره الأمر وبدأ يشك، ولذلك يكون من الضروري لي أن أسكت "**ياموس**"، وابتسم قليلا من كلامه هذا. قالت "**رينسنب**":

– آه كيف يمكن أن تقول أشياء كهذه؟! لا أحد ممن يعرفونك سيصدق هذا الكلام. قالت "**أسا**":

– وأنا؟ أين الشك من ناحيتي، حسنا أنا عجوز وفي بعض الأحيان يمرض العقل عندما يكبر ويكره ما كان يحب. ربما أكون قد سئمت أحفادي وأسعى لتدمير من هم من لحمي ودمي. إنه مرض من فعل روح شريرة يصيب أحيانا الكبار. قالت "**رينسنب**":

– وأنا؟ لماذا أحاول قتل أخي الذي أحبه؟ قال "**حوري**":

– لو مات "**ياموس**" و"**سوبك**" و"**إيبي**" فستكونين آخر أولاد "**أمحتوب**"، وسيجد لك زوجا وترثين كل شيء هنا، وتصبحين أنت وزوجك أوصياء على أولاد "**ياموس**" و"**سوبك**"، ثم ابتسم وتابع قوله:

– ولكن هنا تحت الشجرة، شجرة الجميز فإننا لا نشك فيك يا "**رينسنب**". قالت "**أسا**":

– تحت شجرة الجميز أو في غير هذا المكان فإننا نحبك.

الفصل السابع عشر

قالت "**هينيت**" وهي تدخل بضوضاء بينما كانت "**أسا**" تعرج داخلة إلى غرفتها:

– إذن فقد كنت خارج المنزل؛ هذا شيء لم تفعليه من سنة تقريبا.. ونظرت لـ"**أسا**" بتساؤل. قالت "**أسا**":

– إن الكبار لهم نزوات.

– رأيتك جالسة بجوار البحيرة مع "**حوري**" و"**رينسنب**".

– كلاهما مجلسه لطيف. هل هناك شيء لا ترينه أبدًا يا "**هينيت**"؟

– حقا يا "**أسا**". إني لا اعرف ما تعنين. كنت جالسة هناك وبوسع العالم أجمع أن يراك.

– لكنني لم اكن قريبة بما فيه الكفاية ليسمعني العالم اجمع. وابتسمت "**أسا**" واستشاطت "**هينيت**" غضبا:

– لا أعرف لماذا أنت قاسية معي إلى هذا الحد يا "**أسا**". إنك دائما تلمحين إلى أمور. إني مشغولة جدا بمراقبة العمل في المنزل ليتم كما يجب، فليس لديَّ متسع من الوقت لأسمع أحاديث الناس. ماذا يهمني مما يقوله الناس؟

– هذا ما تساءلت عنه مرارا.

– لو لم يكن لأجل "**أمحتوب**" الذي يقدرني. وقاطعتها "**أسا**" بحدة:

– نعم لولا "**أمحتوب**"..! إنك تعتمدين على "**أمحتوب**" أليس كذلك؟ ولو جرى أي شيء لـ"**أمحتوب**"... وكان دور "**هينيت**" أن تقاطع:

– لن يجري شيء لـ"**أمحتوب**".

– كيف تعرفين يا "**هينيت**"؟ هل هناك أي أمان في هذا المنزل؟ إن شيئا ما حدث لـ"**ياموس**" و"**سوبك**"؟

– هذا حقيقي، "**سوبك**" مات. و"**ياموس**" كاد أن يموت. وانحنت "**أسا**" إلى الأمام وسألت:

– "**هينيت**" لماذا ابتسمت عندما قلت هذا؟

– أنا؟ ابتسمت... أنت تحلمين يا "**أسا**". هل من المحتمل أن ابتسم في وقت كهذا وأنا أتكلم عن هذا الأمر الفظيع؟ قالت "**أسا**":

– أنا حقيقة شبه عمياء، ولكني لست عمياء تماما، وفي بعض الأحيان بحركة من الضوء أو من الجفون أرى جيدا. جيدا جدا. وكثيرا ما يحدث أنه حين يتكلم إنسان مع شخص آخر يعرف أنه لا يرى جيدا فإنه لا يحترس، ويسمح لنفسه بأن تظهر على وجهه تعبيرات لا يسمح بظهورها في وقت آخر، ولهذا أسألك مرة أخرى لماذا ابتسمت بهذا الرضاء الخفي؟

– إن ما تقولينه شنيع ومشين.

– أنت خائفة الآن. وصاحت "**هينيت**" بحدة:

– ومن ذا الذي لا يخاف وكل هذه الأمور تجري في هذا المنزل؟ إننا جميعا خائفون، لقد تأكدت رجوع هذه الأرواح الشريرة لتعذبنا، ولكنني أعرف ماذا حدث.. كنت تنصتين لـ"**حوري**". ماذا قال عني؟

– ما الذي يعرفه "**حوري**" عنك يا "**هينيت**"؟

– لا شيء.. لا شيء بتاتا. من الأفضل أن تسألي عما أعرفه أنا عنه؟ وبدا الاهتمام في عيني "**أسا**":

– حسنا ماذا تعرفين؟ ورفعت "**هينيت**" رأسها:

– آه إنكم جميعا تحتقرون "**هينيت**" المسكينة. إنكم تظنون أنها قبيحة وغبية، ولكني أعرف ما يجري. هناك أشياء كثيرة أعرفها، وفي الحقيقة لا يوجد إلا القليل جدا مما يجري في هذا المنزل مما لا أعرفه.. قد أكون غبية، ولكن أكثر مما يراه الأشخاص الأذكياء مثل "**حوري**".. و"**حوري**" لديه طريقة ينظر بها إليّ عندما يقابلني كما لو كنت غير موجودة، وكما لو كان يرى شيئا ورائي، شيئا لا وجود له. إن من الأفضل له أن ينظر إليّ. قد يعتقد أنني كمية مهملة وغبية، ولكن ليس دائما الأذكياء هم الذين يعرفون كل شيء. إن "**ساتيبي**" كانت تعتقد أنها ذكية وأين هي الآن؟ وتوقفت "**هينيت**" برهة ثم بدا أن ضميرها أنّبها، وانكمشت قليلا بوضوح ونظرت إلى "**أسا**" بعصبية. ولكن "**أسا**" كانت تبدو غارقة في بحر من أفكارها الخاصة وكانت تبدو على وجهها نظرة خوف وصدمة وحيرة وقالت ببطء وبتأمل:

– "**ساتيبي**".. وقالت "**هينيت**" بصوتها الباكي المعتاد:

– أنا آسفة يا "**أسا**" لأني فقدت أعصابي، وفي الحقيقة فإنني لا أدري ماذا دهاني. أنا لم أعن شيئا مما قلته.. ونظرت "**أسا**" إليها وقاطعتها.

– اخرجي يا "**هينيت**" . سيان إذا عنيت أو لم تعن ما قلته فإن هذا لا يهم حقيقة، ولكنك نطقت بجملة واحدة أيقظت أفكارا جديدة في ذهني.. اذهبي يا"**هينيت**" وأحذرك كوني حذرة في كلامك وأفعالك. إننا لا نريد وفيات أخرى في هذا المنزل. آمل أن تفهمي.

-2-

« كل شيء يخيف ».. وجدت "**رينسنب**" هذه الكلمات تصعد إلى شفتيها تلقائيا في أثناء المشاورة التي جرت بجوار البحيرة، لكنها لم تبدأ في إدراك حقيقتها إلا بعد ذلك. كانت قد بدأت آليا في الاتجاه إلى الكوخ الصغير لتلحق بـ"**كيت**" وبالأطفال، ولكنها وجدت أن خطواتها بدأت تثقل ثم توقفت من نفسها. ووجدت أنها كانت خائفة من اللحاق بـ"**كيت**"، والنظر إلى هذا الوجه الساكن الجميل؛ لأنها ربما يخيل إليها أنها ترى فيه وجه قاتلة بالسم، وراقبت "**هينيت**" وهي تخرج وتدخل بضجة مرة أخرى من الشرفة، ووجدت أن شعورها المعتاد بالنفور قد زاد، وتحولت بيأس نحو باب الفناء، وقابلت بعد ذلك بلحظة "**إيبي**" وهو يدخل منه بخطى سريعة ورأسه عال وعلى وجهه الوقح ابتسامة. ووجدت "**رينسنب**" نفسها تحدق إليه. "**إيبي**" طفل الأسرة المدلل، الولد الوسيم العنيد كما تتذكره منذ أن رحلت مع "**فاي**".

– لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة الغريبة يا "**رينسنب**"؟ ما الخبر؟

– هل كنت أفعل ذلك؟ وضحك "**إيبي**":

– أنت تبدين في مثل بلاهة "**هينيت**". وهزت "**رينسنب**" رأسها:

– إن "**هينيت**" ليست بلهاء إنها حاذقة جدا.

– إنها خبيثة جدا وأنا أعرف ذلك، وفي الواقع فإنها عامل مزعج في المنزل، وأنا أنوي أن أتخلص منها. وفغرت "**رينسنب**" فاها ثم أطبقت شفتيها وهمست:

– تتخلص منها؟

– ما الذي بك يا أختي العزيزة؟ هل رأيت أيضا أرواحا شريرة مثل هذا الصبي الأسود الأبله المسكين؟

– أتعتقد أن كل إنسان أبله؟

– هذا الصبي كان بالتأكيد كذلك. حسنا.. حقيقة أنني ميال إلى عدم الصبر على الغباء. لقد عانيت الكثير منه، ولأقول لك إنه ليس مسليا أن ينكب المرء بأخوين بليدين لا يستطيعان أن يريا أبعد من أنفهما، والآن وهما بعيدان ولا يوجد إلا أبي أمامي فسترين قريبا الفرق. إن أبي سيفعل ما أقوله أنا. ونظرت "**رينسنب**" إليه مرة أخرى. كان يبدو وسيما ومتعجرفا أكثر من العادة، وكان يمتلئ في هذه اللحظة بالحيوية والشعور بانتصار الحياة. وبدا كما لو أن شعورا داخليا كان يمده بهذه الحيوية. وقالت "**رينسنب**" بحدة:

– إن أخوي ليس كلاهما بعيدين عن طريقك كما تقول. فإن "**ياموس**" حي. ونظر إليها "**إيبي**" بتهكم وازدراء:

– وأظن أنك تعتقدين أنه سيشفى تماما؟

– ولم لا؟ وضحك "**إيبي**":

– لم لا؟ حسنا دعينا نقول ببساطة أنا أختلف معك في الرأي. "**ياموس**" انتهى. قد يزحف لفترة ويجلس في الشمس ويتأوه، ولكنه لم يعد رجلا. إنه قد شفي من أول مفعول للسم ولكن بوسعك أن تري بنفسك أنه لا يتقدم عن هذا.

– ولماذا لا يتقدم؟ إن الطبيب قال إنه سيمر وقت قليل يسترد بعده صحته وقوته تماما. وهز "**إيبي**" كتفيه:

– إن الأطباء لا يعرفون كل شيء. إنهم لا يتكلمون بحكمة ويستعملون كلمات رنانة. لومي "**نوفريت**" الشريرة إذا أردت، لكن "**ياموس**" أخاك العزيز.. "**ياموس**" قضي عليه.

– أولا تخاف على نفسك يا "**إيبي**"؟

– أخاف؟ أنا؟ وضحك الفتى وهو يرفع رأسه الجميل. فقالت "**رينسنب**":

– إن "**نوفريت**" لم تكن لتحبك يا "**إيبي**".

– لا شيء يستطيع أن يؤذيني يا "**رينسنب**" إلا إذا اخترت أن أجعله يفعل ذلك. مازلت صغيرا ولكنني واحد من الناس الذين ولدوا لينجحوا. أما بالنسبة إليك يا "**رينسنب**" فمن الأفضل لك أن تكوني في صفي.. أتسمعين؟ إنك تعاملينني كثيرا كولد غير مسؤول، ولكنني الآن أكثر من هذا. إن كل شيء سيظهر، وقريبا لن تكون هناك إرادة إلا إرادتي. قد يصدر أبي الأوامر ولكن ولو أن صوته هو الذي يتفوه

بها فإن العقل الذي تولد منه سيكون عقلي. وخطا خطوتين ثم قال وهو ينظر خلفه:

– لذلك احذري يا "**رينسنب**" أن أكون غير راض عنك؟ وبينما كانت "**رينسنب**" واقفة تحدق إليه وهو يبتعد سمعت خطوة خلفها واستدارت لترى "**كيت**" واقفة بجانبها.

– ما الذي كان يقوله "**إيبي**" يا "**رينسنب**"؟

– يقول إنه سيصبح السيد هنا قريبا. قالت "**كيت**":

– أيقول هذا؟ إني أعتقد شيئا آخر.

-3-

جرى "**إيبي**" بخفة صاعدا سلم الشرفة، ودخل المنزل وبدا كما لو أن رؤية "**ياموس**" وهو راقد على الأريكة تسره وقال بمرح:

– كيف حالك يا أخي؟ الن نراك ثانية في المزرعة؟ أنا لا أفهم كيف لا تنهار كل الأمور دونك؟ وقال "**ياموس**" متبرما بصوت ضعيف:

– أنا لا أفهم شيئا بتاتا. إن السم قد طرد من جسمي فلماذا لا أسترد قوتي؟ لقد حاولت المشي هذا الصباح ولم تحملني قدماي أنا ضعيف... ضعيف والأدهى أنه يبدو أنني أضعف يوما عن يوم. وهز "**إيبي**" رأسه مواسيا:

– هذا فعلا سيئ. الا يساعدك الأطباء؟

– إن مساعد "**مرسو**" يأتي كل يوم، وهو لا يفهم حالتي. إنني أشرب أعشابا قوية، ويصلي للآلهة كل يوم ويعد لي طعاما خاصا مليئا بالغذاء، ويؤكد الطبيب أنه ليس ثمة سبب يمنعني من استرداد قوتي بسرعة، ولكن بدلا من ذلك يبدو أنني أفقد قوتي بالتدريج. قال "**إيبي**":

– هذا شيء مؤسف. ومضى في طريقه وهو يغني برفق حتى وصل إلى أبيه و"**حوري**" وهما منهمكان في الحسابات. وأضيئ وجه "**أمحتوب**" المتعب القلق لرؤية ولده الأصغر المحبوب:

– ها هو "**إيبي**" ولدي. ما تقريرك عن الضيعة؟

– كل شيء على ما يرام يا أبي. لقد كنا نحصد الشعير. محصول طيب.

– نعم شكرا لـ"رع".. كل شيء حسن في الخارج، وكم كنت أود أن يكون هذا

هو الحال أيضا في الداخل. ومع ذلك فيجب أن أثق بـ"**أياشات**"، إنها لن ترفض مساعدتنا في محنتنا. أنا قلق على "**ياموس**"، ولا أفهم هذا الضعف الذي لا سبب له. قال "**إيبي**":

– إن "**ياموس**" كان دائما ضعيفا. قال "**حوري**" بهدوء:

– هذا ليس صحيحا فإن صحته كانت دائما جيدة. وقال "**إيبي**" مؤكدا:

– إن الصحة تعتمد على روح الرجل، و"**ياموس**" كان دائما ضعيف الإرادة، وكان يخاف حتى من إصدار الأوامر. وقال "**أمحتوب**":

– لم يكن الأمر كذلك في الفترة الأخيرة. لقد أظهر "**ياموس**" سلطة كبيرة في الشهور الأخيرة، وقد أدهشني هذا، لكن هذا الضعف في الأطراف يقلقني، وقد أكد لي "**مرسو**" إنه متى انتهت آثار السم سيكون الشفاء سريعا. وأزاح "**حوري**" بعض الأوراق جانبا وقال بهدوء:

– هناك بعض السموم المعروفة التي لا يظهر مفعولها في الحال وبعنف. إنها سموم غادرة، وتتراكم في الجسم كمية صغيرة كل يوم، ولا يأتي الموت إلا بعد شهور طويلة من الضعف، والنساء يعرفن هذه السموم، وفي بعض الأحيان يستخدمنها لقتل الزوج حتى يبدو كما لو أن موته كان طبيعيا. واصفر وجه "**أمحتوب**":

– هل تقترح أن هذا هو ما أصاب "**ياموس**"؟

– أنا أقترح.. إنه مجرد احتمال، ولو أن أحد العبيد يذوق طعامه الآن قبل أن يأكله إلا أن هذا الاحتياط لا يعني شيئا بما أن الكمية في أي طبق واحد وفي يوم واحد لن يكون لها أثر ضار. وهتف "**إيبي**" بصوت عال:

– هراء... هراء تام. أنا لا أصدق أن هناك مثل هذه السموم. ولم أسمع عنها قط. ورفع "**حوري**" عينيه:

– أنت صغير جدا يا "**إيبي**"، ولا تزال هناك أمور كثيرة لا تعرفها. وهتف "**أمحتوب**":

– لكن ما الذي بوسعنا أن نفعله؟ لقد استغثنا بـ"**أياشات**" وأرسلت القرابين للمعبد، ولو أنني لا أؤمن قط كثيرا بالمعابد. إن النساء هن اللاتي يعتقدن في هذه الأمور. ما الذي نستطيع أن نفعله أكثر من ذلك؟ قال "**حوري**" مفكرا:

– ليعد طعام "**ياموس**" عبد واحد موثوق به، وليراقب هذا العبد طوال الوقت.

– لكن هذا يعني... إن هنا في هذا المنزل... وصاح "**إيبي**":

– هراء... هراء تام. ورفع "**حوري**" حاجبيه وقال:

– فلنجرب هذا وسنرى قريبا إن كان هراء أم لا؟ وخرج "**إيبي**" غاضبا من الغرفة وحدق "**حوري**" وراءه وعلى جبينه عبوس وحيرة.

- 4 -

خرج "**إيبي**" من المنزل وهو ثائر لدرجة أنه كاد أن يوقع "**هينيت**" أرضا:

– ابعدي عن طريقي يا "**هينيت**".. إنك دائما تتلصصين وتسدين الطريق.

– كم أنت فظ يا "**إيبي**". لقد تسببت في ازرقاق ذراعي.

– هذا شيء طيب. لقد سئمتك وطرقك الملتوية، وكلما اقترب خروجك من هذا المنزل نهائيا كان هذا أفضل، وسأجعلك ترحلين. ولمعت عينا "**هينيت**" بخبث:

– إذن فانت تريد طردي. أليس كذلك؟ بعد كل العناية والحب اللذين وهبتهما لكم جميعا والإخلاص الذي أخلصته للأسرة كلها. إن أباك يعرف هذا جيدا.

– أنا متأكد أنه سمع عن ذلك بما فيه الكفاية، ونحن كذلك. أنت في رأيي مجرد امرأة لسانها شرير وفاعلة سوء. أنت ساعدت "**نوفريت**" على تنفيذ خطتها –هذا ما أعرفه جيدا– ثم ماتت فعدت تتملقيننا مرة أخرى ولكن سترين في النهاية سيستمع أبي لي أنا وليس لرواياتك الكاذبة.

– أنت غاضب يا "**إيبي**".. ما الذي أغضبك؟

– دعك من هذا.

– أنت لست خائفا من شيء يا "**إيبي**" أليس كذلك؟ إن هناك أمورا غريبة تجري هنا.

– لا تستطيعين إخافتي أيتها القطة العجوز. ومضى سريعا خارجا من المنزل. واستدارت "**هينيت**" ببطء إلى الداخل، واسترعى انتباهها أن "**ياموس**". كان قد رفع نفسه من الأريكة محاولا أن يمشي، لكن قدميه خانتاه في الحال تقريبا، وكاد أن يقع على الأرض لولا مساعدة "**هينيت**" السريعة.

– هاك يا "**ياموس**" ارقد مرة أخرى.

– كم أنت قوية يا "**هينيت**". إن المرء لا يعتقد ذلك بالنظر إليك. ووضع رأسه

مرة أخرى على مسند الرأس الخشبي.

– اشكرك. لكن ماذا بي؟ لماذا هذا الشعور كما لو أن عضلاتي قد تحولت إلى ماء؟

– إن ما بك هو أن هذا المنزل مسحور، وهذا من عمل هذه الشيطانة التي جاءت إلينا من الشمال. لا يأتي خير ابدا من الشمال. وتمتم "**ياموس**" بقنوط مفاجئ:

– إنني أموت. نعم إنني أموت.. وقالت "**هينيت**" بعبوس:

– سيموت قبلك آخرون.

– ماذا؟ ماذا تعنين؟ ورفع رأسه على مرفقه وحدق إليها.

– أنا أعرف ما أقوله. وأومأت "**هينيت**" برأسها عدة مرات وقالت:

– لن تكون أنت الذي سيموت في المرة القادمة.. انتظر وسترى.

-5-

– لماذا تتحاشينني يا "**رينسنب**"؟ وقف "**كاماني**" راسخا في طريق "**رينسنب**" مباشرة، واحمر وجه "**رينسنب**"، ووجدت صعوبة في الإجابة، فإنها في الحقيقة كانت قد استدارت متعمدة للناحية الأخرى عندما رأت "**كاماني**" قادما.

– لماذا يا "**رينسنب**"..؟ قولي لي لماذا؟ ولكن لم يكن لديها جواب حاضر، ولم يسعها إلا أن تهز رأسها دون أن تجيب. ثم نظرت إليه وهو واقف في مواجهتها، وكانت تخشى قليلا أن يبدو وجهه مختلفا، وشعرت بسرور غريب عندما وجدته لم يتغير وهو ينظر إليها في هذه المرة نظرة جادة ودون ابتسامة على شفتيه. ولم تستطع أن تقابل نظراته، وأرخت عينيها، فإن "**كاماني**" كان بوسعه دائما تحريك مشاعرها، وكان قربه منها يؤثر فيها، ودق قلبها أسرع قليلا.

– إنني أعرف لماذا تتحاشينني يا "**رينسنب**"؟ واستطاعت الكلام:

– أنا... لم أكن لأتحاشاك. لم أرك وأنت قادم.

– هذه أكذوبة. قال ذلك وهو يبتسم وقد أدركت هذا من نبرات صوته.

– "**رينسنب**". "**رينسنب**" الجميلة. وشعرت بيده القوية الدافئة حول ذراعها وفي التو أفلتت منه:

– لا تلمسني. لا أحب أن يلمسني أحد.

– لماذا تحاربينني يا "رينسنب"؟ أنت تعرفين جيدا الأمر الذي بيننا. أنت صغيرة وقوية وجميلة، وإنه لمخالف للطبيعة أن تظلي حزينة على زوج مدى حياتك. سآخذك بعيدا عن هذا المنزل فإنه مليء بالموت وبالسحر الأسود. ستأتين معي وتكونين في أمان. وقالت "رينسنب":

– افرض أنني لا أريد أن أذهب معك؟ وضحك "كاماني" ولمعت أسنانه القوية الناصعة.

– إنك تريدين الذهاب، ولكنك لا تريدين الاعتراف بذلك. إن الحياة طيبة يا"رينسنب" عندما يكون الزوجان معا. سأحبك وأسعدك وستكونين حقلا جميلا لي.. أنا سيدك –انظري.. لن أعود أغنى لـ"بتاح": أعطني زوجي الليلة بل سأذهب إلى "أمحتوب". وأقول له: أعطني "رينسنب" كزوجة. لكنني لا أعتقد أنك هنا في أمان ولذلك سآخذك بعيدا.. أنا كاتب ماهر وبوسعي أن أدخل في خدمة أحد نبلاء "طيبة" العظماء إذا أردت، ولو أنني في الواقع أحب حياة الريف هنا، الزراعة والماشية وأغاني الرجال وهم يحصدون وقارب النزهة الصغير على النهر. أود أن أبحر معك على النهر يا "رينسنب"، وسنأخذ "تيتي" معنا. إنها طفلة جميلة وقوية وسأحبها وأكون أبا طيبا لها. هيا يا"رينسنب" ما قولك؟ ووقفت "رينسنب" ساكنة. كانت تشعر بقلبها وهو يدق بسرعة، وشعرت باسترخاء يطغى على إحساسها، ولكن مع ذلك كان هناك مع هذا الشعور بالليونة وبالتسليم شيء آخر، شعور بالعداء. وفكرت: "لمسة من يده على ذراعي وأضعف.. من أجل قوته.. وكتفيه العريضتين.. وفمه الضاحك.. ولكنني لا أعرف شيئا عن عقله، عن أفكاره، عن قلبه. ولا يوجد بيننا سلام ومحبة.. ماذا أريد..؟ لا أعرف.. ولكن ليس هذا.. لا ليس هذا..؟" وسمعت نفسها تقول هذا، ورنت الكلمات ضعيفة وغير واثقة حتى في أذنيها.

– أنا لا أريد زوجا آخر.. أريد أن أكون وحدي أن أكون نفسي..

– لا يا "رينسنب" أنت مخطئة. إنك لم تولدي لتعيشي وحيدة. انظري.. وشدت "رينسنب" يدها.

– أنا لا أحبك يا "كاماني"، وأعتقد أنني أكرهك. وابتسم:

– أنا لا أعني بكرهك يا "رينسنب". فإن كرهك قريب جدا للحب. سنتكلم في

هذا الموضوع مرة أخرى. وتركها وهو يتحرك بسرعة وفي مثل رشاقة غزال صغير. وذهبت "رينسنب" ببطء إلى حيث كانت "كيت" والأطفال يلعبون بجوار البحيرة. وردت "رينسنب" جزافا عندما كلمتها "كيت"، ولكن لم يبد على "كيت" أنها لاحظت هذا، فإنها كالمعتاد كان ذهنها مشغولا جدا بالأطفال حتى لا تنتبه لأشياء أخرى، وفجأة قالت "رينسنب" وهي تقطع السكون:

– هل أتخذ زوجا آخر، ما قولك يا "كيت"؟ وردت "كيت" بهدوء ودون اهتمام:

– سيكون هذا أفضل كما أعتقد، فأنت قوية وصغيرة يا "رينسنب" وبوسعك أن تنجبي أطفالا كثيرين.

– هل هذه كل حياة المرأة يا "كيت"؟ أن أشغل نفسي في مؤخرة المنزل، ويكون لديَّ أطفال وأن أمضي بعد الظهر معهم تحت شجر الجميز؟

– إن هذا هو كل ما يهم المرأة وأنت تعرفين هذا بالتأكيد. لا تتكلمي كما لو كنت جارية. إن النساء أقوياء في "مصر". إن الميراث يمر من خلالهن إلى أولادهن وهن منبع الحياة في "مصر". ونظرت "رينسنب" مفكرة إلى "تيتي" التي كانت مشغولة بعمل باقة من الورد لدميتها، وكانت "تيتي" عابسة قليلا وهي تركز فيما تقوم به. وفي وقت من الأوقات كانت "تيتي" تشبه "فاي"، وكانت لها طريقة في مد شفتها السفلى وإدارة رأسها إلى الجانب قليلا مما كان يجعل قلب "رينسنب" يعتصر من الحب والألم. ولكن الآن لم يعد فقط وجه "فاي" غير واضح في ذاكرة "رينسنب"، ولكن "تيتي" أيضا لم تعد لها هذه الحركات، وفي بعض الأحيان كانت "رينسنب" تتعلق بـ"تيتي" وهي تشعر بأن الطفلة ما زالت جزءا حيا من جسدها، وتشعر حيالها بشعور ملكية مثير وكانت تقول لنفسها: "إنها ملكي، ملكي كلية". وفكرت "رينسنب" وهي تراقبها الآن: "إنها أنا، و"فاي"..." ثم رفعت "تيتي" عينيها، وابتسمت عندما رأت أمها. كانت ابتسامة جادة ودودة فيها ثقة وسرور. وفكرت "رينسنب": "كلا إنها ليست أنا وليست "فاي" إنها نفسها. إنها "تيتي". وهي وحيدة كما أنا وحيدة وكما أننا جميعا وحيدون. ولو كان بيننا حب فسنكون أصدقاء مدى الحياة، لكن إن لم يكن بيننا حب سنكبر ونصبح غرباء. إنها "تيتي" وأنا "رينسنب"". وكانت "كيت" تنظر إليها بفضول:

– مـاذا تريدين يا "**رينسنب**" ..؟ إني لا افـهـم؟ ولـم تجب "**رينسنب**" . فكيف تجسد الكلمات لتقول لـ"**كيت**" الأمور التي لا تكاد تفهمها؟ ونظرت حولها إلى أسوار الفناء وشرفة المنزل المزينة بألوان زاهية، وإلى مياه البحيرة الهادئة والكوخ الصغير الرشيق، وإلى أحواض الزهور المنظمة وأوراق البردي. كل شيء في داخل الأسوار، ولا شيء يخيف، وحولها أصوات البيت المألوفة وهمهمة الأطفال وأصوات النساء العالية في المنزل ونعير الماشية من بعيد. وقالت ببطء:

– إن المرء لا يستطيع رؤية النهر من هنا؟ وبدت الدهشة على "**كيت**" :

– ولماذا يريد المرء أن يراه؟ وقالت "**رينسنب**" ببطء:

– أنا غبية. ولا أعرف. ورأت أمامها بوضوح تام منظر الحقول الخضراء الغنية، وبعدها عن بعد لون وردي فاتح ساحر ولون أزرق يتلاشى في الأفق ويندمج فيهما لون النيل الفضي. وأمسكت أنفاسها؛ لأن الأصوات من حولها تلاشت مع وضوح الرؤية، وحل بدلا منها سكون وشعور غني بمنتهى الرضاء. وقالت لنفسها: "سأرى "**حوري**" إذا ما أدرت رأسي.. سينظر إليّ من فوق ورق البردي وسيبتسم لي، وقريبا ستغرب الشمس وسيحل الظلام ثم سأنام.. وسيكون هذا هو الموت" .

– ماذا قلت يا"**رينسنب**"؟ وجفلت "**رينسنب**" فإنها لم تدرك أنها تكلمت بصوت عال، ورجعت إلى يقظتها، وكانت "**كيت**" تنظر إليها بفضول.

– لقد قلت الموت يا "**رينسنب**" . ففيم تفكرين؟ وهزت "**رينسنب**" رأسها:

– أنا لا أعرف أنا لم أعن شيئا. ونظرت حولها مرة أخرى. كم هو لطيف هذا المنظر العائلي بالمياه الملفتة للنظر والأطفال يلعبون. وتنفست نفسا طويلا.

– كم المكان هادئ هنا. إن المرء لا يستطيع أن يتصور أي شيء فظيع يحدث هنا، ولكن المكان الذي وجدوا فيه "**إيبي**" في الصباح التالي كان بجوار البحيرة وكان منكفئا إلى الأمام ووجهه في الماء حيث كانت يد قد أمسكت به حتى غرق.

الفصل الثامن عشر

جلس "**أمحتوب**" منكمشا، وكان يبدو أكبر سنا كثيرا، وشيخًا محطمًا على وجهه نظرة حيرة تثير الشفقة. وأتت له "**هينيت**" بالطعام ولاطفته وهي تحثه على أكله.

– نعم يا "**أمحتوب**" .. هيا يجب أن ترعى صحتك.

– ولماذا أفعل ذلك؟ ما أهمية الصحة؟ إن "**إيبي**" كان قويا، قويا بشبابه وبجماله، والآن يرقد في حمام من الماء المالح.. "**إيبي**" ابني المحبوب. آخر أبنائي.

– كلا. كلا. يا "**أمحتوب**"، إن لديك "**ياموس**".. ابنك "**ياموس**" الطيب.

– إلى متى؟ لا.. إنه أيضا مقضي عليه. إننا كلنا مقضي علينا.. ما هذا الشر الذي حل بنا؟ هل كان في مقدوري أن أعرف إن أمورا كهذه ستحدث لأني أتيت بمحظية إلى منزلي؟ إنه أمر معمول به... إنه طبقا لقانون الناس والآلهة. فقد عاملتها بإكرام، فلماذا إذن تحل بي هذه الأمور؟ هل هي "**أياشات**" التي تنتقم مني؟ هل هي التي لن تغفر؟ إنها بالتأكيد لم تستجب لالتماسي فإن الشر مازال مستمرا.

– كلا كلا يا "**أمحتوب**". لا يجب أن تقول هذا لقد مر وقت قصير جدا منذ أن وضع البلاص في غرفة القرابين. ألا تعرف كم تستغرق أمور القانون والعدالة في بلاط الحاكم، وتتأجل أكثر عندما ترفع قضية للوزير؟ إن العدالة هي العدالة في هذا العالم وفي العالم الآخر وهي تتحرك ببطء ولكن تسوى الأمور بالحق في نهاية الأمر.

وهز "**أمحتوب**" رأسه بشك ومضت "**هينيت**" تقول:

– وإلى جانب هذا يجب أن تتذكر يا "**أمحتوب**" أن "**إيبي**" ليس ابن "**أياشات**"، إنه ابن زوجتك الأخرى، فلماذا إذا تشغل "**أياشات**" نفسها بشدة من أجله؟ ولكن الأمر يختلف فيما يخص "**ياموس**"، سيشفى "**ياموس**" لأن "**أياشات**" ترعاه.

– يجب أن أعترف يا "**هينيت**" بأن كلامك فيه عزاء وسلوى، ويحتوي على الكثير من الحق، فإنه صحيح أن "**ياموس**" يسترد قوته يوما بعد يوم. إنه ابن مخلص وطيب، ولكن آه ويا حسرتاه على "**إيبي**".. وعلى رقته.. وعلى جماله، وتأوه "**أمحتوب**" مرة أخرى. وولولت "**هينيت**" متعاطفة معه:

– واحسرتاه. واحسرتاه.

– تلك الفتاة الملعونة وجمالها. يا ليت عيناي لم تقع عليها قط.

– نعم حقا يا سيدي العزيز إنها حقا من بنات "**أست**" وهي متعمقة في السحر الأسود دون شك. وسمعت طرقة عصا على الأرض ودخلت "**أسا**" البهو وهي تعرج متكئة.

– أليس لأحد في هذا المنزل أي منطق؟ أليس لديكم شيء أفضل تفعلونه غير

الابتهال باللعنات على فتاة مسكينة أعجبتك ومارست بعض النكاية والخبث النسائي، مدفوعة في ذلك بالسلوك الغبي للزوجات الغبيات لأبنائك الأغبياء؟

– بعض النكاية والخبث، هل هذا هو ما تسمينه يا "**أسا**"؟ بعد أن مات اثنان من أبنائي الثلاثة، والثالث يحتضر. آه يا للهول. أمي تقول لي هذا الكلام.

– يبدو أنه من الضروري أن يقوله شخص ما بما أنك لا تستطيع أن تتفهم الوقائع. امح من ذهنك هذه الخرافة السخيفة بأن روح الفتاة الميتة هي التي تفعل الشر، إن اليد التي أطبقت على عنق "**إيبي**" وأبقت رأسه في البحيرة حتى غرق يد شخص حي، وكذلك اليد التي وضعت السم في الشراب الذي شربه "**ياموس**" و"**سوبك**".. إن لك عدوا ولكنه في هذا المنزل يا "**أمحتوب**" والدليل هو أنه منذ أن أخذت بنصيحة "**حوري**" وأصبحت "**رينسنب**" هي التي تعد طعام "**ياموس**" أو تلاحظ عبدا وهو يعده، منذ هذا الوقت أخذ "**ياموس**" يسترد صحته وقوته يوما بعد يوم. حاول يا "**أمحتوب**" أن تكف عن الغفلة والنحيب ولطم وجهك و"**هينيت**" تساعدك كثيرا على كل هذا.

– آه يا "**أسا**" كم تسيئين الظن بي.

– وكما أقول تساعدك على كل هذا "**هينيت**"، إما لأنها مغفلة هي الأخرى أو لسبب آخر.

– ليسامحك "**رع**" يا "**أسا**" لقسوتك على امرأة وحيدة مسكينة. ولوحت "**أسا**" بعصاها بحركة مؤثرة ومهيبة.

– تماسك يا "**أمحتوب**" وفكر في أن "**أياشات**" زوجتك المتوفاة التي كانت امرأة جميلة جدا وليست على فكرة مغفلة قد تستعمل نفوذها من أجلك في العالم الآخر، ولكن ليس من المنتظر أن يطلب منها أن تفكر بدلا منك في هذا العالم. يجب أن تعمل شيئا يا "**أمحتوب**" لأنه إن لم تفعل فستحدث وفيات أخرى.

– عدو حي؟ عدو في منزلي. هل تعتقدين هذا حقا يا "**أسا**"؟

– بالطبع لأنه الأمر المنطقي الوحيد.

– لكن إذن نحن جميعا في خطر.

– بالتأكيد في خطر، ليس من السحر وأيدي الأرواح ولكن في الطعام والشراب من أصابع حية تلقي السم في الطعام والشراب، من إنسان يتسلل خلف فتى رجع

متأخرا في الليل من القرية ويمسك برأسه عنوة تحت مياه البحيرة. وقال "**أمحتوب**" مفكرا:

– إن هذا يحتاج إلى قوة.

– ظاهريا يبدو هكذا ولكنني لست متأكدة. إن "**إيبي**" كان قد تناول الكثير من الشراب في القرية وكان في حالة نفسية ثائرة ومتباهيا، وربما رجع إلى البيت وهو يترنح، وبما أنه لا يخاف من الشخص الذي قابله فإنه بمحض إرادته أحنى رأسه في البحيرة ليشرب، وفي هذه الحالة لا يحتاج الأمر إلى قوة كبيرة.

– ما الذي تحاولين قوله يا "**أسا**"؟ إن امرأة فعلت هذا. لكن هذا مستحيل. إن الأمر كله مستحيل، لا يمكن أن يوجد عدو في هذا البيت وإلا كنا عرفنا هذا وأنا كنت سأعرف ذلك.

– هناك شر في القلب لا يظهر على الوجه يا "**أمحتوب**".

– أتعني أن أحد الخدم أو عبدا.

– بل واحد منا.

– واحد منا. أتعنين "**حوري**" أو "**كاماني**"؟ لكن "**حوري**" فرد من الأسرة وقد أثبت وفاءه وإخلاصه و"**كاماني**"، إنه حقيقة غريب ولكنه من دمنا وقد أثبت وفاءه بتفانيه في خدمتي، وفوق هذا فقد جاء إليّ هذا الصباح فقط وحثني على الموافقة على زواجه بـ"**رينسنب**". وظهر على "**أسا**" الاهتمام:

– آه.. أفعل ذلك؟! وماذا قلت أنت؟

– ما الذي كان بوسعي أن أقوله؟ هل هذا وقت مناسب لكلام عن زواج؟ لقد قلت له ما معناه ذلك.

– وما كان قوله في ذلك؟ قال: إنه في رأيه إن هذا هو الوقت المناسب للكلام عن الزواج، وقال إن "**رينسنب**" ليست في أمان في هذا المنزل. "**أسا**":

– إنني أتساءل.. بشدة.. وهل هي كذلك؟ لقد ظننت أنها في أمان، وكان هذا رأي "**حوري**" أيضا، لكن الآن.. ومضى "**أمحتوب**" يقول:

– هل يستطيع المرء أن تكون في بيته أفراح بينما عنده مراسم جنازة في نفس الوقت؟ إن هذا غير لائق. إن المقاطعة بأكملها ستتحدث في هذا. ليس هذا بالوقت الذي تكون فيه أفراح وبالأخص حين يبدو أن الحنوطية سيكونون عندنا بصفة

مستديمة. إن كل هذا لابد نعمة لهم وهم بلا ريب يربحون جيدا. قال "**أمحتوب**" وقد تحول تفكيره لبرهة:

– لقد رفعوا أسعارهم عشرة في المائة. هذا ظلم. إنهم يقولون إن العمالة ارتفعت.

– كان يجب أن يخفضوا أجورهم لنا بسبب المعاملة بالجملة. وابتسمت "**أسا**" بعبوس على فكاهتها. ونظر إليها "**أمحتوب**" بذعر:

– يا أمي العزيزة ليس هذا مزاحا.

– إن الحياة كلها مزاح يا "**أمحتوب**"، والموت هو الذي يضحك أخيرا. الا تسمع هذا القول في كل حفلة؟ اشرب وكل وكن مرحا لأنك ستموت غدا؟ حسنا إن هذا صحيح عندنا هنا، والسؤال فقط هو من الذي سيموت غدا؟

– إن ما تقولينه فظيع... فظيع. ما الذي يمكن عمله؟

– لا تثق بأحد. هذا هو أول وأهم شيء ورددت وهي تضغط على الكلمات لتأكيدها:

– لا تثق بأحد. وبدأت "**هينيت**" تنتحب:

– لماذا تنظرين إليّ؟ إنني متأكدة أنه إذا وجد شخص جدير بالثقة فهو أنا، وقد اثبت هذا طوال كل هذه السنين. لا تستمع لها يا "**أمحتوب**".

– اهدئي، اهدئي يا عزيزتي "**هينيت**"، بالطبع انا أثق بك. وأعرف جيدا قلبك المخلص الحقيقي. قالت "**أسا**":

– أنت لا تعرف شيئا ولا يعرف أحد منا شيئا. وهذا هو الخطر علينا. وتأوهت "**هينيت**" قائلة:

– أنت اتهمتيني؟!

– انا لا يمكن ان اتهم فليس لديَّ الدليل أو المعرفة، كل ما لديَّ هو شك. ونظر "**أمحتوب**" إليها بحدة:

– أنت تشكين في من؟ وقالت "**أسا**" ببطء:

– لقد شككت مرة.. ومرة ثانية.. ومرة ثالثة. ساكون أمينة. لقد شككت أولا في "**إيبي**". ولكن "**إيبي**" مات، ولذلك فهذا الشك كان خطأ. ثم شككت في شخص آخر، ولكن في اليوم نفسه الذي مات فيه "**إيبي**" روادتني فكرة ثالثة.

وتوقفت ثم تابعت حديثها:

– هل "**حوري**" و"**كاماني**" في المنزل؟ أرسل في طلبهما هنا. نعم، وأرسل في طلب "**رينسنب**" أيضا من المطبخ، وفي طلب "**كيت**" و"**ياموس**". إن لديَّ شيئا سأقوله ويجب أن يسمعه كل من في المنزل.

نظرت "أسا" حولها إلى العائلة المجتمعة، وقابلت نظرة "**ياموس**" الجادة الوديعة، وابتسامة "**كاماني**" الدائمة، والاستفسار الممتزج بالخوف في عينى "**رينسنب**"، ونظرة "**كيت**" الهادئة الخالية من الفضول، ونظرة "**حوري**" الغامضة الهادئة المليئة بالتمعن، ونظرة الخوف الممزوج بالعصبية في وجه "**أمحتوب**" المختلج، والفضول الشره، ونظرة السرور في عيني "**هينيت**". وفكرت: "إن وجوههم لا تنبئني بشيء. إنها تظهر فقط المشاعر الخارجية، لكن بالتأكيد إذا كنت على صواب فيجب أن تخون أحدهم أعصابه" وقالت بصوت عال:

– لديَّ شيء أقوله لكم جميعا، ولكن أولا يجب أن أوجه حديثي لـ"**هينيت**" وحدها، هنا أمامكم جميعا. وتغير تعبير وجه "**هينيت**"، اختفى الفضول الشره والسرور، وبدا عليها الخوف وارتفع صوتها الرفيع معترضا.

– أنت تشكين فيَّ يا "**أسا**"؟ كنت أعرف ذلك. إنك ستقيمين ضدي قضية، ومن أين لي أنا المرأة الضعيفة المحدودة الذكاء أن أدافع عن نفسي؟ سأدان دون أن يسمع دفاعي. وقالت "**أسا**" بتهكم:

– لا ليس دون أن يُسمع. ورأت "**حوري**" يبتسم. ومضت "**هينيت**" تقول وصوتها يزداد هيستيرية:

– لم أفعل شيئا. أنا بريئة.. "**أمحتوب**" يا سيدي العزيز أنقذني.. وارتمت على الأرض واحتضنت ركبتيه، وبدأ "**أمحتوب**" يتهته بحنق بينما كان يربت رأس "**هينيت**".

– حقا يا "**أسا**" إنني أعترض.. هذا أمر شائن.. وقاطعته "**أسا**":

– أنا لم أوجه اتهاما. أنا لا أتهم دون دليل. إن كل ما أطلبه هو أن توضح "**هينيت**" هنا معنى بعض الأشياء التي قالتها.

– لم أقل أي شيء، لم أقل شيئا بتاتا.. قالت "**أسا**":

– بل قلت، إنها كلمات سمعتها بأذنيَّ.. وأذناي حادتان جدا حتى لو كانت

عيناي ضعيفتين. لقد قلت إنك تعرفين شيئا عن "**حوري**"، والآن ما الذي تعرفينه عن "**حوري**"؟ قال "**حوري**":

– نعم يا "**هينيت**" ما الذي تعرفينه عني؟ أسمعينا إياه. جلست "**هينيت**" على أردافها ومسحت عينيها وبدت متحدية ومشاكسة وقالت:

– إني لا أعرف شيئا ما الذي يجب أن أعرفه؟ قال "**حوري**":

– هذا ما ننتظر أن تخبرينا به. وهزت "**هينيت**" كتفيها:

– كان مجرد كلام ولم أعن شيئا. قالت "**أسا**":

– سأعيد عليك كلماتك. لقد قلت إنك تحتقريننا جميعا، ولكنك تعرفين الكثير عما يجري في المنزل، وإنك رأيت أكثر مما يراه الناس الأشد منك ذكاء. ثم قلت هذا إنه عندما يقابلك "**حوري**" وهو ينظر إليك كان لا وجود لك وكما لو أنه يرى شيئا خلفك، شيئا لا وجود له. وقالت "**هينيت**" بعبوس:

– إنه ينظر إليّ دائما هكذا كما لو كنت حشرة، شيئا لا يكاد يكون له وجود ولا اهمية له بتاتا. قالت "**أسا**" ببطء:

– لقد ظلت هذه الجملة في ذهني «شيئا خلفي، شيئا لا وجود له هناك» وقالت "**هينيت**":

– كان يجب أن ينظر إليّ.

ثم مضت تتكلم عن "**ساتيبي**"... نعم عن "**ساتيبي**"، وكيف أن "**ساتيبي**" كانت ذكية ولكن أين هي الآن؟ ونظرت "**أسا**" حولها:

– هل يعني هذا أي شيء لأحد منكم؟ فكروا في "**ساتيبي**"، "**ساتيبي**" التي ماتت، وتذكروا أن المرء يجب أن ينظر إلى الشخص، وليس إلى شيء غير موجود.. مرت برهة صمت ثم صرخت "**هينيت**". كانت صرخة عالية رفيعة، صرخة رعب خالصة كما يبدو، وصاحت بكلمات غير مترابطة:

– أنا لم أفعل.. أنقذني.. سيدي.. لا تدعها.. لم أقل شيئا.. لا شيء. وانفجر غضب "**أمحتوب**" المكبوت وزأر:

– هذا لا مبرر له. لن أسمح بأن تتهم وتروع هذه المرأة المسكينة. ما الذي لديك ضدها؟ لا شيء بتاتا باعترافك. وانضم إليه "**ياموس**" وقد تخلى عن خجله المعتاد.

– إن أبي محق، لو كان لديك اتهام محدد ضدها فاتهميها به. قالت "**أسا**" ببطء:

– أنا لا أتهمها. وكانت تتكئ على عصاها، وبدت أنها انكمشت وكانت تتكلم ببطء وبثقل، وتحول "ياموس" نحو "هينيت" بثقة وبلهجة آمرة.

– إن "أسا" لا تتهمك بالتسبب في الشرور التي حدثت، ولكن لو كنت أفهمها حقيقة فهي تظن أن عندك معلومات لا تدلين بها، ولذلك يا "هينيت" فلو كان هناك ما تعرفينه عن "حوري" أو غيره فالآن حان وقت الكلام. هنا أمامنا جميعا. تكلمي. ما الذي تعرفينه؟ وهزت "هينيت" رأسها:

– لا شيء.

– تأكدي مما تقولينه يا "هينيت"، فالمعرفة خطر.

– أنا لا أعرف شيئا وأقسم على ذلك، أقسم بآلهة "الأينيد" التسعة وبالإلهة "مات" وبـ"رع" نفسه. كانت "هينيت" ترتعد ولم يكن في نبراتها رنة من بكائها المعتاد بل كان يرن صادقا ومتهيبا. وزفرت "أسا" بعمق وانحنت للأمام وتمتمت:

– ساعدوني على العودة لغرفتي. وهرع "حوري" و"رينسنب" إليها سريعا، وقالت "أسا":

– لست أنت يا "رينسنب". إني سآخذ "حوري". واتكأت عليه وهو يساعدها على الخروج من الغرفة والذهاب إلى جناحها الخاص، ورأت وهي تنظر إليه أن وجهه متجهم وتعس. وتمتمت:

– حسنا يا "حوري"؟

– لقد تصرفت دون حكمة يا "أسا" دون أية حكمة.

– كان يجب أن أعرف.

– نعم، ولكنك خاطرت مخاطرة رهيبة.

– هكذا. فأنت إذن تفكر مثلي؟

– لقد فكرت في هذا منذ فترة، ولكن لا يوجد دليل ولا شبه دليل، وحتى الآن يا "أسا" ليس لديك دليل.. إن كل هذا تفكرين فيه فقط في ذهنك.

– أنا أعرف وهذا يكفي.

– قد يكون في هذا أكثر من الكفاية.

– ماذا تعني؟ آه نعم بالطبع.

– احترسي يا "أسا".. إنك منذ الآن في خطر.

– يجب أن تحاول أن تتصرف بسرعة.
– نعم. لكن ما الذي نستطيع فعله؟ يجب أن يكون هناك دليل.
– أعرف. ولم يتمكنا من متابعة الحديث فإن خادمة "**أسا**" الصغيرة جاءت تجرى نحو سيدتها، وتخلى "**حوري**"، عنها وعهد بها لرعاية الفتاة واستدار وكان وجهه جادا وفيه حيرة. ومضت الخادمة الصغيرة تثرثر وتنهمك بضوضاء حول "**أسا**"، ولكن "**أسا**" لم تكد تشعر بها.. كانت تشعر بالشيخوخة وبالمرض وبالبرد.. ورأت مرة أخرى دائرة الوجوه المنتبهة تراقبها وهي تتكلم. نظرة واحدة فقط، ومضة من الخوف والفهم. هل من الجائز أنها مخطئة؟ هل هي واثقة بما رأته..؟ إن عينيها ضعيفتان.. نعم إنها واثقة. إنه التصلب المفاجئ للجسم كله، أكثر من مجرد تعبير كان تصلبا وقسوة وصرامة.. إن كلامهما العائم كان له معنى لشخص واحد، ولشخص واحد فقط.. وشعورها هذا الذي لا يخطئ، شعورها المميت الذي هو الحقيقة.

الفصل التاسع عشر

الآن وقد عرض الأمر عليك فما قولك يا "**رينسنب**"؟ نقلت "**رينسنب**" نظراتها بشك من أبيها إلى "**ياموس**"، وشعرت بأن أفكارها متبلدة ومشتتة ثم قالت:
– لا اعرف. وخرجت كلماتها بلهجة آلية من بين شفتيها. ومضى "**أمحتوب**" يقول:
– من المحتمل أن يكون ثمة وقت كبير للمناقشات في الظروف العادية. إن لي أقارب آخرين، وقد كان بوسعنا أن نختار منهم أفضل زوج مناسب لك، ولكن والحال على ما هو عليه فإن الحياة مليئة بالشكوك، نعم إن الحياة محفوفة بالمخاطر. وتعثر صوته ومضى يقول:
– إن الوضع الآن يا "**رينسنب**" هو أن الموت يواجهنا نحن الثلاثة، "**ياموس**" وأنت وأنا. من منا الذي سيهاجم بعد ذلك؟ لذلك يجب عليّ أن أرتب أموري. إذا حدث أي شيء لـ"**ياموس**" فستحتاجين يا بنتي الوحيدة إلى رجل يقف بجانبك، ويقاسمك ميراثك، ويؤدي الواجبات المتعلقة بضيعتي التي لا تستطيع أن تؤديها

امرأة. إذ من يدرى متي أموت؟ لقد دبرت في وصيتي أن تعهد الوصاية على أولاد "**يامـوس**" إلى "**حـوري**" إذا كـان "**يامـوس**" لم يعـد حـيـا، مـا دامت هذه رغبـة "**ياموس**"، هه يا "**ياموس**"؟ وأومأ "**ياموس**":

– إن "**حـوري**" كـان دائمـا صـديقـا قـريبـا جـدا لي وهو كـفـرد من أسـرتي. قـال "**أمحتوب**":

– تماما.. تماما، ولكن الواقع هو أنه ليس من الأسرة. إن "**كاماني**" فرد من الأسرة، ولذلك فنظرا لكل الاعتبارات فهو أفضل زوج أمامنا في الوقت الحاضر لـ"**رينسنب**"، فما قولك يا "**رينسنب**"؟ ورددت "**رينسنب**" مرة أخرى:

– لا أعرف. وكانت تشعر بإعياء شديد.

– إنه وسيم ولطيف ألا توافقين على ذلك؟

– آه نعم. وسأل "**ياموس**" برفق:

– لكنك لا ترغبين في الزواج به، والقت "**رينسنب**" نظرة شاكرة إلى "**ياموس**". إنه كـان مـصـمـمـا على ألا ترغم أو تدفع إلى عـمـل شيء لا ترغـبـه. ومـضت تقـول بسرعة:

– في الحقيقة لا أعرف ما الذي أريد أن افعله. إن هذا غباء كما أعرف ولكنني غبية اليوم. ذلك.. ذلك من أثر الضغط الذي نعيش فيه. قال "**أمحتوب**":

– ستشعرين بالحماية بوجود "**كاماني**" بجانبك.. وسأل "**ياموس**" "**أمحتوب**":

– هل فكرت في "**حوري**" كزوج محتمل لـ"**رينسنب**"؟

– حسنا.. نعم هذا احتمال..

– إن زوجته ماتت عندما كان شابا صغيرا و"**رينسنب**" تعرفه جيدا وتميل إليه. وجلست "**رينسنب**" كأنها في حلم بينما كان الرجلان يتكلمان. إن ما يناقشانه هو زواجها، و"**ياموس**" يحاول أن يساعدها على اختيار ما تريده هي، ولكنها شعرت بأنها مثل إحدى دمى "**تيتي**" الخشبية دون حياة. وبعد قليل قالت بجفاء وهي تقاطع حديثهما دون أن تسمع حتى ما يقولانه:

– سأتزوج "**كامـاني**" ما دمتم تعتقدون أن ذلك أمر طيب. وأرسل "**أمـحـتـوب**" صيحة رضاء، وهرع خارجا من البهو، وجاء "**ياموس**" لشقيقته وربت كتفها.

– هل تريدين هذا الزواج يا "**رينسنب**"؟ هل ستكونين سعيدة؟

– ولماذا لا أكون سعيدة؟ إن "**كاماني**" وسيم ومرح وطيب.

– أعرف هذا. وكان الشك لا يزال باديا على "**ياموس**" وعدم الرضا:

– ولكن سعادتك مهمة يا "**رينسنب**" ولا يجب أن تدعي أبي يدفعك إلى شيء لا ترغبين فيه. أنت تعرفين طباعه.

– آه نعم نعم إنه عندما يتشبث بفكرة يجب أن نتقبلها جميعا. وتكلم "**ياموس**" بحزم:

– ليس هذا ضروريا.. لن أتزحزح عن موقفي في هذا الموضوع إلا إذا كانت هذه رغبتك.

– آه يا "**ياموس**" إنك لا تقف أبدا ضد أبينا.

– سأفعل ذلك في هذا الأمر. إنه لا يستطيع أن يجبرني على موافقته ولن أفعل ذلك. ونظرت "**رينسنب**" إليه. كم يبدو وجهه المتردد مصمما. وقالت بامتنان:

– أنت طيب معي يا "**ياموس**"، ولكنني في الواقع لا أذعن لضغط. إن الحياة القديمة هنا –الحياة التي كنت مسرورة برجوعي إليها– قد ولت، وسنبدأ و"**كاماني**" حياة جديدة معا وسنعيش كما يجب أن يعيش زوجان طيبان.

– إذا كنت واثقة...

– أنا واثقة. وابتسمت له "**رينسنب**" بود وخرجت من البهو إلى الشرفة ومن هناك عبرت الفناء، وكان "**كاماني**" يلعب مع "**تيتي**" على حافة البحيرة، واقتربت منهما "**رينسنب**" دون أن تبدي أي صوت، راقبتهما وهما لا يشعران بقربها. وكان يبدو على "**كاماني**" الذي كان مرحا كعادته أنه يستمتع باللعب مثل الطفلة تماما، ورق له قلب "**رينسنب**" وفكرت: «إنه سيكون والدا طيبا لـ"**تيتي**"». ثم أدار "**كاماني**" رأسه ورآها ووقف وهو يضحك وقال:

– لقد جعلنا عروسة "**تيتي**" كاهن قبور، وهو يقدم القرابين ويقيم الشعائر في المقبرة. وقالت "**تيتي**" بجدية:

– إن اسمه "**مير يبتاح**" وله ولدان وكاتب مثل "**حوري**"، وضحك "**كاماني**" وقال:

– إن "**تيتي**" ذكية جدا، وهي قوية وجميلة جدا. وتنقلت عيناه بين "**رينسنب**"

والطفلة، وقرأت فيهما "رينسنب" الفكرة التي تدور في رأسه، الأطفال الذين ستحملهم له في يوم ما. وجعلتها نظرته تشعر برجفة هزت مشاعرها، ولكن في نفس الوقت شعرت بأسف مفاجئ عنيف. إنها كانت تود أن ترى في هذه اللحظة صورتها فقط في عينيه، وفكرت: "لماذا لا تكون "رينسنب" هي التي يراها فقط؟".

ثم زال الشعور وابتسمت له برفق وقالت:

– لقد كلمني والدي.

– وهل توافقين؟ وترددت برهة قبل أن تجيب:

– إنني أوافق. لقد قالت الكلمة الفاصلة وهذه هي النهاية. إن كل شيء قد اتفق عليه وودت لو أنها لا تشعر بهذا التعب والإجهاد.

– "رينسنب"؟

– نعم يا "كاماني".

– هل تبحرين معي في النهر في قارب نزهة؟ إن هذا شيء كنت أريد دائما أن أفعله معك.

من الغريب أن يقول هذا، فمن أول لحظة رأته فيها فكرت في شراع مربع والنهر ووجه "فاي" الضحك، والآن لقد نسيت وجه "فاي"، وفي مكانه بجانب الشراع والنهر سيجلس "كاماني" ويضحك في عينيها. إن هذا هو الموت. إن هذا هو ما يفعله بك الموت. إنك تقول: كنت أشعر بذلك. ولكنه مجرد قول فإنك الآن لا تشعر بشيء. إن الأموات رحلوا، وليس هناك شيء يسمى شبهة، ومع ذلك فهناك "تيتي"، وهناك الحياة، وتجدد الحياة، كما تزيح مياه الفيضان المياه القديمة وتعد التربة للمحاصيل الجديدة. ما الذى قالته "كيت": «إن نساء المنزل يجب أن يتحدن؟» ومن تكون غير امرأة من المنزل، سواء أكانت "رينسنب" أم امرأة أخرى فما أهمية ذلك؟ ثم سمعت صوت "كاماني" ملحا ومضطربا قليلا:

– ما الذي تفكرين فيه يا "رينسنب"؟ إنك تبعدين جدا في بعض الأحيان.. هل ستأتين معي إلى النهر؟

– نعم يا "كاماني" سآتي معك.

– سنأخذ "تيتي" أيضا.

-2-

فكرت "رينسنب" : "إنه مثل الحلم -المركب والشراع و"كاماني"، وهي نفسها و"تيتي"، لقد نجوا من الموت والخوف من الموت، هذه بداية حياة جديدة". وتكلم "كاماني" وأجابت كمن في غيبوبة وفكرت: «إن هذه حياتي ولا مفر منها» ثم تابعت تفكيرها بحيرة: «ولكن لماذا أقول لنفسي الفرار؟ وما هو المكان الذي أستطيع أن أطير إليه؟» ومرة أخرى ارتفعت أمام عينيها الحجرة الصغيرة الصخرية بجوار المقبرة، وهي جالسة هناك وقد رفعت إحدى ركبتيها وأسندت فكها إلى يدها. وفكرت: "لكن هذا كان شيئا خارج الحياة، وهذه هي الحياة، ولا يوجد منها مفر حتى الموت"، وأرسى "كاماني" القارب ونزلت إلى الشاطئ ورفع "تيتي" من المركب، وتعلقت الطفلة به، وقطعت يدها التي كانت حول عنقه خيط الحجاب الذي يلبسه، ووقع الحجاب عند قدمي "رينسنب" والتقطته وكان تمثالا لـ"انكا" من الذهب والفضة. وأطلقت صيحة أسف.

- لقد انثنى. احذر قد ينكسر. قالت هذا بينما كان يتناوله منها، ولكنه ثناه أكثر بيديه القويتين وكسره متعمدا إلى نصفين.

- ماذا فعلت؟

- خذي نصفا وسآخذ النصف الآخر، ستكون علامة بيننا أننا نصفان من وحدة واحدة. ومد يده بها إليها وبينما كانت تمد يدها لتأخذها مر شيء بذهنها وتنفست نفسا طويلا.

- ماذا بك يا "رينسنب"؟

- "نوفريت".

- ماذا تعنين بـ"نوفريت"؟ وتكلمت "رينسنب" بثقة وسرعة:

- الحجاب المكسور في علبة مجوهرات "نوفريت". أنت الذي أعطيته لها.. أنت و"نوفريت".. أنا أرى كل شيء الآن. أرى لماذا كانت تعسة، وأعرف من الذي وضع علبة الجواهر في حجرتي. إنني أعرف كل شيء.. لا تكذب عليّ يا "كاماني". أقول لك إنني أعرف. ولم يعترض "كاماني"، ووقف ينظر إليها بثبات، ولم ترتبك نظرته، وعندما تكلم كان صوته جادا، ولم تكن هناك ابتسامة على وجهه.

– لن أكذب عليك يا "**رينسنب**" . وانتظر برهة وهو عابس قليلا كما لو كان يحاول أن يرتب أفكاره. ثم قال: إنني من ناحية سعيد أنك عرفت يا "**رينسنب**"، ولو أن الأمر ليس كما تظنين تماما.

– أنت أعطيت لها الحجاب المكسور –كما كنت ستعطيه لي– كعلامة على انكما كنتما نصفين لوحدة واحدة. هذه هي كلماتك.

– أنت غاضبة يا "**رينسنب**" . وأنا سعيد لأن هذا يبين أنك تحبينني، ولكن مع ذلك يجب أن أجعلك تفهمين. أنا لم أعط الحجاب لـ"**نوفريت**"، بل هي التي أعطته لي... وتوقف ثم تابع حديثه:

– ربما لا تصدقينني ولكنها الحقيقة.. وأقسم أنها الحقيقة. قالت "**رينسنب**" ببطء:

– لن أقول إنني لا أصدقك.. فقد تكون الحقيقة. ولاح أمام عينيها وجه "**نوفريت**" الأسمر التعس. ومضى "**كاماني**" يقول بحماس مثل فتى:

– حاولي أن تفهمي يا "**رينسنب**" . إن "**نوفريت**" كانت جميلة جدا وكنت فخورا وسعيدا. ماذا سيكون غير ذلك؟ لكنني لم أحبها قط حقيقة. وشعرت "**رينسنب**" بوخز غريب من الشفقة. لا.. إن "**كاماني**" لم يحب "**نوفريت**"، ولكن "**نوفريت**" كانت تحب "**كاماني**"، وقد أحبته بمرارة وياس. إنها كانت قد تكلمت في نفس هذه البقعة مع "**نوفريت**" في ذلك الصباح عارضة عليها صداقتها ومودتها، وهي تتذكر جيدا موجة الكره والتعاسة التي انبثقت من الفتاة في ذلك الحين. لقد أصبح سبب ذلك واضحا تماما الآن. مسكينة "**نوفريت**"، محظية رجل كبير السن، ومتيمة في حب شاب مرح وسيم ومهمل لها، كان يحبها قليلا أو لا يحبها تماما. وكان "**كاماني**" يقول بحماس:

– الا تفهمين يا "**رينسنب**" بمجرد أن جئت إلى هنا ورأيتك أحببتك، ومنذ تلك اللحظة لم أفكر في أي شيء آخر؟ إن "**نوفريت**" رأت هذا بوضوح... وفكرت "**رينسنب**" : "إن "**نوفريت**" رأت هذا، وقد كرهتها منذ تلك اللحظة، ولم تشعر "**رينسنب**" بميل نحوها" .

– لم أكن أرغب حتى في أن أكتب الرسالة لوالدك. لم أكن لأريد أن تكون لي بعد ذلك صلة بمشاريع "**نوفريت**" . لكن كان الأمر صعبا، يجب أن تحاولي إدراك أنه

كان صعبا. وتكلمت "**رينسنب**" بصبر نافد:

– نعم.. نعم.. إن كل هذا لا يهم إن الذي يهم فقط هو "**نوفريت**"، فلقد كانت تعسة جدا، وكانت كما أعتقد تحبك كثيرا..

– حسن.. أنا لم أكن لأحبها.

– أنت قاس..

– كلا أنا رجل فحسب، ولو اختارت امرأة أن تتعس نفسها من أجلي، فإن هذا يضايقني. هذه هي الحقيقة ببساطة، لم أكن لأريد "**نوفريت**". كنت أريدك أنت. آه يا "**رينسنب**" إنه لا يمكن أن تغضبي مني لهذا السبب، وابتسمت على الرغم منها.

– لا تجعلي "**نوفريت**" التي ماتت تثير المتاعب بيننا نحن الأحياء. أنا أحبك يا "**رينسنب**" وانت تحبينني، وهذا كل ما يهم. وفكرت "**رينسنب**": «نعم هذا كل ما يهم». ونظرت إلى "**كاماني**" الذي كان يقف ورأسه تميل قليلا على جانب، وعلى وجهه الواثق المرح توسل. كان يبدو صغيرا جدا. وفكرت "**رينسنب**": إنه على حق. إن "**نوفريت**" ميتة ونحن احياء. افهم الآن كرهها لي، وأنا آسفة لأنها تألمت، لكن لم تكن تلك غلطتي، ولم تكن غلطة "**كاماني**" إن أحبني ولم يحبها..»

– إن هذه الأمور تقع. وجاءت "**تيتي**" التي كانت تلعب على شاطئ النهر وشدت يد والدتها.

– هل نذهب إلى البيت الآن؟ امي، هل نعود إلى البيت؟ وتنهدت "**رينسنب**" بعمق وقالت:

– نعم سنذهب إلى البيت. ومشوا نحو المنزل، و"**تيتي**" تجري امامهما بقليل وتنهد "**كاماني**" راضيا.

– انت كريمة، كما أنك جميلة يا "**رينسنب**".. إن كل شيء بيننا كما كان، اليس كذلك؟

– نعم يا "**كاماني**". كل شيء كما كان.. وخفض صوته:

– هناك على النهر، كنت سعيدا جدا، فهل كنت أنت أيضا سعيدة يا "**رينسنب**"؟

– نعم كنت سعيدة.
– كنت تبدين سعيدة ولكن كان يبدو كما لو كنت تفكرين في شيء آخر بعيد جدا. أريد أن تفكري فيَّ أنا.
– كنت أفكر فيك. وأخذ يدها ولم تسحبها، وغنى برفق وبصوت منخفض.
– إن زوجتي مثل شجرة اللوز.. وشعرت بيدها ترتعش في يده، وأحس بنفسها السريع وشعر أخيرا بالرضا..

-3-

طلبت "رينسنب" "هينيت" في غرفتها. وجاءت "هينيت" مسرعة، وتوقفت فجاة وهي ترى "رينسنب" واقفة بجوار علبة الجواهر المفتوحة والحجاب المكسور في يدها. وكان وجه "رينسنب" غاضبا وحازما.
– أنت التي وضعت علبة الجواهر هذه في غرفتي، أليس كذلك يا "هينيت"؟ كنت تريدين أن أجد هذا الحجاب. كنت تريدين أن أعرف في يوم من الأيام.
– أن تعرفي من معه النصف الآخر؟ أرى أنك عرفت. حسنا. إنه من الأفضل دائما أن يعرف المرء، أليس كذلك يا "رينسنب"؟ وضحكت "هينيت" بغل وكيد. قالت "رينسنب" وغضبها مازال حاميا:
– إنك تريدين أن تؤلميني بهذه المعرفة. إنك تحبين إيلام الناس أليس كذلك يا "هينيت"؟ إنك لا تقولين أبدا شيئا ليس ملتويا يا "هينيت"، أنت تنتظرين وتنتظرين حتى يجيء أفضل وقت. أنت تكرهيننا جميعا أليس كذلك؟ أنت تكرهيننا دائما.
– ما هذه الأشياء التي تقولينها يا "رينسنب" أنا متأكدة أنك لا تعنيها. لم يعد هناك نحيب في صوت "هينيت" بل كانت هناك نبرة انتصار خفي.
– كنت تريدين إثارة المتاعب بيني وبين "كاماني". حسنا ليست هناك متاعب.
– إن هذا بالتأكيد جميل جدا وغاية التسامح منك يا "رينسنب"، أنت مختلفة تماما عن "نوفريت"، أليس كذلك؟
– دعينا من الكلام عن "نوفريت".
– لا، ربما من الأفضل الا نتكلم عنها. إن "كاماني" سعيد الحظ مثلما هو وسيم

اليس كذلك؟ أعني أنه محظوظ؛ لأن "نوفريت" ماتت في ذلك الحين.فإنه كان في وسعها أن تثير الكثير من المتاعب له مع أبيك. زواجك به ما كان ليروقها، لا لم يكن ليعجبها قط وفي الواقع أعتقد أنها كانت ستجد طريقة ما لتوقفه.. أنا واثقة بذلك. ونظرت إليها "رينسنب" بنفور شديد:

– إن هناك سما دائما في لسانك يا "هينيت". إنه يلدغ مثل الثعبان، ولكن ليس في وسعك إتعاسي.

– حسنا هذا رائع اليس كذلك؟ إنك بلا ريب مدلهة في الحب. آه، إنه لشاب وسيم، وهو يعرف كيف يغني أغنية حب جميلة، لا خوف عليه سيحصل دائما على ما يريده. أنا معجبة به حقيقة، فهو يبدو دائما غير متكلف ودون مواربة.

– ما الذي تحاولين قوله يا "هينيت"؟

– أقول لك فقط إنني معجبة بـ"كاماني"، ومتأكدة تماما أنه ليس متكلفا ودون مواربة إن الأمر ليس تمثيلا بل إنه برمته مثل إحدى تلك القصص التي يرويها الرواة في الأسواق. الكاتب الفقير يتزوج ابنة السيد، ويقاسمها ميراثها، ويعيشان في سعادة إلى الأبد. رائع. الحظ الحسن الذي يتمتع به الشاب الوسيم دائما.

– أنا محقة.. أنت تكرهيننا.

– كيف تستطيعين أن تقولي هذا يا "رينسنب" بينما أنت تعرفين كم شقيت مثل جارية من أجلكم جميعا، منذ أن ماتت والدتك؟ ولكن كان ما يزال هناك الانتصار الشرير في صوت "هينيت". ونظرت "رينسنب" مرة أخرى إلى علبة الجواهر، وفجأة تأكدت شيئًا آخر.

– إنك أنت التي وضعت عقد الأسود الذهبي في هذه العلبة، لا تنكري يا"هينيت" أقول لك إنني أعرف. واختفى انتصار "هينيت" الخبيث وبدت فجأة خائفة.

– لم أستطع أن أمنع نفسي يا "رينسنب". كنت خائفة.

– ماذا تعنين بخائفة؟ واقتربت "هينيت" خطوة وخفضت صوتها:

– إنها هي التي أعطتني إياه، أعني "نوفريت". قبل أن تموت بقليل. لقد أعطتني هدية أو اثنتين فإنها كانت كريمة كما تعرفين آه. نعم إنها كانت كريمة.

– أعتقد أنها كانت تدفع لك بسخاء.

– هذه ليست طريقة معبرة لطيفة يا "**رينسنب**"، سأقص عليك كل شيء. لقد أعطتني العقد الأسود الذهبي ومشبك الأماتيست وشيئا أو شيئين آخرين. ثم عندما تقدم هذا الصبي بروايته عن رؤية امرأة تلبس هذا العقد.. حسنا لقد خفت. فكرت في أنهم ربما ظنوا أنني أنا التي سممت نبيذ "**ياموس**"، ولذلك وضعت العقد في العلبة.

– هل هذه هي الحقيقة يا "**هينيت**"؟ هل تقولين الحق؟

– أقسم أنها الحقيقة يا "**رينسنب**" كنت خائفة.. ونظرت "**رينسنب**" إليها بفضول:

– أنت ترتعدين يا "**هينيت**" إنك تبدين كما لو كنت خائفة الآن.

– نعم إني خائفة.. ولديَّ سبب لذلك.

– لماذا؟ قولي لي. ولعقت "**هينيت**" شفتيها النحيفتين ونظرت حولها وبدت عيناها كعينى حيوان طريد. قالت "**رينسنب**":

– قولي لي. وهزت "**هينيت**" رأسها وقالت بصوت مضطرب:

– ليس ثمة شيء يقال.

– إنك تعرفين الكثير يا "**هينيت**"، وكان هذا دأبك دائما، لقد استمتعت بذلك ولكن الآن الأمر خطير، هذا هو ما يخيفك، أليس كذلك؟ وهزت "**هينيت**" رأسها مرة أخرى ثم ضحكت بمكر.

– انتظري يا "**رينسنب**" سيكون السوط في يدي في هذا المنزل في يوم ما وساضرب به، انتظري وسترين، وشدت "**رينسنب**" قامتها.

– أنت لن تؤذيني يا "**هينيت**". لن تدعك والدتي تؤذينني، وتغير وجه "**هينيت**"، وتطايرت النيران من عينيها وقالت:

– كنت أكره والدتك، كنت أكرهها دائما.. وأنت التي لك عيناها، وصوتها، وجمالها وعجرفتها، إنني أكرهك أنت يا "**رينسنب**"، وضحكت "**رينسنب**":

– وأخيرا.. أجبرتك على أن تقولي هذا.

الفصل العشرون

دخلت "**أسا**" العجوز غرفتها وهي تعرج بإعياء. كانت تشعر بإعياء شديد وبحيرة، وأدركت أن السنين أخيرا بدأت تفرض عليها ضريبتها، وكانت حتى هذا الوقت تعترف بالتعب الجسماني ولكنها كانت لا تشعر بالتعب الذهني، ولكنها الآن كانت مجبرة على الاعتراف بأن الجهد الذي تبذله لكي تظل متيقظة ذهنيا كان يؤثر في قوتها البدنية. ولو كانت تعرف الآن، كما تعتقد، الشخص الذي ينبعث منه الخطر، فإن هذه المعرفة لا تسمح بأي استرخاء ذهني، بل على العكس إنها يجب أن تحترس أكثر من أي وقت مضى، بما أنها لفتت إلى نفسها الأنظار بتعمد. الدليل، الدليل... يجب أن تحصل على الدليل ولكن كيف؟ إن سنها كما أدركت تخونها هنا، إنها متعبة أكثر من اللازم ولن تستطيع التصرف بسرعة، لكي تقوم بالمجهود الذهني الخلاق. إن كل ما وسعها هو الدفاع، أن تظل متيقظة مترقبة ومحترسة. لأن القاتل- وليس لديها أي شك من هذه الناحية- سيكون على أتم استعداد ليقتل مرة ثانية. حسنا، إنه ليس في نيتها أن تكون الضحية التالية. إنها تشعر بالتأكيد بأن السم هو الوسيلة التي ستستخدم.. إن العنف ليس معقولا؛ لأنها لا تكون وحدها أبدا، وإنما هي دائما محاطة بالخدم. لذلك سيكون السم.. حسنا إن بوسعها التصدي لذلك: ستطهو "**رينسنب**" طعامها وتحضره لها، ولقد جلبت دلوا من الشراب إلى غرفتها، وهي تنتظر أربعا وعشرين ساعة بعد أن يذوقه عبد قبل أن تشرب منه لتتأكد أنه لن يترتب عليه أي نتائج سيئة، وكانت تجعل "**رينسنب**" تشاركها في طعامها وشرابها، ولو أنها كانت لا تخاف على "**رينسنب**" بعد، وربما لن يكون هناك خوف على "**رينسنب**" أبدا، ولكن لا يستطيع المرء أن يتأكد ذلك. وكانت تجلس إلى حين، دون حركة تدفع عقلها المتعب إلى ابتكار طرق تثبت بها الحقيقة، أو كانت تراقب خادمتها الصغيرة وهي تنشّي وتثني أثوابها اللينون، أو وهي تعيد إصلاح عقودها وأساورها. كانت تشعر في ذلك المساء بإعياء شديد، وكانت قد لحقت بـ"**أمحتوب**" بناء على رغبته لكي تناقش موضوع زواج "**رينسنب**" قبل أن يتكلم هو مع ابنته. كان "**أمحتوب**" قد انكمش متبرما، وقد أصبح خيالا أكثر مما كان، وقد فقد ثقته بنفسه وتفاخره، وأصبح الآن يرتكن على

إرادة والدته الحديدية وعلى تصميمها. أما عن "**أسا**" فإنها كانت خائفة -خائفة جدا- من أن تقول شيئا خطأ. إن أرواحا يمكن أن تفقد نتيجة كلمة غير حكيمة. وأخيرا وافقت على الزواج كفكرة حكيمة، وقالت إن الوقت لا يسمح للبحث بعيدا عن زوج من بين أفراد الأسرة المهمين، وإن المهم هو سلالة المرأة، وإن زوج "**رينسنب**" سيكون فقط المدير الذي سيدير الميراث الذي سيؤول إلى "**رينسنب**" وأولادها. ولذلك أصبحت المسألة هي هل هو "**حوري**"، وهو رجل أمين وصديق قديم أثبت وفاءه، وابن لصاحب أرض صغيرة تجاور أرضه أرضهم، أو "**كاماني**" الشاب لقرابته؟ ووزنت "**أسا**" الأمر بعناية قبل أن تتكلم، فإن كلمة خاطئة الآن قد تترتب عليها كارثة. ثم أجابت وهي تزكي إجابتها بشخصيتها التي لا تقهر، وقالت:

- إن "**كـــامـــاني**" دون ريب هو الزوج المناسب لـ"**رينسنب**" وإن إتمام هذا الزواج والاحتفالات الضرورية التي تصاحب ذلك، سوف تختصر كثيرا نظرا للأحداث الحزينة الأخيرة، ويمكن أن تتم في بحر أسبوع، هذا إذا كانت "**رينسنب**" موافقة. إن "**كاماني**" شاب جيد، وهما سيرزقان بأطفال أقوياء، وفوق كل ذلك فهما متحابان وفكرت "**أسا**": "حسنا، لقد رميت زهري، وسنلعب اللعبة الآن. لقد خرج الأمر من يدها، وقد فعلت ما تعتقد أنه الصواب وإن كان محفوفا بالمخاطر، حسنا إن "**أسا**" تحب اللعب بالشطرنج تماما مثلما كان "**إيبي**" يحبه.. إن الحياة ليست مسألة أمان، فعلى المرء أن يخاطر ليكسب. وعندما رجعت إلى غرفتها نظرت حولها بشك وفحصت -على الأخص- دلو الشراب الكبير، وكان مغطى ومقفلا ومبرشما كما تركته، وكانت تبرشمه دائما عندما تترك الغرفة، وكان المفتاح معلقا بأمان حول عنقها. نعم.. إنها لن تجازف بأي شكل، وضحكت "**أسا**" بخبث ورضاء، إنه ليس من السهل قتل امرأة عجوز، فإن النساء العجائز يعرفن قيمة الحياة، ويعرفن أغلب الحيل أيضا. ونادت على خادمتها الصغيرة:

- أين "**حوري**"؟ أتعرفين؟ وأجابت الفتاة أنها تظن أن "**حوري**" في الغرفة الحجرية بجوار المقبرة وأومأت "**أسا**" برضاء:

- اذهبي إليه هناك وقولي له أن يأتي إليّ غدا صباحا عندما يكون "**أمحتوب**" و"**ياموس**" في المزرعة ومعهما "**كاماني**" وعندما تكون "**كيت**" بجانب البحيرة مع أولادها. هل فهمت هذا؟ ردديه. ورددته الخادمة الصغيرة بالضبط ثم أرسلتها

"أسا" . نعم إن خططها جيدة . . إن الاستشارة مع "حوري" ستكون على انفراد تماما، بما أنها سترسل "هينيت" في مهمة إلى كوخ النسيج، وستحذر "حوري" مما سيحدث، وسيكون بوسعهما أن يتكلما بحرية معا . وتنهدت "أسا" بارتياح عندما رجعت الفتاة السوداء ومعها رسالة بأن "حوري" سيفعل كما تشاء، والآن وقد تم إعداد كل شيء شعرت بالإعياء يغمرها مثل الفيضان، وطلبت من الفتاة أن تأتي بوعاء المرهم ذي الرائحة الذكية وأن تدلكها، وشعرت براحة من أثر التدليك وخفف المرهم التعب الذي يسري في عظامها . وتمددت أخيرا ورأسها على المخدة الخشبية ونامت وقد سكنت مخاوفها إلى حين . واستيقظت بعد هذا بوقت طويل وهي تشعر ببرودة غريبة . . إن قدميها ويديها متخدرة ودون حياة . . إنه مثل مخدر يزحف على الجسم كله . إنها تشعر به وهو يشل عقلها وإرادتها ويبطئ ضربات قلبها . وفكرت : "هذا هو الموت . موت غريب دون إنذار" . وفكرت : "هكذا يموت العجائز . . ثم جاءها تأكيد أعمق أن هذا ليس موتا طبيعيا . إن هذا هو فعل العدو وهو ينشر السم في الظلام . . ولكن كيف؟ ومتى؟ إن كل ما أكلته وشربته جُرب ولم تكن هناك ثغرة خطأ . إذن كيف؟ ومتى؟ وحاولت "أسا" بآخر قوى ذكائها الضعيفة أن تحل اللغز . . يجب أن تعرف . . قبل أن تموت . وشعرت بالضغط يزداد على قلبها وبالبرودة القاتلة وبتنفسها البطيء المؤلم . كيف فعل العدو هذا؟ وفجأة تذكرت شيئا . . . من الماضي . . ذكرى عابرة، وساعدها ذلك على التفهم . جلد خروف محلوق . . قطعة من الشحم لها رائحة . اختبار كان يجريه أبوها؛ ليبرهن أن بعض السموم ممكن أن يمتصها الجلد . شحم أغنام ودهون من شحم . هذه هي الطريقة التي وصل بها إليها العدو . . وعاء المرهم ذو الرائحة الذكية الذي لا غنى للمرأة المصرية عنه . . إن السم كان في هذا . وغدا . . . "حوري" . . . إنه لن يعرف . . إنها لا تستطيع أن تقول له . . لقد فات الأوان . وفي الصباح هرعت جارية صغيرة خائفة تجري في المنزل وهي تصيح أن سيدتها ماتت وهي نائمة . وقف "أمحتوب" ينظر إلى جسد "أسا" وكان وجهه حزينا ولكن لم يكن فيه شك . لقد قال إن أمه ماتت ميتة طبيعية لكبر سنها وقال :

- كانت عجوزا . . . نعم كانت عجوزا . وقد حان دون ريب الوقت لكي تذهب إلى "أوزوريس" ، وقد عجلت متاعبنا وأحزاننا بوفاتها، ولكن يبدو أن الموت قد

جاءها بهدوء، وحمدا لـ"رع" .. إن هذه وفاة لم يكن لرجل أو لروح شريرة يد فيها. لم يكن هناك أي عنف انظروا كم تبدو هادئة. وبكت "**رينسنب**" وواساها "**ياموس**"، ومضت "**هينيت**" وهي تتنهد وتهز رأسها وتقول:

- كيف أن موت "**أسا**" خسارة، كم كانت هي "**هينيت**" متفانية لها، وكف "**كاماني**" عن غنائه، وأظهر وجها حزينا كما يجب. وجاء "**حوري**" ووقف ينظر إلى المرأة الميتة. كانت هذه هي الساعة التي استدعته فيها، وتساءل عما كان لديها بالضبط شيء لتقوله له. لقد كان لديها شيء محدد تود أن تخبره به، والآن لن يعرف أبدا. ولكنه فكر في أنه ربما يستطيع أن يخمن.

الفصل الحادي والعشرون

- "**حوري**" هل قُتلت؟
- أعتقد ذلك يا "**رينسنب**".
- كيف؟
- لا أعرف. كان في صوت الفتاة حيرة وغم:
- ولكنها كانت حريصة. كانت دائما يقظة، وكانت تتخذ جميع الاحتياطات. إن كل شيء تأكله أو تشربه كان قد ثبت خلوه من أي شيء ضار.
- أعرف يا "**رينسنب**" ولكن مع كل فانا أعتقد أنها قتلت.
- كانت أحكمنا جميعا، إنها أذكانا. كانت متأكدة أنها لن يصيبها أي شر. "**حوري**" إنه سحر بلا ريب. سحر شرير من روح شريرة.
- أنت تعتقدين هذا لأنه أسهل شيء ممكن تصديقه. هكذا الناس، ولكن "**أسا**" نفسها ما كانت لتصدق هذا، لقد عرفت قبل أن تموت أنه فعل إنسان حيّ.
- وهل كانت تعرف من يكون؟
- نعم. لقد أظهرت شكها بجلاء، وأصبحت خطرا على العدو وواقعة موتها تثبت أن شكها كان في محله.
- وهل قالت لك، من القاتل؟
- كلا لم تقل لي، إنها لم تشر إلى أي اسم قط، ومع ذلك فإن فكرتها وفكرتي

كانتا –وأنا واثق بهذا– نفس الفكرة.

– إذن يجب أن تقول لي يا "**حوري**" حتى أحترس.

– كلا يا "**رينسنب**"، إن سلامتك تهمني كثيرا ولن أفعل ذلك.

– هل أنا في أمان؟ وتغير وجه "**حوري**" وقال:

– كلا يا "**رينسنب**"، إنك لست آمنة. لا يوجد إنسان آمن، ولكنك أكثر أمنا مما لو كنت متأكدة من الحقيقة، لأنك عندئذ ستصبحين خطرا مؤكدا، وتجب إزالتك في الحال بغض النظر عن المخاطرة.

– وماذا عنك يا "**حوري**"؟ أنت تعرف. وصحح لها القول:

– أعتقد أنني أعرف، ولكنني لم أقل شيئا ولم أظهر شيئا. إن "**أسا**" كانت غير حكيمة فقد تكلمت علنا واظهرت الاتجاه الذي يسير فيه تفكيرها. ما كان يجب أن تفعل ذلك، وقلت لها هذا فيما بعد.

– لكن أنت يا "**حوري**".. إذا حدث لك أي شيء.. توقفت. كانت مدركة أن عينى "**حوري**" تنظران إلى عينيها بجد وعزم ينفذان إلى أعماق عقلها وقلبها، وأخذ يديها بين يديه وأمسك بهما برفق.

– لا تخافي عليّ يا "**رينسنب**" الصغيرة.. إن كل شيء سيكون على ما يرام. وفكرت: "نعم إن كل شيء سيكون على ما يرام إذا كان "**حوري**" يقول كذلك. إنه لشعور غريب بالرضا والسلام وسعادة كلها غناء وصفاء، في مثل جمال وبعد المناظر البعيدة التي يراها المرء من المقبرة، هناك لا يوجد ضجيج المطالب الإنسانية والقيود. وفجأة وبشيء من الفظاظة سمعت نفسها تقول:

– سأتزوج "**كاماني**". وأطلق "**حوري**" يديها بهدوء وبطريقة طبيعية جدا.

– أعرف يا "**رينسنب**".

– إنهم.. إن أبي.. إنهم يعتقدون أنه أفضل شيء.

– أعرف. وابتعد وبدا كما لو أن أسوار الفناء تقترب، وأن الأصوات من داخل المنزل ومن الحقول في الخارج قد علت وأصبحت أكثر ضجيجا. وكانت في ذهن "**رينسنب**" فكرة واحدة فقط: "إن "**حوري**" سيذهب.." ونادته بخجل:

– "**حوري**" إلى أين أنت ذاهب؟

– خارجا إلى الحقول مع "**ياموس**". إن هناك عملا كثيرا يجب القيام به

وتسجيله. إن الحصاد قد انتهى تقريبا.

– و"**كاماني**"؟

– "**كاماني**" سيأتي معنا. وصاحت "**رينسنب**":

– أنا خائفة هنا. نعم حتى في ضوء النهار، ورغم وجود كل الخدم حولنا ووجود "رع" وهو يسري في السماوات فإني خائفة. ورجع سريعا:

– لا تخافي يا "**رينسنب**". أقسم لك أن لا حاجة بك إلى الخوف اليوم.

– ولكن بعد اليوم؟

– إن اليوم يكفي لكي يعيشه المرء، وأقسم لك أنك لست في خطر اليوم. ونظرت إليه "**رينسنب**" وعبست.

– لكننا في خطر؟ "**يامـوس**" وأبي وأنا.. لست أنا المهـددة أولا.. أهذا هو ما تفكر فيه؟

– حاولي ألا تفكري في هذا يا "**رينسنب**". إنني أفعل كل ما في وسعي، ولو أنه قد يبدو لك أنني لا أفعل شيئا.

– نعم. ونظرت إليه "**رينسنب**" وهي تفكر: "نعم هكذا. إن "**ياموس**" سيكون الضحية الأولى.. إن العدو قد حاول مرتين بالسم وفشل، وستكون هناك محاولة ثالثة. لذلك ستكون بقربه لتحميه، وبعد ذلك سيحل دور أبي ودوري". من الذي يكره أسرتنا إلى هذا الحد لكي...

– صه. من الأفضل ألا تتكلمي في هذه الأمور. ثقي بي يا "**رينسنب**"، وحاولي أن تمحي الخوف من ذهنك. ورفعت "**رينسنب**" رأسها وواجهته بكبرياء:

– أنا أثق بك يا "**حوري**". لن تدعنى أموت.. فأنا أحب الحياة جدا، ولا أريد أن أتركها.

– لن تتركيها يا "**رينسنب**".

– ولا أنت أيضا يا "**حوري**".

– ولا أنا أيضا. وابتسما لبعضهما، ثم مضى "**حوري**" ليبحث عن "**ياموس**".

-2-

جلست "**رينسنب**" القرفصاء تراقب "**كيت**". كانت "**كيت**" تساعد الأطفال على صنع لعب من الصلصال، وكانت تستعين بماء البحيرة وأصابعها مشغولة بما تفعله، وصوتها يشجع الولدين الصغيرين المنهمكين بجد في عملهما، وكان وجه "**كيت**" كالمعتاد فيه مودة، ودون أي تعبير أو جمال، ولم يبد أن جو الموت العنيف والخوف الدائب قد أثرا فيها بالمرة. كان "**حوري**" قد طلب من "**رينسنب**" الا تفكر، ولكن لم يكن بوسع "**رينسنب**" مهما كانت ترغب في ذلك أن تطيع. لو كان "**حوري**" يعرف العدو، ولو كانت "**أسا**" تعرفه، إذن لا يوجد سبب لكي لاتعرفه "**رينسنب**" أيضا. قد تكون في أمان أكثر بعدم معرفتها، ولكن لا يوجد إنسان يرضى بذلك. إنها تريد أن تعرف، وهو أمر لابد سهل جدا. سهل جدا.. إن من الواضح أن أباها لا يمكن أن يرغب في قتل أولاده، ولذلك فيبقى.. من يبقى.. من يبقى؟ يبقى بوضوح ودون ريب شخصان.. "**كيت**" و"**هينيت**" امرأتان.. وبالتأكيد لا يوجد لديهما دافع للقتل.. ومع ذلك فـ"**هينيت**" تكرههم جميعا.. نعم إن "**هينيت**" تكرههم دون ريب جميعا.. لقد اعترفت بأنها تكره "**رينسنب**"، ولذلك فلم لا تضمر الكره للآخرين أيضا؟ وحاولت "**رينسنب**" أن تتخيل ما يدور داخل عقل "**هينيت**" المظلم المعذب. لقد عاشت هنا كل هذه السنين تعمل وتعلن وفاءها وتكذب وتتجسس وتثير المتاعب.. جاءت إلى هنا منذ زمن طويل بوصفها قريبة فقيرة لسيدة جميلة وعظيمة، ورأت تلك السيدة الجميلة سعيدة بزوجها وأطفالها، أما هي فتخلى عنها زوجها ومات طفلها الوحيد. نعم قد يكون هذا هو ما حدث. مثل جرح من رمية رمح رأته مرة "**رينسنب**"، لقد شُفِي بسرعة ظاهريا، ولكن كان غير نظيف من الداخل، وسرى فيه المرض، وورم الذراع، ثم جاء الطبيب وتلا تلاوة ملائمة ثم غرس سكينا صغيرا في الذراع المتورمة الجامدة، وكان كما لو أن جسر ري قد انهار، وانبثق من الذراع سيل من سائل له رائحة كريهة. وربما كان هذا هو ما حدث لعقل "**هينيت**". حزن وجرح اندملا بسرعة، وسم يتقيح تحت الجرح، ويتزايد ويصبح تيارا قويا من الحقد والضغينة. ولكن هل تكره "**هينيت**" "**أمحتوب**" أيضا؟ كلا بالتأكيد.. إنها منذ سنوات ترفرف حوله وتتملقه، وهو يثق بها تمام الثقة بالتأكيد.. إن هذا التفاني لا يمكن أن يكون تظاهرا كلية؟ وإذا كانت

متفانية له هل من الممكن أن تصيبه عمدا بكل هذا الحزن والخسارة؟ آه، ولكن لنفرض أنها كانت تكرهه هو أيضا، وإنها كانت تكزهه دائما؟ وإنها كانت تتملقه متعمدة لكي تبرز ضعفه؟ وهب أن "**أمحتوب**" هو أكثر الذين تكرههم؟ إذن ما الذي يسر عقلا مريضا شريرا أكثر من هذا، أن يرى أولاده يموتون الواحد تلو الآخر؟

– ماذا بك يا "**رينپسنب**"؟ كانت "**كيت**" تحدق إليها:

– إن منظرك غريب. ووقفت "**رينسنب**" وقالت:

– أشعر كما لو كنت سأتقيأ. وكان هذا من ناحية حقيقيا، فإن الصورة التي تخيلتها قد أثارت فيها شعورا قويا بالغثيان، وتقبلت "**كيت**" كلماتها بمعناها الظاهري.

– إنك قد أسرفت في أكل البلح الأخضر، وربما لم يناسبك السمك.

– كلا.. كلا إنه ليس شيئا أكلته، بل إنه هذا الجو الفظيع الذي نعيش فيه.

– آه هذا... وكانت لهجة "**كيت**" باردة لدرجة أن "**رينسنب**" حدقت إليها مستغربة.

– لكن ألست خائفة يا "**كيت**"؟

– كلا.. لا أظن ذلك، لو حدث أي شيء لـ"**أمحتوب**" فسيحمي "**حوري**" الأولاد. إن "**حوري**" أمين وسيحافظ لهم على ميراثهم.

– "**ياموس**" هو الذي سيفعل ذلك.

– إن "**ياموس**" سيموت أيضا.

– "**كيت**"، أنت تقولين هذا بمنتهى الهدوء. ألا يهمك هذا بالمرة؟ أعني موت "**ياموس**" وأبي؟ وتمنعت "**كيت**" برهة ثم هزت كتفيها.

– إننا امرأتان معا فلنكن صادقتين. لقد اعتقدت دائما أن "**أمحتوب**" غير عادل ومستبد. لقد تصرف تصرفا شائنا في مسألة محظيته، وتركها تقنعه بأن يحرم لحمه ودمه من الميراث. إني لم أحب "**أمحتوب**" قط، وأما "**ياموس**" فإنه نكرة، وكانت "**ساتيبي**" تحكمه في كل شيء، وأخيرا بعد أن رحلت بدأ يعطي الأوامر ويتسلط. إنه سيفضل أولاده على أولادي دائما، وهذا أمر طبيعي ولذلك فإن مات فإن هذا أفضل لأولادي، هكذا أرى الأمور.. إن "**حوري**" ليس لديه أولاد وهو عادل. إن كل الذي جرى مقلق ولكني كنت أفكر أخيرا فيما جرى أنه خير ما يحدث.

– إن بوسعك أن تتكلمي هكذا يا "**كيت**" –بهذا الهدوء والجمود– بينما كان زوجك الذي كنت تحبينه هو أول القتلى.. وبدا على "**كيت**" تغير خفيف غير واضح، وألقت نظرة إلى "**رينسنب**" بدا فيها تهكم ما.

– إنك مثل "**تيتي**" تماما في بعض الأحيان يا "**رينسنب**"، وفي الحقيقة إن المرء قد يقسم أنك لست أكبر منها سنا.

– أنت لست حزينة على "**سوبك**". إني لاحظت هذا.

– هيا يا "**رينسنب**" لقد فعلت كل ما تمليه التقاليد.. إني أعرف كيف يجب أن تتصرف أرملة ترملت حديثا.

– نعم.. هذا كل ما هنالك.. لذلك، هذا يعني أنك لم تكوني تحبين "**سوبك**"؟

وهزت "**كيت**" كتفيها:

– ولماذا أحبه؟

– "**كيت**" إنه كان زوجك، وقد رزقت منه بأطفالك... ولانت تعابير وجه "**كيت**"، ونظرت إلى الولدين الصغيرين المنهمكين في اللعب بالصلصال، وإلى حيث كانت "**انكا**" تتبختر وهي تغني لنفسها وتلوح بقدميها الصغيرتين.

– نعم لقد وهبني أطفالي، وإني لأشكره على ذلك، ولكن ماذا كان بعد كل هذا؟ كان رجلا وسيما متباهيا، رجلا يقصد دائما نساء أخريات. إنه لم يتخذ زوجة كما تقضي التقاليد ويأتي بها إلى المنزل، امرأة متواضعة تنفعنا جميعا. كلا بل كان يذهب إلى المنازل ذات السمعة السيئة، ويصرف فيها بإسراف ويشرب أيضا، ويطلب أغلى الراقصات، وكان من حسن الحظ أن "**أمحتوب**" كان يقتر عليه. وأنه كان عليه أن يقدم حسابا عسيرا عن المبيعات التي كان يتولاها في المزرعة، فما الحب والاحترام الذي يجب أن أكنه لرجل من هذا الطراز؟ وما قيمة الرجال على أي حال؟ إنهم ضروريون لإنجاب الأطفال. هذا كل ما هنالك، ولكن قوة الجنس فينا نحن يامعشر النساء.. إننا نحن يا "**رينسنب**" الذين نورث أطفالنا كل ما نملك، أما عن الرجال فلينجبوا وليموتوا... وكان الاحتقار والازدراء اللذان يملآن صوت "**كيت**" يرتفعان مثل نبرات آلة موسيقية، وكان وجه "**كيت**" القوي القبيح قد تبدل. وفكرت "**رينسنب**" بحسرة: «إن "**كيت**" قوية، ولو كانت غبية فإن غباءها من النوع الراضي عن نفسه. إنها تكره وتحتقر الرجال، وكان يجب أن أعرف،

فقد لمحت مرة قبل ذلك لمحة من هذا.. هذه الصفة المهددة نعم إن "**كيت**" قوية».
وبلا شعور سقطت نظرة "**رينسنب**" على يدي "**كيت**"، كانتا تعصران وتعجنان الصلصال.. يدان قويتان فيهما عضلات، وبينما كانت "**رينسنب**" تراقبهما، وهما تعجنان الصلصال فكرت في "**إيبي**"، وفي يدين قويتين تدفعان رأسه في الماء، وتمسكان به هناك دون رحمة.. نعم إن بوسع يدي "**كيت**" أن تفعلا ذلك. وتعثرت الفتاة الصغيرة "**انكا**" ووقعت على الشوك، وصرخت، فهرعت إليها "**كيت**" والتقطتها، وأمسكت بها على صدرها وهي تدندن لها وكان وجهها الآن كله حب وحنو. وهرعت "**هينيت**" من الشرفة:

– هل هناك شيء..؟ إن الطفلة صرخت عاليا لدرجة أنني فكرت في أنه ربما...
وتوقفت وقد ظهرت عليها خيبة الأمل، واكتاب وجهها المغلول الخسيس المتوجس لحدوث كارثة. ونقلت "**رينسنب**" بصرها من المرأة للأخرى. حقد في وجه، وحب في وجه آخر، وتساءلت من منهما الأكثر شناعة؟

الفصل الثاني والعشرون

كان اليوم التالي هو ليلة الاحتفال بالقمر الجديد، وكان "**أمحتوب**" مضطرا إلى الذهاب إلى المقبرة لكي يقدم القرابين، وتوسل "**ياموس**" لأبيه أن ينوب عنه في هذه المناسبة، ولكن "**أمحتوب**" لم يتزحزح عن موقفه، وتمتم بما يبدو الآن تمثيلا ضعيفا لطريقته القديمة:

– كيف أتأكد أن الأمور تجري كما يجب ما لم أقم بها بنفسي؟ هل تخليت أبدا عن واجباتي؟ ألم أصرف عليكم جميعا وأسندكم جميعا؟ وتوقف صوته:

– جميعا؟ جميعا؟ آه إني أنسى ولدي الشجاعين –ابني "**سوبك**" الوسيم، وابني "**إيبي**" الذكي المحبوب– ذهبا عني. "**ياموس**" و"**رينسنب**" – ابني وابنتي العزيزين– أنتما ما زلتما معي ولكن إلى متى..؟ إلى متى؟ قال "**ياموس**":

– لسنوات عديدة كما نأمل.. كان يتكلم بصوت عال كما لو كان يكلم رجلا أصم.

– آه؟ ماذا؟ وكان يبدو على "**أمحتوب**" أنه في غيبوبة ثم قال فجأة وبدهشة:

– إن هذا يتوقف على "**هينيت**"، أليس كذلك؟ نعم إنه يتوقف على "**هينيت**".
وتبادل "**ياموس**" و"**رينسنب**" النظرات وقالت برفق ووضوح:

– إني لا أفهمك يا أبي. وتمتم "**أمحتوب**" بشيء لم يسمعاه، ثم رفع صوته قليلا ولكن عينيه ظلتا بليدتين وخاويتين وقال:

– إن "**هينيت**" تفهمني، وهي كانت دائما تفهمني، وهي تعرف كم مسؤولياتي كبيرة وعظيمة. نعم كم هي كبيرة.. ودائما الجحود.. لذلك يجب أن يكون هناك عقاب.. إن هذا كما أعتقد من المبادئ المعمول بها، يجب أن تُعاقب الغطرسة.. إن "**هينيت**" كانت دائما متواضعة ومخلصة وستكافأ.. وشد قامته باهتمام:

– أنت تفهم يا "**ياموس**".. يجب أن تنال "**هينيت**" كل ما تريده.. إن أوامرها يجب أن تطاع.

– ولكن لماذا يا أبي؟

– لأني أقول هذا. لأنه إذا حصلت "**هينيت**" على ما تريد فلن تحدث وفيات أخرى.. وأومأ برأسه في حكمة ثم مضى، تاركا "**ياموس**" و"**رينسنب**" يحدقان إلى بعضهما في استغراب وخوف.

– ماذا يعني هذا يا "**ياموس**"؟

– لا أعرف يا "**رينسنب**"، وفي بعض الأحيان أعتقد أن أبي لم يعد يعرف ما يقوله أو ما يفعله.

– لا، ربما لا، ولكني أعتقد يا "**ياموس**" أن "هينيت" تعرف جيدا ما تقوله وما تفعله. إنها قالت لي منذ فترة قصيرة، إنها قريبا سيكون في يدها السوط في هذا المنزل. ونظرا إلى بعضهما ثم وضع "**ياموس**" يده على ذراع "**رينسنب**":

– لا تغضبيها. أنت تظهرين شعورك بوضوح أكثر من اللازم يا "**رينسنب**". أسمعت ما قاله أبي؟ إذا فعلنا ما تريده "**هينيت**" لن تكون هناك وفيات أخرى..
كانت "**هينيت**" جالسة القرفصاء في إحدى غرف المخازن وهي تعد أكواما من الملاءات. كانت ملاءات قديمة، وامسكت بعلامة على أحد الأطراف وقربتها من عينيها. وتمتمت: «"**أياشات**"، ملاءات "**أياشات**"، ومكتوب عليها تاريخ السنة التي جاءت فيها إلى هنا... هي وأنا معا.. هذا منذ زمن طويل. إني أتساءل هل تعرفين الآن فيما تستعمل ملاءاتك يا "**أياشات**"؟»... وتوقفت في وسط ضحكة،

وجفلت عند سماع صوت جعلها تنظر خلفها. كان "**ياموس**".

– ماذا تفعلين يا "**هينيت**"؟

– إن الحنوطية يحتاجون إلى ملاءات أكثر، لقد استعملوا أكواما من الملاءات. استعملوا أربعمائة كوم أمس فقط. إنه لشيء فظيع كمية الملاءات التي تستهلكها هذه الجنازات، سنضطر إلى استعمال هذه الملاءات القديمة. إنها من صنف جيد ولم تستهلك كثيرا. إنها ملاءات والدتك يا "**ياموس**". نعم ملاءات والدتك..

– من سمح لك باستعمالها؟ وضحكت "**هينيت**":

– إن "**أمحتوب**" قد عهد إليّ بكل شيء وليس عليّ أن أطلب إذنا. إنه يثق بـ"**هينيت**" العجوز المسكينة، وهو يعرف أنها ستفعل كل شيء طبقا للأصول، لقد قمت بأغلب الامور في هذا المنزل لمدة طويلة وأعتقد –الآن– أني سأنال جزائي.

– يبدو ان هذا هو ما سيحدث يا "**هينيت**"، وكان صوت "**ياموس**" معتدلا.

– إن أبي يقول... وتوقف. إن كل شيء يتوقف عليك.

– هل قال ذلك؟! حسنا إن هذا شيء يسرني الاستماع إليه، ولكن ربما لا تعتقد أنت ذلك يا "**ياموس**".

– حسنا، انا لست متأكدا تماما.. وكان صوت "**ياموس**" مازال معتدلا، ولكنه كان يراقبها عن قرب.

– أعتقد أنه من الأفضل أن تتفق مع أبيك يا "**ياموس**" فإننا لا نريد أي متاعب أخرى، أليس كذلك؟

– أنا لا أفهم تماما. أتعنين أننا لا نريد أية وفيات أخرى؟

– ستكون هناك وفيات أخرى يا "**ياموس**" بالتأكيد.

– من التالي الذي سيموت يا "**هينيت**"؟

– ولماذا تعتقد أنني أعرف هذا؟

– أعتقد أنك تعرفين الكثير. إنك مثلا كنت تعرفين أن "**إيبي**" سيموت.. أنت ذكية جدا يا "**هينيت**"، أليس كذلك؟ وشمخت "**هينيت**" وقالت:

– إذن فقد بدأت تدرك هذا الآن. أنا لم أعد "**هينيت**" الغبية المسكينة. أنا أعرف.

– ماذا تعرفين يا "**هينيت**"؟ وتغير صوت "**هينيت**" وأصبح منخفضا وحادا:

– أعرف أن بوسعي أخيرا أن أفعل ما أريده في هذا المنزل، ولن يكون هناك من يمنعني. إن "**أمحتوب**" يركن إليّ، وأنت ستفعل مثله هه يا "**ياموس**"؟

– و"**رينسنب**"؟ وضحكت "**هينيت**" ضحكة سعيدة وخبيثة.

– لن تكون "**رينسنب**" هنا.

– أتعتقدين أن "**رينسنب**" هي التي ستموت في المرة التالية؟

– ما الذي تظنه أنت يا "**ياموس**"؟

– إنني أنتظر لأسمع ما الذي ستقولينه أنت.

– ربما عنيت فقط أن "**رينسنب**" ستتزوج وترحل.

– ما الذي تعنين يا "**هينيت**"؟ وضحكت "**هينيت**":

– لقد قالت "**أسا**" مرة إن لساني خطر. ربما هو كذلك، وأطلقت ضحكة رفيعة وهي تتمايل على كعبيها:

– حسنا يا "**ياموس**" ما قولك؟ هل سأفعل أخيرا ما أريده في هذا المنزل؟ وتفحصها "**ياموس**" لبرهة قبل أن يقول:

– نعم يا "**هينيت**"، أنت ذكية جدا. ستفعلين ما يحلو لك. واستدار ليقابل "**حوري**" الذي كان آتيا من البهو الرئيسي والذي بادره بالقول:

– هانتذا يا "**ياموس**".. إن "**أمحتوب**" ينتظرك فقد حان الوقت للذهاب إلى المقبرة. وأومأ "**ياموس**":

– أنا آت.. وخفض صوته:

– "**حوري**" أعتقد أن "**هينيت**" مجنونة، إنها بالتأكيد ممسوسة من الشياطين. ولقد بدأت أعتقد أنها هي المسؤولة عن كل هذه الحوادث. وتوقف "**حوري**" برهة قبل أن يقول بصوته الهادئ المنعزل:

– إنها امرأة غريبة، وأعتقد أنها شريرة. وخفض "**ياموس**" صوته أكثر:

– "**حوري**" أنا أعتقد أن "**رينسنب**" في خطر؟

– من "**هينيت**"؟

– نعم.. لقد لمحت توا أن "**رينسنب**" قد تكون هي التالية.. للرحيل. ووصل إليهما صوت "**أمحتوب**" متبرما:

– هل سأنتظر طوال اليوم؟ ما هذا السلوك؟ لم يعد أحد يهتم بي، لا يعرف أحد

ما أحتمله. أين "**هينيت**"؟ إن "**هينيت**" تفهمني. وجاءت ضحكة "**هينيت**" الرفيعة من داخل المخزن.

– هل تسمع هذا يا "**ياموس**"؟ "**هينيت**" هي التي تفهمه، وقال "**ياموس**" بشراسة:

– نعم يا "**هينيت**" أنا أفهم. أنت التي بيدك النفوذ والقوة –أنت وأبي وأنا– نحن الثلاثة معا. ومضى "**حوري**" ليلحق بـ"**أمحتوب**"، وقال "**ياموس**" بضع كلمات لـ"**هينيت**" التي أومأت وقد أضيئت عيناها بانتصار خبيث. ثم لحق "**ياموس**" بـ"**حوري**" و"**أمحتوب**"، واعتذر عن تأخره، ومضى الرجال الثلاثة إلى المقبرة.

-3-

مر اليوم بطيئا على "**رينسنب**". كانت قلقة تمشي ذهابا وإيابا من المنزل للشرفة ثم للبحيرة، ثم ترجع مرة أخرى للمنزل. ورجع "**أمحتوب**" إلى المنزل في منتصف النهار، وبعد أن أكل وجبة طعام خرج إلى الشرفة، ولحقت به "**رينسنب**"، جلست ويداها حول ركبتيها، وهي تنظر من حين لآخر إلى وجه أبيها، وكان لا يزال عليه ذلك التعبير المتحير التائه، ولم يتكلم "**أمحتوب**" كثيرا، وتنهد مرة أو مرتين. وفي مرة تنبه وسأل عن "**هينيت**"، ولكن في هذا الوقت بالذات كانت "**هينيت**" قد ذهبت بالملاءات للحنوطية، وسألت "**رينسنب**" أباها:

– أين "**ياموس**" و"**حوري**"..؟

– ذهب "**حوري**" إلى حقول الكتان البعيدة، فهناك جرد، و"**ياموس**" في المزرعة، وإن كل شيء يقع الآن على عاتقه.. يا للحسرة على "**سوبك**" و"**إيبي**".. ولديّ.. ولديّ الوسيمين.. وحاولت "**رينسنب**" أن تصرف باله بسرعة.

– الا يستطيع "**كاماني**" أن يراقب العمال؟

– "**كاماني**"؟ من هو "**كاماني**"؟ ليس لي ابن بهذا الاسم؟

– "**كاماني**" الكاتب الذي سيصبح زوجي. وحدق إليها.

– أنت يا "**رينسنب**" ولكنك ستتزوجين "**فاي**"؟ وتنهدت ولم تقل شيئا آخر، فقد بدا أنه من القسوة أن تحاول رده إلى الحاضر. ومع ذلك فبعد فترة وجيزة تنبه من نفسه وهتف فجأة:

– بالطبع. "**كاماني**" .. إنه ذهب ليصدر بعض التعليمات لرئيس العمال في معمل الشراب. يجب أن أذهب وألحق به. ومضى بخطى سريعة وهو يتمتم لنفسه بطريقته القديمة، ولذلك شعرت "**رينسنب**" ببعض السرور. ربما إن الغلالة التي رانت على عقله مؤقتة ونظرت حولها وبدا أن هناك اليوم شرا في السكون الضارب حول المنزل والفناء. كان الأطفال في الجانب البعيد من البحيرة، ولم تكن "**كيت**" معهم، وتساءلت "**رينسنب**" : «أين هي؟». ثم خرجت "**هينيت**" إلى الشرفة، ونظرت حولها ثم جاءت تسترق الخطى نحو "**رينسنب**" ، وكانت قد رجعت إلى طريقتها القديمة المتواضعة.

– كنت أنتظر حتى أجدك وحدك يا "**رينسنب**" .

– لماذا يا "**هينيت**"؟ وخفضت "**هينيت**" صوتها.

– لديَّ رسالة لك من "**حوري**" ؟

– ماذا يقول؟ كان صوت "**رينسنب**" متحمسا.

– إنه يطلب منك الصعود إلى المقبرة.

– الآن؟

– كلا. كوني هناك قبل ساعة من الغروب. هذه هي الرسالة وهو يطلب منك أن تنتظريه إذا لم يكن هناك حتى يأتي وهو يقول إن الأمر مهم.. وتوقفت "**هينيت**" . ثم أضافت:

– طلب مني أن أنتظر حتى تكوني وحدك لأقول هذا وألا يسمع أحد ما أقوله. وتسللت "**هينيت**" مرة أخرى بعيدا. وشعرت "**رينسنب**" بأن حملا أزيح عنها. شعرت بسرور لفكرة ذهابها إلى هدوء وسلام المقبرة، وبالسرور لأنها سترى "**حوري**" ، وسيكون بوسعها أن تكلمه بحرية، وكان الشيء الوحيد الذي يدهشها هو أنه عهد برسالته إلى "**هينيت**" . ورغم ذلك فمع أن "**هينيت**" خبيثة فقد نقلت الرسالة بأمانة. وفكرت "**رينسنب**" : "ولماذا أخاف من "**هينيت**" في أي وقت؟ أنا أقوى منها" . وشدت قوامها بكبرياء وشعرت بشبابها وبالثقة وبأنها مازالت قوية.

- 4 -

بعد أن أبلغت "**هينيت**" الرسالة ذهبت مرة أخرى لغرفة تخزين الملاءات، وكانت تضحك في سرها بهدوء. وانحنت على أكوام الملاءات غير المنظمة، وقالت وهي تخاطب الملاءات بسرور:

– سنحتاج إلى الكثير منك قريبا. هل تسمعين يا "**أياشات**"؟ أنا السيدة هنا الآن، أقول لك إن ملاءاتك سيلف بها جثمان آخر، وجثمان من يكون؟ ها.. ها أنت لم تستطيعي أن تفعلي الكثير؟ أنت وخالك الحاكم. العدالة؟ ما هي العدالة التي تستطيعين إقامتها في هذا العالم؟ أجيبيني عن ذلك؟ صدرت حركة من خلف بالات اللينون، وأدارت "**هينيت**" رأسها في نصف دائرة. ثم رُميت عليها قطعة عريضة وكبيرة من القماش كتمت فمها وأنفها، ولفت يد قوية لا تلين القماش حول جسمها مثلما يلف جثمان ميت حتى سكنت حركتها.

الفصل الثالث والعشرون

جلست "**رينسنب**" في مدخل الغرفة الحجرية وهي تحدق إلى النيل غارقة في حلم غريب، وكان يبدو لها أنه مر وقت طويل منذ اليوم الذي جلست فيه هنا أول مرة بعد رجوعها لمنزل أبيها بقليل. وكان هذا هو اليوم الذي أعلنت فيه بمرح أنه لم يتغير شيء، وأن كل شيء في البيت كان تماما كما تركته عندما غادرت المنزل منذ ثماني سنوات. وتذكرت الآن كيف أن "**حوري**" قد قال لها إنها هي نفسها لم تعد "**رينسنب**"، تلك التي رحلت مع "**فاي**"، وكيف أنها أجابت بثقة أنها سترجع كما كانت، وتكون كذلك بعد قليل. ثم مضى "**حوري**" يتحدث عن التغيرات التي تحدث من الداخل من عفن ليس له أثر خارجي ظاهر. وكانت الآن تعرف شيئا مما كان يدور في باله عندما قال هذا الكلام. إنه كان يحاول أن يعدها فإنها كانت عمياء ومطمئنة لدرجة كبيرة، وكانت تتقبل بسهولة أفراد عائلتها كما يبدو ظاهريا. ولم تتفتح عيناها إلا بقدوم "**نوفريت**"... نعم قدوم "**نوفريت**".. إنه كان محور كل شيء.. لقد جاء الموت من "**نوفريت**" وبصرف النظر عما إذا كانت "**نوفريت**" شريرة أم لا، فإنها بالتأكيد قد جلبت الشر معها. والشر مازال في

وسطهم. ولآخر مرة حاولت "**رينسنب**" أن تتخيل أن روح "**نوفريت**" هي السبب في كل شيء. و"**نوفريت**" الخبيثة الميتة.. أو "**هينيت**" الخبيثة الحية.. "**هينيت**" المحتقرة المتملقة.. وارتعشت "**رينسنب**"، وتحركت، ثم نهضت ببطء على قدميها. إنه لا يمكنها انتظار "**حوري**" أكثر من ذلك.. إن الشمس على وشك الغروب، وتساءلت بدهشة لماذا لم يأت؟ ونهضت ونظرت حولها، وبدأت تنزل الطريق نحو الوادي. كانت ساعة الغسق هذه ساكنة جدا.. ساكنة وجميلة –كما فكرت– ماذا أخر "**حوري**"؟ لو كان قد جاء لكان بوسعهما على الأقل أن يقضيا هذه الساعة معا.. لن تكون هناك ساعات كثيرة مثلها، ففي المستقبل القريب عندما تصبح زوجة "**كاماني**"... هل ستتزوج "**كاماني**" حقا؟ وبنوع من الصدمة حررت نفسها من حالة القبول المتبلد التي خيمت عليها لفترة طويلة، وشعرت كنائم يصحو من حلم محموم. لقد وافقت على كل ما عرض عليها وهي في حالة ذهول من الخوف وعدم الاطمئنان. ولكنها الآن رجعت إلى طبيعتها، وأصبحت "**رينسنب**" مرة أخرى، ولو تزوجت "**كاماني**" فسيكون ذلك لأنها أرادت أن تتزوجه، وليس لأن عائلتها رتبت هذا الزواج. "**كاماني**" بوجهه الوسيم الضاحك! إنها تحبه أليس كذلك؟ ولهذا ستتزوجه. في ساعة المساء هنا في أعلى الجبل يكون الوضوح والحقيقة دون بلبلة أفكار. إنها "**رينسنب**" تمشي هنا فوق العالم دون خوف، صافية على حقيقتها أخيرا. ألم تقل مرة لـ"**حوري**" إنها يجب أن تنزل من هذا الطريق وحدها في الساعة نفسها التي ماتت فيها "**نوفريت**"، وإنه بصرف النظر عن كونها خائفة أم لا، فإنها مع ذلك يجب أن تمشي وحدها؟ حسنا هذا هو ما تفعله الآن. إن هذه هي تقريبا الساعة التي انحنت فيها "**ساتيبي**" وهي فوق جثمان "**نوفريت**"، وهي أيضا نفس الساعة تقريبا التي مشت فيها "**ساتيبي**" بدورها في هذا الطريق. وفجاة نظرت خلفها؛ لترى القدر يلحق بها. وحدث هذا في نفس هذا المكان تقريبا. ما الذي سمعته "**ساتيبي**" ليجعلها تنظر خلفها فجاة؟ خطوات؟ خطوات.. لكن "**رينسنب**" تسمع الآن خطوات تتبعها وهي نازلة على الطريق، وشعرت بقلبها يقفز من الخوف فجأة. إنها حقيقة إذن أن "**نوفريت**" كانت هناك خطوات خلفها تتبعها.... وطغى عليها الخوف، ولكن لم تتباطأ في خطاها، ولم تهرع إلى الأمام أيضا. إنها يجب أن تتغلب على الخوف ما دام ليس في عقلها أي عمل شرير تندم

عليه. وتماسكت واستجمعت شجاعتها، وأدارت رأسها وهي ما تزال تمشي. ثم شعرت بفرح شديد. إن "ياموس" هو الذي يتبعها. ليست روحا من الأموات وإنما شقيقها بنفسه. إنه كان بلا ريب مشغولا في غرفة القرابين في المقبرة، وخرج منها توا بعد أن مرت من أمامها. وتوقفت وأطلقت صرخة صغيرة سعيدة.

- آه يا "ياموس" كم أنا سعيدة لأنه أنت. كان آتيا نحوها بسرعة، وكانت قد بدأت تقول جملة أخرى، تردُّ بها من مخاوفها الساذجة، عندما تجمدت الكلمات على شفتيها. ليس هذا "ياموس" الذي تعرفه، الأخ الرقيق الطيب، إن عينيه تلمعان بشدة، وهو يلعق شفتيه الجافتين بلسانه بسرعة، ويداه ممددتان قليلا أمامه ملتويتان قليلا والأصابع تبدو كمخالب. إنه ينظر إليها، والنظرة التي في عينيه واضحة. إنها نظرة رجل سبق له القتل، وسيقتل مرة أخرى، وهناك على وجهه قسوة مفترسة ورضاء شرير. "ياموس".. العدو الخفي كان "ياموس"، تحت قناع الوجه الرقيق الطيب. كانت تفكر في أن أخاها يحبها، لكن لا يوجد حب في هذا الوجه المفترس غير الآدمي. وصرخت "رينسنب"، صرخة بائسة ضعيفة. كانت تعرف أن هذا هو الموت.. لا توجد لديها قوة توازي قوة "ياموس". هنا حيث وقعت "نوفريت"، وحيث الطريق ضيق ستقع هي أيضا لتموت.

- "ياموس" كانت استعطافة أخيرة وفي هذا النداء باسمه كان الحب الذي أحبت به دائما هذا الأخ الأكبر، ولكنه كان استعطافا بلا فائدة. وضحك "ياموس" ضحكة صغيرة سعيدة رقيقة لا إنسانية فيها، ثم هرع إلى الأمام، ويداه القاسيتان اللتان تشبهان المخالب مثنيتان كما لو أنهما تتوقان إلى الالتفاف بشدة حول عنقها. وتراجعت "رينسنب" نحو واجهة الجبل ويداها ممددتان في محاولة يائسة لتفاديه. إن هذا الرعب.. الموت.. ثم سمعت صوتا.. صوتا موسيقيا خافتا له رنين.. ومرق شيء يصفر في الهواء، وتوقف "ياموس" وترنح، ثم وقع بصرخة قوية إلى الأمام على وجهه عند قدميها، ونظرت ببلاهة إلى عمود السهم ذي الريش.

-2-

"ياموس".. "ياموس".. رددت "رينسنب" الاسم المرة تلو المرة، وقد شلتها الصدمة. كما لو كانت لا تستطيع أن تصدق هذا.. كانت خارج الغرفة الحجرية

الصغيرة وكان ذراع "حوري" لا يزال حولها، ولم يكن في وسعها الآن ان تتذكر كيف قادها صاعدا بها الطريق مرة أخرى. إن كل ما كان بوسعها ان تفعله هو ترديد اسم أخيها في تلك النبرات المبهورة من الدهشة والرعب. وقال "حوري" برفق:

– نعم "**ياموس**" طوال الوقت.. "**ياموس**".

– ولكن لماذا؟ وكيف يمكن ان يكون هو؟!! إنه قد سمَّ نفسه وكاد أن يموت.

– كلا لم تكن هناك مخاطرة من أن يموت. إنه كان حذرا جدا في كمية الشراب الذي شربه.. إنه ارتشف منه ما يكفي ليمرض وبالغ في آلامه، إنها كانت الوسيلة الوحيدة التي يعرفها ليبعد الشك عنه.

– ولكن لم يكن بوسعه أن يقتل "**إيبي**". إنه كان ضعيفا لدرجة انه لم يكن يقدر على الوقوف على قدميه.

– وهذا أيضا كان تمثيلا. الا تتذكرين ان الكاهن "**مرسو**" كان قد أعلن أنه بمجرد التخلص من السم سيسترجع قواه بسرعة. لقد حدث هذا في الواقع.

– لكن لماذا يا "**حوري**"؟ هذا ما لا أستطيع فهمه... لماذا؟ وتنهد "**حوري**":

– هل تتذكرين يا "**رينسنب**" أني تكلمت معك مرة عن العفن الذي يأتي من الداخل؟

– إنني أذكر هذا وفي الواقع كنت أفكر في هذا الحديث هذا المساء.

– لقد قلت مرة إن مجيء "**نوفريت**" اتى بالشر وهذا ليس حقيقيا. إن الشر كان موجودا هنا ومختبئا في صدور أهل المنزل. إن كل ما فعله مجيء "**نوفريت**" هو أنه أخرجه من الظلمات إلى النور، ووجودها محا الاختباء. تحولت أمومة "**كيت**" الرقيقة إلى أنانية لنفسها وصغارها، "**سوبك**" لم يعد الشاب المرح الجذاب بل أصبح الضعيف المتباهي الأجوف. "**إيبي**" لم يعد صبيا مدللا وجميلا، بل بدا كولد أناني ذي مكائد، وبدأ يظهر السم بوضوح من خلال وفاء "**هينيت**" المزعوم. "**ساتيبي**" ظهرت كجبانة و"**أمحتوب**" نفسه...

– إنني أعرف... أعرف، وارتفعت يدا "**رينسنب**" إلى عينيها:

– لا حاجة لكي تخبرني.. لقد اكتشفت هذا بالتدريج بنفسي.. لماذا تقع هذه الأمور؟ لماذا يأتي العفن كما تقول من داخل المرء؟! وهز "**حوري**" كتفيه:

– من الذي يستطيع أن يعرف؟ يجب أن يكون هناك نموداثما، وأن المرء إذا لم ينمُ

ويصبح أحكم وأطيب وأعظم فإن النمو يجب أن يكون من الناحية الأخرى، فينمّي الخصال الشريرة، وقد تكون الحياة التي عاشوها مغلقة جدا، ولا مكان فيها للخيال. أو قد يكون شيء معد، مثل آفة محاصيل، وأن واحدا أصابته العدوى ثم انتقلت للآخرين.

– ولكن "**ياموس**" كان يبدو دائما كما هو.

– نعم وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتني يا "**رينسنب**" أشك. فإن الآخرين كان يسكنهم التنفيس نتيجة لطباعهم، ولكن "**ياموس**" كان دائما خجولا، ومن السهل التحكم فيه، ولم تكن لديه قط الشجاعة لكي يثور. كان يحب "**أمحتوب**"، ويعمل جهده ليرضيه، و"**أمحتوب**" كان ينظر إليه كشخص حسن النية، ولكنه غبي وبطيء وكان يحتقره. وكانت "**ساتيبي**" أيضا تعامل "**ياموس**" بازدراء. امرأة مسيطرة، وبدأ شعوره الخفي بالحنق الذي كان يشعر به يزداد بالتدريج، وكان كلما بدا أكثر وداعة كان غضبه الخفي يزداد. ثم في الوقت الذي كان "**ياموس**" يأمل فيه أنه سيحصد ثمار عمله وجهده، وانه اصبح شريكا لأبيه، وتقدر جهوده جاءت "**نوفريت**"، وكانت "**نوفريت**"، وربما جمال "**نوفريت**"، هو الذي أشعل الشرارة الأخيرة. إنها هاجمت رجولة الإخوة الثلاثة. إنها أصابت "**سوبك**" في الصميم باحتقارها له كمغفل، وأثارت "**إيبي**" بمعاملته كطفل شرس دون أية رجولة، وأظهرت لـ"**ياموس**" انه اقل من رجل في نظرها. إن لسان "**ساتيبي**" قد دفع "**ياموس**" أخيرا إلى الانفجار، وحدث ذلك بعد مجيء "**نوفريت**". كانت تهكماتها وتعبيرها له بانها ارجل منه هما اللذان حطما أخيرا ضبط النفس عنده، وقابل "**نوفريت**" على هذا الطريق –وهو غير متمالك أعصابه– فرماها من فوق الجبل.

– ولكن إن "**ساتيبي**" هي...

– كلا كلا يا "**رينسنب**" هذا هو الخطأ الذي وقعتم فيه جميعا. إن "**ساتيبي**" رأت الحادثة من الوادي، والآن هل تفهمين؟

– ولكن "**ياموس**" كان معك في المزرعة.

– نعم كان معي في الساعة الأخيرة، ولكن الا تدركين يا "**رينسنب**" أن جثمان "**نوفريت**" كان باردا؟ لقد مسست وجنتها بنفسك، وظننت أنها وقعت منذ

لحظات قليلة قبل ذلك، ولكن هذا كان مستحيلا. إنها كانت ميتة منذ ساعتين على الأقل، ولولا ذلك لكان وجهها تحت هذه الشمس الحامية لا يمكن أن يكون باردا. إن "**ساتيبي**" رأت الحادثة، وظلت قريبة وهي خائفة ولا تدري ماذا تفعل، ثم رأتك قادمة وحاولت أن تبعدك.

– متى عرفت هذا يا "**حوري**"؟

– لقد خمنت سريعا، وكان سلوك "**ساتيبي**" هو الذي أفهمني ذلك. كان من الواضح أنها تعيش في فزع مميت من شخص ما، وتأكدت بعد هذا بقليل أن "**ياموس**" كان هو الشخص الذي تخافه.. لقد توقفت عن تعاليها عليه، وبدلا من ذلك أصبحت متحمسة لطاعته بكل طريقة. إنها كانت كما ترين صدمة فظيعة لها، فإن "**ياموس**" أشد الرجال وداعة والذي كانت تحتقره هو في الواقع قاتل "**نوفريت**". وقلبت هذه الواقعة عالم "**ساتيبي**"، فإنها مثل أغلب النساء كانت جبانة، و"**ياموس**" الجديد هذا أرعبها، وبدأت من جراء خوفها تتكلم وهي نائمة، وسرعان ما أدرك "**ياموس**" أنها خطر، والآن يا "**رينسنب**" يمكنك أن تدركي حقيقة ما رأيته بعينيك في ذلك اليوم. لم يكن ما رأته "**ساتيبي**" وسبب وقوعها شبحا، إنها رأت ما رأيته أنت اليوم، رأت في وجه الرجل الذي يتبعها –زوجها– نيته في أن يرميها إلى أسفل كما رمى المرأة الأخرى، وتراجعت إلى الخلف خوفا منه ووقعت، وعندما تفوهت بكلمة "**نوفريت**" وهي تحتضر، كانت تحاول أن تخبرك بأن "**ياموس**" قتل "**نوفريت**". وتوقف "**حوري**" برهة ثم مضى يقول:

– إن "**أسا**" عرفت الحقيقة من ملاحظة –لا علاقة لها إطلاقا بالموضوع– أبدتها "**هينيت**". إن "**هينيت**" اشتكت من أني لا أنظر إليها، ولكني أنظر إلى شيء خلفها لا وجود له. ومضت بعد ذلك تتحدث عن "**ساتيبي**"، وفي غمضة عين رأت "**أسا**" كيف أن الأمر كله أبسط بكثير مما كنا نظن. إن "**ساتيبي**" لم تكن لتنظر إلى شيء وراء "**ياموس**". إن الذي رأته هو "**ياموس**" نفسه، ولكي تختبر "**أسا**" فكرتها، أدخلت الموضوع بطريقة عائمة لا تعني شيئا لأي واحد إلا لـ"**ياموس**"، وله وحده فقط إذا كان ما تشك فيه هو الحقيقة، وأدهشته كلماتها، وكانت ردة فعله لها للحظة فقط كافيا لها لتعرف أن ما تشك فيه هو الحقيقة، ولكن "**ياموس**" عرف عندئذ أنها تشك، وإنه بمجرد أن وجد شك فإن الأحداث الأخرى ستبرر تماما حتى

الرواية التي رواها الراعي، وهو صبي مخلص له، ومستعد لأن يفعل أي شيء يأمره به مولاه "**ياموس**"، لدرجة أنه ابتلع دواء في تلك الليلة دواء ضمن عدم يقظته مرة أخرى.

– يا "**حوري**"، إنه من الصعب أن أصدق أن "**ياموس**" فعل هذه الأمور. مقتل "**نوفريت**"، نعم بوسعي أن أفهم هذا ولكن لماذا كل هذه الجرائم الأخرى؟

– من الصعب أن أوضح لك يا "**رينسنب**".. ولكن بمجرد أن يتفتح القلب للشر، يزدهر الشر مثل الزهور بين القمح، وطوال حياته ربما كان "**ياموس**" لديه ميل إلى العنف، ولم يستطع أن يقوم به. كان يحتقر دوره الوديع في الحياة، وأعتقد أن قتله لـ"**نوفريت**" أعطاه شعورا بالقوة، وأدرك هذا من سلوك "**ساتيبي**" أولا.. "**ساتيبي**" التي كانت تسيطر عليه وتوبخه أصبحت الآن وديعة ومرعوبة، واستيقظت فيه كل المظالم التي كان يشكو منها.. مثلما رفع ذلك الثعبان رأسه في هذا الطريق في ذلك اليوم... إن "**سوبك**" و"**إيبي**"، أحدهما أكثر وسامة والآخر أذكى منه؛ لذلك يجب إزاحتهما، وبذلك سيكون هو "**ياموس**" المتحكم في المنزل، والسلوى والركيزة الوحيدة لأبيه، وتضاعف شعور اللذة بالقتل عنده بمقتل "**ساتيبي**" وأحس بأنه أصبح أقوى من جراء هذا وبعد ذلك بدأ عقله يختل، ومنذ ذلك الوقت تملكه الشر كلية. وأنت يا "**رينسنب**" لم تكوني غريمة، وكان ما يزال بوسعه أن يحبك، ولكن فكرة أن زوجك سيشاركه في المزرعة لم يتمكن من احتمالها، وأعتقد أن "**أسا**" وافقت على فكرة الزواج بـ"**كاماني**" من أجل غرضين: أولا أنه إذا قَتَل "**ياموس**" مرة أخرى فإن الذي سيهاجمه سيكون "**كاماني**" على الأرجح- وعلى أي حال فإنها كانت تثق بأني سأحميك، والفكرة الثانية، لأن "**أسا**" كانت امرأة جسور، كانت تريد أن تتعجل الأحداث، وكان "**ياموس**" مراقبا مني، وكان لا يعرف أني أشك فيه، ومن الممكن الإمساك به متلبسا.

– كما فعلت. آه يا "**حوري**" كم خفت عندما نظرت خلفي ورأيته.

– أنا أعرف يا "**رينسنب**"، ولكن كان لابد من ذلك، وطالما أنني الازم "**ياموس**" فإنك آمنة دون شك، ولكن لا يمكن أن يستمر هذا الوضع إلى الأبد، وكنت أعرف أنه لو أتيحت له الفرصة ليلقي بك من فوق الطريق الجبلي في نفس المكان فإنه لن يدعها تمر، وإن هذه الحادثة ستحيي من جديد الإيضاحات الخرافية للميتات السابقة.

– إذن فإن الرسالة التي جاءت بها إليّ "**هينيت**" لم تكن منك. وهز "**حوري**" رأسه:

– لم أبعث إليك بأية رسالة.

– لكن لماذا "**هينيت**"... وتوقفت "**رينسنب**" وهزت رأسها:

– أنا لا أستطيع أن أفهم دور "**هينيت**" في كل هذا. وقال "**حوري**" مفكرا:

– أعتقد أن "**هينيت**" تعرف الحقيقة. وكانت تلمح لـ"**ياموس**" بها هذا الصباح، وهو شيء من الخطر القيام به. إنه استعملها ليجذبك إلى هنا، وهو أمر راق لها القيام به، بما أنها تكرهك يا "**رينسنب**".

– وبعد ذلك.. إنني أتساءل إن "**هينيت**" قد تعتقد أن ما تعرفه سيعطيها قوة، ولكنني لا أصدق أن "**ياموس**" كان سيدعها تعيش طويلا، وربما حتى الآن، وارتعدت "**رينسنب**" وقالت:

– إن "**ياموس**" كان مجنونا، وكانت الأرواح الشريرة تتملكه، ولكنه لم يكن هكذا دائما.

– كلا ومع ذلك أتتذكرين يا "**رينسنب**" كيف رويت لك قصة "**ياموس**" و"**سوبك**" وهما طفلان، وكيف أن "**سوبك**" ضرب رأس أخيه في الأرض وأن والدتك جاءت وهي شاحبة ترتعد وقالت: «إن هذا خطر». أعتقد يا"**رينسنب**" إن ما كانت تعنيه هو أنه من الخطر القيام بمثل هذه الأفعال ضد "**ياموس**"، وتذكري أنه في اليوم التالي مرض "**سوبك**" وظنوا أنه من جراء أكل فاسد. أعتقد يا"**رينسنب**" أن والدتك كانت تعرف شيئا عن الغضب الغريب المكبوت الذي كان يكمن في صدر ابنها الصغير الوديع، وكانت تخشى أن يثار هذا الغضب في يوم ما. وارتعشت "**رينسنب**" وقالت:

– ألا يوجد شخص كما يبدو؟ وابتسم "**حوري**" وقال:

– نعم في بعض الأحيان. إن "**كاماني**" وأنا يا "**رينسنب**" على ما أظن كما تعتقدين فينا.. "**كاماني**" وأنا.. وقال الكلمات الأخيرة بلهجة ذات معنى، وفجأة أدركت "**رينسنب**" أنها تقف في لحظة اختبار في حياتها. ومضى "**حوري**" يقول:

– إن كلينا يحبك يا "**رينسنب**"، وأنت تعرفين هذا بلا ريب. وقالت "**رينسنب**" ببطء:

– ومع ذلك فأنت تركت ترتيبات زواجي تمضي قدما ولم تقل شيئا ولا حتى كلمة واحدة.

– كان هذا من أجل حمايتك، وكانت هي فكرة "**أسا**" أيضا. كان عليّ أن أظل متباعدا وغير مهتم حتى أستطيع أن ألاحظ "**ياموس**" بلا انقطاع وألا أثير عداوته، وأضاف "**حوري**":

– بتأثر يجب أن تفهمي يا "**رينسنب**" أن "**ياموس**" كان صديقي منذ عدة سنوات وكنت أحبه، وحاولت أن أدفع أباك لكي يعطيه المكانة والسلطة التي كان يريدها وأخفقت في ذلك. إن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان، ولكن ولو أنني كنت مقتنعا في نفسي بأن "**ياموس**" قتل "**نوفريت**" إلا أنني حاولت ألا أصدق هذا، ووجدت له حتى تبريرات لفعلته. إن "**ياموس**" صديقي التعس المعذب كان غاليا جدا عليّ، ثم جاء موت "**سوبك**" و"**إيبي**" وأخيرا موت "**أسا**".. وعرفت حينئذ أن الشر الذي في "**ياموس**" قد تغلب على الخير، ولذلك لقي "**ياموس**" موته على يديّ ميتة سريعة ودون ألم تقريبا.

– الموت... دائما الموت.

– كلا يا "**رينسنب**" إن الذي يواجهك اليوم هي الحياة وليس الموت. مع من ستتقاسمين حياتك؟ مع "**كاماني**" أو معي أنا؟ وحدقت "**رينسنب**" أمامها عبر الوادي وحتى ضوء النيل الفضي. وأمامها ارتفعت بوضوح صورة "**كاماني**" بوجهه الباسم في ذلك اليوم وهو في مواجهتها في القارب وسيما مرحا وقويا.. وشعرت مرة أخرى بدمائها تخفق لقد أحبت "**كاماني**" في تلك اللحظة. إنها تحبه الآن وبوسع "**كاماني**" أن يحل محل "**فاي**" في حياتها. وفكرت "**رينسنب**": «سنكون سعداء معا... نعم سنكون سعداء.. سنعيش معا ونسعد ببعض، وسيكون لنا أطفال جملاء أقوياء. ستكون هناك أيام مليئة بالعمل.. وأيام للنزهة عندما نبحر في النهر. وستصبح الحياة مرة أخرى كما عرفتها مع "**فاي**".. وما الذي أستطيع أن أطلبه أكثر من هذا؟ ما الذي أريده أكثر من هذا؟» وأدارت وجهها ببطء شديد نحو "**حوري**". كانت كمن يسأله سؤالا دون كلام. وأجاب كما لو أنه فهمها:

– عندما كنت طفلة كنت أحبك. كنت أحب وجهك الجاد والثقة التي كنت تأتين بها إليّ وتطلبين مني أن أصلح لعبك المكسورة. ثم بعد غيبة ثماني سنوات

رجعت مرة أخرى، وجئت إلى هنا، وذكرت لي الأفكار التي تدور براسك. إن عقلك يا "**رينسنب**" ليس مثل عقل بقية أفراد اسرتك.. إنه لا يدور حول نفسه وحول جدرانه الضيقة. إن عقلك مثل عقلي، إنه ينظر عبر النيل، ويرى عالما يتغير وأفكارا جديدة، يرى عالما كل شيء فيه ممكن لمن أوتوا بُعد النظرة والشجاعة.

– أعرف يا "**حوري**"، إني أعرف وقد شعرت بهذا معك، ولكن ليس كل الوقت، وستكون هناك أوقات لا أستطيع أن اتبعك فيها، وسأكون وحيدة في هذه الأوقات.
وتوقفت وهي لا تجد الكلمات التي تعبر بها عن الصراع الذي يدور بفكرها. إنها لا تعرف كيف ستكون الحياة مع "**حوري**"، فإنه على الرغم من رقته وحبه لها، سيظل في بعض النواحي غامضا. إنهما سيشاركان في أوقات جميلة وغنية معا، ولكن ماذا عن حياتها العادية؟ ومدت يديها بحركة لا شعورية نحوه.

– آه يا "**حوري**" قرر لي ماذا أفعل؟ وابتسم لها –للطفلة "**رينسنب**" التي كانت تتكلم ربما لآخر مرة كطفلة– ولكنه لم يمسك يدها.

– لا أستطيع أن أقول لك ما يجب أن تفعليه بحياتك يا "**رينسنب**"؛ لأنها حياتك أنت، وأنت فقط التي يمكن أن تقرر. وأدركت عندئذ أنها لن تتلقى مساعدة. لن يلتجئ لحواسها كما فعل "**كاماني**"، إن "**حوري**" فقط خيَّرها، ولكنه لم يلمسها. وبدا الخيار أمامها فجأة في أبسط صورة: الحياة السهلة أو الحياة الصعبة. لقد شعرت عندئذ بإغراء قوي أن تستدير وتنزل عبر الطريق الملتوي إلى الحياة العادية السعيدة التي تعرفها من قبل والتي خبرتها مع "**فاي**". إنها حياة آمنة مشاركة في مباهج وأحزان الحياة ودون أي شيء تخشاه غير الشيخوخة والموت. الموت.. إن أفكارها قد دارت دورة كاملة من الحياة إلى الموت. إن "**فاي**" قد مات، و"**كاماني**" ربما سيموت، ووجه مثل وجه "**فاى**" سيزول ببطء من ذاكرتها. ونظرت عندئذ إلى "**حوري**" وهو واقف في سكون بجانبها، وفكرت في أنه شيء غريب أنها لم تعرف قط حقيقة وجه "**حوري**".. إنها لم تشعر قط بالحاجة إلى أن تعرف، وتكلمت عندئذ، وكانت نبرة صوتها هي نفس النبرة عندما أعلنت قبل ذلك أنها ستمشي في الطريق وقت الغروب وحدها.

– لقد اتخذت قراري يا "**حوري**"، سأشاركك حياتك، معك في السراء والضراء حتى يدركنا الموت، وشعرت بسعادة جديدة مفاجئة وذراعاه حولها، وكانت ممتلئة

بشعور جذل مليء ببهجة الحياة. وفكرت إذا مات "حوري" فلن أنسى أن "حوري" أغنية في قلبي إلى الأبد.. وهذا يعني أنه لم يعد هناك موت.

تمت بعون الله